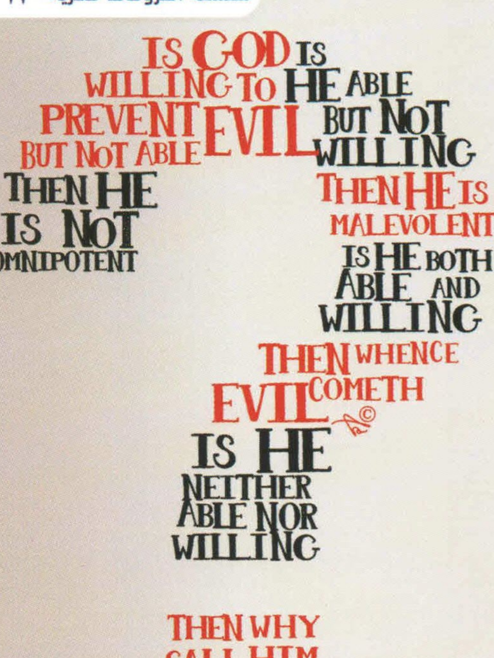
سلسلة أطروحات فكرية - ١٧





أُسُسٌ غائبة

25 مسألة في مشكلة الشر

مع مدخل تعريفي بأشهر الردود الغربية والتعليق عليها

م. أحمد حسن

- الطبعة الثانية -

أُسسٌ غائبة

٢٥ مسألة في مشكلة الشر

أُسسٌ غائبة

٢٥ مسألة في مشكلة الشر

مع مدخل تعريفي بأشهر الردود الغربية والتعليق عليها

م. أحمد حسن



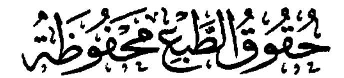
Dalailcentre@gmail.com

الرياض – المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



الطبعة الثانية

١٤٣٩هـ

تصدير:

كثيرةٌ هي العقول التي أفرزتها البشرية لتقود توجهات ملايين الناس لسنوات وسنوات، وسواءً أكانت تلك القيادة في الخير أم الشر إلا أن العاقل يسعىٰ للنظر في أيٍ منها وعرضه علىٰ أوليات الفكر القويم والرأي السديد ليرىٰ مدىٰ اتساقها مع العقل والفطرة ومدىٰ خلوها من التناقض في ذاتها من عدمه.

ولذلك: كانت الحاجة الماسة لمثل هذه السلسلة من (أطروحات فكرية)...

وفي هذا الكتاب يستعرض معنا م. أحمد حسن ٢٥ مسألة من مسائل مشكلة الشر الشائعة حول وجود الألم والمعاناة في العالم، والتي يمثل الجهل بردود الإسلام عليها الأُسس الغائبة التي قد تؤثر في بعض المسلمين للأسف، ولكنه قبل ذلك يخوض بنا لقرابة نصف الكتاب في مُدخل عن مشكلة الشر وأشهر الردود الغربية عليها ومقارنتها بما في الإسلام، وذلك من خلال التعرض لردود ثلاثة من أشهر مفكري الغرب وهم ألفن بلانتنجا، وسي إس لويس، وويليام لان كريغ.

مركز دلائل

* * *



هذا الكتاب...

علىٰ مدار ثمانية أعوام قضيتها فيما يمكن تسميته بالحوارات المكثفة (المئات منها دون أدنىٰ مبالغة) مع شباب ورجال ونساء ملحدين أو متشككين أو لا دينيين (منهم مَن كان في يومٍ من الأيام مسلمًا متدينًا) أستطيع القول وبكل تأكيد أن (أغلب) صور الإلحاد (الحقيقي) تعود إلىٰ سببٍ واحدٍ غالبًا - مهما بدا غير ذلك علىٰ السطح - ألا وهو **مشكلة وجود الشر في العالم** «Problem of Evil»، أو الألم والمُعاناة والحرمان.. إنها المشكلة التي يفهمها جميع الناس (بعكس الإشكالات العلمية والفلسفية الأخرىٰ للإلحاد) لأنها يمكنها أن تمس حياة الشخص العادي، والعالِم، والعامي، والمتخصص.. المسلم وغير المسلم، الصغير والكبير، الغنيّ والفقير، الذكر والأنثىٰ، ولذلك وصفها **هانز كنج** Hans Küng بأنها **صخرة الإلحاد**[1] The rock of atheism، وعليه.. فأنا أؤكد من جديد لكل شخص سيحاور متشككًا أو ملحدًا حقيقيًّا أن إلحاده غالبًا = **مشكلة الشر** = مشكلة في تصور **الحكمة والعدل الإلهي** = مشكلة في تصور رحمة الله، والفرق

(1) Küng, Hans. 1976. On Being a Christian, trans. Edward Quinn. Garden City, New York: Doubleday p. 432.

بينها وبين الشفقة الإنسانية ورِقَّة القلب = مشكلة **عاطفية أو نفسية مع الله أو الدِّين** أو حال **المؤمنين**، بحيث ما إن تسقط الشبهات الظاهرية للإلحاد (مثل الشبهات الفيزيائية والدارونية) حتىٰ ينتقل الملحد بعدها للمُجاهرة بأصل إلحاده الحقيقي وسببه، فهذا تم الاعتداء عليه في الصِّغَر، وهذه عاشت حياة تعيسة في المراهقة أو الزواج، وذاك عايش ويلات الحرب والتدمير أو موت أعز الأحباب أمام عينيه، ورابع مع التزامه الديني الظاهر وحفظه للقرآن إلا أنه تعرض لابتلاء لم يجد له – في نظره القاصر – تبريرًا، وخامس مع تدينه لم ينل ما دعا الله به، وسادس ساخط علىٰ حال البلاد الإسلامية أو المسلمين، وهكذا...

وهذه نتيجة منطقية عند تقييم الإلحاد الحقيقي؛ فلا تجده يتوافق مع العقل أو العلم الذي يزعمونه، وإنما العاطفة والمواقف الشخصية، إذ ليس في العلم **أظهر من أدلة وجود الله وآثاره**، وليس في العقل أوهن من محاولات طمس أدلة وجوده بستارٍ من العلم الزائف أو المنطق المغلوط، وعليه.. فيمكنني تفهم وجود شبهات للربوبي أو المتشكك في الأديان أو الإسلام إذ أنه ينطلق من مرحلة تأتي بعد **الإيمان بوجود الله** (أو الخالق) أولًا، لكن أن يزعم عدم وجود إله أو خالق (وهو الملحد Atheism في العصر الحديث)[1] فهذا ما أعلم يقينًا

(١) تجدر الإشارة هنا إلىٰ أن معنىٰ «الإلحاد» في اللغة العربية: المَيْل عن الشيء، أو مجانبته، ومنه «اللَّحْد» المعروف، وهو: دفن الميت في جدار القبر الجانبي، وعلىٰ=

باستحالة صدوره إلا كردٌ فعلٍ غضبيٌ أو انتقاميٌ موجَّهٍ إلىٰ الله (أو الدِّين أو حتىٰ المتدينين أنفسهم)... إنه شيءٌ علىٰ غرار: كما آذاني الله فيما أحب أو بإذنه وتقديره أو تحت سمعه وبصره فلأؤذينه بدعوىٰ إنكار وجوده!

هذا هو الإلحاد من أصغر مراهق إلىٰ ستيفن هوكينج[1] لا أكثر ولا أقل.

ثم يأتي من بعد ذلك كل ما يأتي من ستار الحُجج التي يحاول الملحد إكسابها الطابع العلمي أو العقلي أو المنطقي لكي يوهِم نفسه (أو غيره) بأن إلحاده كان لأسباب وجيهة، وليس عن عاطفة أو غضب أو انتقام!

بل وفهمنا لذلك الأمر يفسر لنا أيضًا لماذا يوجد ملحدون رغم أنهم علماء وفلاسفة ومفكرون وأذكياء في مجالاتهم، فالدافع النفسي يُعمي العقل للأسف.

=ذلك جرىٰ استخدام الكلمة في القرآن للإشارة إلىٰ الذين يميلون عن آيات الله وبراهينه الواضحات وعن الدين الحق، والذين يميلون كذلك عن معاني أسماء الله إلىٰ غيرها، واستمر هذا المفهوم للمَيل (وليس لإنكار وجود الله) طيلة التاريخ الإسلامي، حيث كان يُوصف كثير من الزنادقة والمبتدعة بالإلحاد علىٰ اعتبار إنكارهم لمعلومٍ من الدين بالضرورة (كإنكار عودة الأجساد يوم القيامة، وغير ذلك). أما استخدام الكلمة اليوم فقد صار محصورًا تقريبًا في عدم الإيمان بإلهٍ أو خالق.

(١) ستيفن هوكينج Stephen Hawking: عالم فيزياء نظرية، ملحد، اشتُهر بإصابته بمرض شلل نادر أقعده.

فلنأخذ مثلًا: عالم الفيزياء الأمريكي والملحد الشهير ستيفن وينبرج Steven Weinberg، الحائز علىٰ جائزة نوبل عام ١٩٧٩م (بالمشاركة)، حيث تحدث في مقال له(١) عن علامات التصميم (أو الخلق) في الكون، لن تجد حضورًا حقيقيًا لأسباب الإلحاد (العلمية) كما نفترض من عالم طبيعيات وسط كلامه(٢)، بل العكس نجده يتحدث عن **مشكلة وجود الشر أو الألم** وهو مَن هو في الفيزياء! (قارن ذلك بشاب عربي ملحد يقول لك أن سبب إلحاده هو الفيزياء)، بل له اعتراف صادم في حواره مع الملحد التطوري ريتشارد دوكينز يقول فيه: إن دقة قوانين الكون قد **(أحرجت الإلحاد)**، وأنها لم تترك أمام الملحد إلا خيارين فقط: إما الاعتراف بخالق، وإما القول بأكوان متعددة(٣)، يقول ذلك رغم أن الأكوان المتعددة ما هي إلا افتراض أو

---

(١) عنوان المقال هو (الكون المُصمَّم) A Designer Universe علىٰ موقع الفيزياء الشهير physlink: www.physlink.com/education/essay_weinberg.cfm

(٢) يزعم بعض علماء الفيزياء الملاحدة أنه لا حاجة للإيمان بخالق لأنه يمكنهم وصف الطبيعة والتعامل معها بالقوانين المادية دون معرفة الخالق، وهي مغالطة منطقية يمكن كشفها إذا أحضرنا لهم جهازًا جديدًا (مُحركًا مثلًا لم يروه من قبل) فسيصفونه ويتعاملون معه بالقوانين المادية أيضًا دون الحاجة إلىٰ معرفة صانعه أو مصممه، ولكن... هل ينفي ذلك أن لهذا المحرك صانعًا أو مصممًا؟! أو حاجته لصانع أو مصمم؟! هل يجرؤ أحدهم علىٰ الزعم بأن المحرك تركب عشوائيًا أو بالصدفة؟!

(٣) يمكن مشاهدة المقطع مترجمًا من اليوتيوب التالي (مقابلة ستيفن وينبرج من الدقيقة ٧:٢٥): www.youtube.com/watch?v=D9vxBTQ4uGs

تخمين لا دليل رصدي أو تجريبي عليه!

وبالعودة إلىٰ مقاله الذي أشرنا إليه نجد أنَّ مِن ضمن ما ذكر أنه كان أسعد من ٩٩.٩٩٪ من البشر تقريبًا إلىٰ حين مرض أمه **بالسرطان** ووفاتها، ثم تحطمت حياة أبيه **بالزهايمر** (مرض فقدان الذاكرة)، وكذلك موت ابْنَي عمه الثاني والثالث في جرائم **الهولوكوست** النازية الألمانية، وهو ما غطىٰ عنده علىٰ أية علامات لوجود مُصمم (أو خالق)! وبالطبع هذا خلط للأوراق كمَن يقول: «هذه البندقية سلاح شر؛ إذن ليس لها صانع»!

وكذلك الهَوَىٰ يؤدي إلىٰ **عناد النفس** وجحودها حتىٰ وهي تعرف ما ينتظرها من عقاب أو ألم، فهذا حال **إبليس** وقد أعماه هواه فعصىٰ وهو في حضرة الله، ثم دفعه الكِبْر والجحود للاستمرار، وهو **علىٰ يقين بالمصير** الذي ينتظره، وحتىٰ في حياتنا اليومية نرىٰ المدمن أو المدخن (وقد يكون طبيبًا) وهو مُقبل علىٰ الإدمان أو التدخين رغم معرفته التامة بضرره.

لن أطيل عليكم في تلك المقدمة فهي - ككل الكتاب - قد عملتُ جاهدًا لتخرج مُختصرة الطول، سهلة العبارة؛ ذلك أن أكثر الذين يتعرضون لمباحث مشكلة الشر يميلون غالبًا (سواء بعمد أو عن غير قصد) إلىٰ أسلوب أكاديمي أقرب إلىٰ الفلسفي، فينتفع به مَن له دراية سابقة بالمصطلحات وأسماء وآراء الشخصيات الفلسفية الشهيرة، أو مَن له دراية بأسلوب المُساجلات الفكرية العميقة، في

حين يصعب ذلك بالتأكيد على القارئ العادي.

ومن هنا...

كان هذا الكتاب مُباشرًا في مقصوده، بعيدًا عن إيراد ما يمكن الاستغناء عنه من التدليلات والشروحات والاقتباسات والتعليقات، وذلك ليتم التركيز على **النقاط الهامة** فقط التي أدعو الله أن يوفقني في استعراضها معكم، مع استبعاد الضعيف منها، خاصة ما اعتمد فيه الغربيون على **قصور النصرانية**[1] في تفسير مشكلة الشر، مع ترك المجال مفتوحًا لمَن يريد التوسع في معرفة التفاصيل للتوجه إلى بعض الكتب والمصادر **الأجنبية** التي سنذكرها، أو حتى **العربية** التي بدأت مؤخرًا في تسليط الضَّوء على هذا الباب الإلحادي الهام والخطير (مشكلة الشر)[2].

وفي النهاية...

مع الأحداث الجسام التي تعصف بالمسلمين اليوم، ومع إطلال الشرور بوجهها القبيح على أرض الواقع والشاشات ومواقع التواصل الاجتماعي فتهز النفس هزًّا بمشاهد الظلم والذبح والإبادة والتقتيل أو التعذيب (خاصة في بلادنا الإسلامية أو العربية)، ومع **ضعف التأسيس والتعليم الديني** السليم في الأسرة والمدرسة والذي صار أغلبه (إن

---

(١) اخترت وصف النصرانية بديلًا عن المسيحية لكونه المذكور في القرآن.

(٢) مثل كتاب (مشكلة الشر ووجود الله: الرد على أبرز شبهات الملاحدة) للدكتور سامي العامري، نشر مركز تكوين للأبحاث والدراسات، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

وُجد) مصروفًا إلىٰ ظاهر الالتزام الديني لا باطنه... فلا تجده إلا خاليًا من فهم حقيقة الحياة الدنيا وأنها دار ابتلاء وامتحان، وليست نعيمًا أو جنة، في ظل ذلك كله كان لزامًا عليَّ تخصيص جزءٍ كاملٍ من هذا الكتاب لتحصين الفئة التي أهملها كثير منا - للأسف - في كتاباتهم وتوجيهاتهم ألا وهي بعض المسلمين الذين كانوا يومًا ما ملتزمين.

م. أحمد حسن

مدير البحث العلمي بمركز دلائل

* * *

المحتويات:

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

* * *

سي إس لويس...

أول شخصية من الثلاثة الذين سنتعرض لبعض آرائهم في هذا الكتاب، وهو شخص عاطفي، محب للطبيعة والجمال والحياة، حتىٰ إنه أطلق علىٰ نفسه في صغره اسم (جاك) Jack علىٰ اسم كلبه **جاكسي** Jacksie الذي قتلته سيارة، وبذلك الاسم اشتُهر بين أقرانه وأصدقائه طيلة حياته، أما اسمه الحقيقي كاملًا فهو **كليف ستابلز لويس** Clive Staples Lewis، أو اختصارًا: **سي إس لويس** C. S. Lewis.

قَدِمَتْ عائلَتُهُ من بريطانيا إلىٰ أيرلندا حيث وُلد فيها عام ١٨٩٨م، وتوفي في المملكة المتحدة عام ١٩٦٣م (عن عمرٍ يناهز ٦٥ عامًا).

وقد اهتم منذ مراهقته وشبابه بالقَصص الخيالية، وقَصص الحيوانات والأساطير، وكان لذلك أكبر الأثر في توجهه الدراسي فيما بعد، وإقباله علىٰ تعلم اللغة اليونانية، ثم تخصصه في اللغة الإنجليزية بوابة الأدب والتاريخ والتراث الملحمي لأوروبا القديمة والإسكندنافية.

تُعد أبرز شهاداته تلك التي نالها من **جامعة أكسفورد** بعد انتقاله إلىٰ المملكة المتحدة، كما يُعَدُّ من أبرز نقاط التأثير في حياته موت

والدته بالسرطان وهو في سن العاشرة، وهو ما جرفه إلىٰ الإلحاد في سن مبكر (أقل من ١٥ سنة تقريبًا كما جاء في مذكراته)، ومما ساعد علىٰ تعميق هذا الشعور الإلحادي لديه ما عاينه من ويلات الحرب العالمية الأولىٰ من قتلٍ ودمارٍ لم تشهد أوروبا مثله من قبل مع تطور الأسلحة الفتاكة والحديثة، ورغم ذلك استطاع بمساعدة بعض أصدقائه العودة إلىٰ الدين النصراني مرة أخرىٰ في سن الثلاثين تقريبًا[1].

ومن هنا يمكننا القول بأنه قد خاض تجربة لا يُستهان بها في جانب الشر والألم، وهي ما تركت انطباعًا ملحوظًا في كتاباته، وأكسبتها درجة كبيرة من عقلانية التناول بعيدًا عن السطحية المعتادة لأكثر رجال الدين النصراني.

وبالفعل قام بترجمة تلك الخبرات وصياغتها في كلماتٍ مؤثرةٍ ليظهر بها في برامج إذاعية دينية في الحرب العالمية الثانية، كان لها أثرٌ كبيرٌ في شهرته فيما بعد وإلىٰ آخر حياته.

وبين الكتابة والأدب والنقد والإذاعة والفلسفة (وخاصة بين الخير والشر والدِّين) كان لأعمال سي إس لويس الأدبية (والخيالية خصوصًا) دورٌ في جذب الكثير من عشاق القصص والأساطير إليه..

---

(١) كان علىٰ رأس هؤلاء صديقه أستاذ اللغة والروائي الإنجليزي الشهير جون رونالد رويل تولكين John Ronald Reuel Tolkien مؤلف الرواية الخيالية الأسطورية الشهيرة: (سيد الخواتم) The Lord of the Rings.

إلىٰ شخصه كمؤلف موهوب قبل أن يتعرفوا عليه في كتاباته الدينية والفكرية الأخرىٰ، **وهو ما يدلنا علىٰ أهمية هذا النوع من الكتابات التي تفتح باب القَبولِ بين القراء وفئات كثيرة من المجتمع وبين كاتبٍ بعينه ولو عن طريق القصص الخيالي** (وهو ما سنراه بالفعل في مقالِ أحدِ المتأثرين بسي إس لويس بعد أن عرفه وأحبه من قصصه أولًا).

وتُعد سلسلة قصص الأطفال والأساطير الخيالية: **(سجلات نارنيا)**The Chronicles of Narnia أشهر أعماله الأدبية والقصصية علىٰ الإطلاق (وتتكون من سبع روايات، صدرت بين عامي ١٩٤٩: ١٩٥٤م)، بجانب روايات خيالية أخرىٰ أقل شهرة للشباب مثل رواية: **(ثلاثية الفضاء)** Space Trilogy الصادرة عام ١٩٣٨م.

أما بالنسبة لأشهر كتبه الفكرية والدينية والتي تناول في بعضها مسائل الخير والشر والألم والأخلاق فنذكر منها كتاب **(مشكلة الألم)** The Problem of Pain الصادر عام ١٩٤٠م، وكتاب **(طمس الإنسان)** The Abolition of Man الصادر عام ١٩٤٣م، وكتاب **(المعجزات)** Miracles الصادر عام ١٩٤٧م، وكتاب في الاعتذاريات المسيحية عبارة عن تجميع لأكثر ما قدمه في أعماله الإذاعية وقت الحرب العالمية الثانية، وهو كتاب **(المسيحية المجردة)** Mere Christianity.

وعلىٰ قدر ما اصطبغت أكثر كتابات سي إس لويس بمحاولة تقديم العقيدة النصرانية (وخاصة التثليث، وخطيئة آدم، والصلب والفداء) في ثوبٍ عقلانيٍّ جديد (وهو ما أصاب هذا النوع من كتاباته

بنقاط ضعف منطقية جعلتنا نعزف عنها)[1]، علىٰ قدر ما في بعض كتاباته عن الخير والشر والأخلاق من الفوائد ما جعلها في مقدمة الأفكار الصالحة للاحتجاج بها عقليًّا ومنطقيًّا في مشكلة الشر، أو في مواجهة الإلحاد عمومًا.

* * *

(١) سُنة من سُنن الله بين الناس أن التزييف والتحريف لا يملك قوة برهان في ذاته، بل يملك من التناقضات التي لا يمكن التوفيق بينها ما يكفي كل باحث عن الحق للتوقف أمامه كثيرًا؛ فلا يؤمن به إلا مضطرًا أو لكونه أفضل الموجود (وهو حال النصارىٰ المفكرين في الخارج للأسف، لاسيما الذين لم يتعرفوا علىٰ الإسلام حيث يرون أنَّ «لا معقوليات» النصرانية أفضل كثيرًا من «لا معقوليات» الإلحاد).

ألفن بلانتنجا...

وهو ثاني شخصية معنا، من عائلة هولندية، اسمه كاملًا: **ألفن كارل بلانتنجا** Alvin Carl Plantinga، من مواليد ولاية **ميتشيغان** الأمريكية عام ١٩٣٢م، وهو من أشهر فلاسفة النصارىٰ الذين علىٰ قيد الحياة اليوم، وكذلك من أشهر **الفلاسفة التحليليين**[1].

تخصص في كلٍ من فلسفة الدين، ونظرية المعرفة، والميتافيزيقيا، واللاهوت الدفاعي المسيحي (اللاهوت هو: علم دراسة الإلهيات بصورة منطقية).

وتمتاز طريقته التي صنعت شهرته ومكانته الكبيرة في مجاله بالتحليلية المنظمة، حيث يتدرج بالقارئ أو الباحث في تسلسلِ نقاط إلىٰ أن يصل به إلىٰ المطلوب إثباتُه أو نفيه. وكان من أشهر أطروحاته

---

(١) الفلسفة التحليلية Analytic philosophy هي المدرسة الفلسفية التي تعتمد علىٰ اللغة وتحليلاتها للتخلص مما يعتري التعبيرات اللغوية من لبسٍ في المعاني أو غموضٍ أو خلطٍ أو زَيْفٍ، وتعتبر المدرسة الفلسفية الأكثر انتشارًا بين فلاسفة البلدان الناطقة بالإنجليزية منذ تأسست علىٰ يد البريطاني برتراند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢ : ١٩٧٠م) وغيره ممَن تأثروا بفلاسفة المنطق التحليلي الألماني والنمساوي مثل الألماني جوتلوب فريجه Gottlob Frege (١٨٤٨ : ١٩٢٥م).

في ذلك: نقض **المنهج المادي** Materialism في العلم والحياة (أي المنهج الرافض الاعتراف بكل ما هو غير مادي، أو محسوس، أو مرصود مثل الله والملائكة... إلخ) وذلك عن طريق استخدامه الذكي لإقرارات وإلزامات المنهج المادي نفسه في **التطور** Evolution[1].

وجديرٌ بالذكر أنَّ عائلة **ألفن بلانتنجا** تعد عائلة فلسفية لاهوتية بامتياز، سواء من جهة والده الحاصل علىٰ دكتوراه في الفلسفة وماجستير في علم النفس، أو أخيه **نيل** Neal أستاذ اللاهوت، أو ابنتيه **جين** Jane و**آن** Ann اللتين تعملان في السلك الكنسي.

خلال مشواره التعليمي دراسةً وتدريسًا مرَّ **ألفن بلانتنجا** بكليات وجامعات شهيرة مثل كلية **جيمس تاون**، وكلية **كالفن**، وجامعة **هارفارد**، وجامعة **ميتشيغان**، وجامعة **يال**، وجامعة **نوتردام**؛ ولذلك نجد من ضمن التكريمات العديدة التي حصل عليها: تغيير اسم (**زمالة الباحث المتميز**) من مركز جامعة **نوتردام** لفلسفة الدين إلىٰ (**زمالة ألفن بلانتنجا**) Alvin Plantinga Fellowship وذلك في عام ٢٠٠٦م.

وكان من أشهر الجوائز الأخيرة التي حصل عليها أيضًا عام ٢٠١٢م اشتراك كل من قسم الفلسفة، وقسم التاريخ وفلسفة العلوم،

---

(١) وقد عرضنا ذلك في كتابنا الصادر عن مركز دلائل ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م بعنوان (الإلحاد بين قصورَيْن) في الجزء الثاني من كتاب (مقابلة مع ألفن بلانتنجا وملاحقها الثلاثة).

ومركز تاريخ وفلسفة العلوم بجامعة بيتسبرغ (بطرس برغ) في منحه جائزة **نيكولاس ريشر** Nicholas Rescher للفلسفة المنهجية، والتي ألقىٰ فيها حديثًا بعنوان «**الدين والعلم: أين يكمن التعارض حقًا**»؟

أما إذا أردنا الوقوف علىٰ أبرز إنجازاته في مجاله والآراء الشهيرة التي تُنسب إليه في الغرب الحديث اليوم فسنجدها تتمحور حول قضية إثبات وجود الله في الاعتقاد الأساسي للإنسان، وبالحس التبريري والحس السليم مع الجدال الغائي (الغائي: من الغائية، وهي ظهور الهدف في الشيء المصنوع/ أو المخلوق لأجله).

ويُعد كلامه في نقض **مشكلة الشر المنطقية** Logical Problem of Evil وردوده عليها هو عمل محوري التصق باسمه في الخارج، حيث يُستدَل عندهم - لأول مرة - تحليليًّا ومنطقيًّا علىٰ سقوط العلاقة الرابطة بين وجود الشر في العالم وبين وجود إله عليم قادر رحيم أو خيِّر بالصورة التي قام بها **ألفن بلانتنجا**، فقد استطاع فلسفيًّا إثبات إمكانية وجود (سبب منطقي) لسماح مثل هذا الإله بهذا الشر (وكان السبب هو إتاحة **الإرادة الحرة** للإنسان Free will)؛ فساق ردودَه وحُجَجَه فيما بات يُعرف **بدفاع الإرادة الحرة** Free will defense.

وقد تفرعت عن ذلك ردودٌ أخرىٰ له علىٰ مظاهر وجود الشرِّ بشقَّيه: (**الشر الأخلاقي**) Moral evil الذي سببته الإرادة الحرة للناس و(**الشر الطبيعي**) Natural evil الذي تتسبب فيه الظواهر الطبيعية والكارثية والقَدَرِيَّة، وهو وإن أجاد في الكلام عن (**الشر الأخلاقي**) إلا

أن كلامه عن (**الشر الطبيعي**) جاء ضعيفًا كما سنرىٰ.

وجدير بالذكر أن له كُتُبًا كثيرة من أشهرها وأبرزها والتي أكسبته تميزًا كبيرًا علىٰ الساحة وإلىٰ اليوم كتابه (**الله والعقول الأخرىٰ**) God and Other Minds الصادر عام ١٩٦٧م، وكتاب (**طبيعة الضرورة**) The Nature of Necessity الصادر عام ١٩٧٤م، وفي نفس العام قدَّم عملَه الذي عرض فيه دفاعَ الإرادة الحرة والرد علىٰ مشكلة الشر المنطقية في كتاب (**الله، الحرية، والشر**) God, Freedom, and Evil، وهناك كذلك ثلاثية كتب Trilogy في (**نظرية المعرفة**) Epistemology[1].

* * *

---

(١) يعتبر من أهم فروع الفلسفة ما يعرف بنظرية المعرفة Epistemology، ونظرية الوجود Ontology، فأما نظرية المعرفة باختصار فهي التي تركز علىٰ طرق التفكير والتعرف علىٰ الأشياء وهل هذه الطرق صواب أم خطأ؟ (يعني تتعلق بالذات الدارسة أو المُلاحِظة وموضوعية المدروس أو المُلاحَظ)، وأما نظرية الوجود باختصار فهي التي تركز علىٰ دراسة الموجودات في حد ذاتها، سواء كان وجودها مادي أم غير مادي، مثل القيم والمبادئ والمُثل... إلخ.

ويليام لان كريج...

وهو الشخص الثالث والأخير الذي سنتعرض لبعض آرائه في هذا الكتاب.

وُلد ويليام لان كريج William Lane Craig في عام ١٩٤٩م بولاية إلينوي بالولايات المتحدة، وهو من مشاهير الغرب اليوم في مجال الفلسفة التحليلية (مثل ألفن بلانتنجا) واللاهوتية كذلك، يَعْرِفُهُ العالَم الأوروبي والأمريكي بمناظراته مع بعض رؤوس الإلحاد الجديد مثل سام هاريس Sam Harris[1]، وكريستوفر هيتشينز Christopher Hitchens، ولورانس كرواس Lawrence Krauss؛ حيث برع ويليام كريج في التقعيد لمسألة أصل الأخلاق، وكيف أنها من أكبر نقاط ضعف الإلحاد، كما اشتُهر بإحيائه لمنهج استدلالي إسلامي يتخذ من قضية الحدوث (خاصة حدوث الكون) دليلًا على وجود الخالق أو الله، ولقد أسماها بـ: «الحُجة الكونية الكلامية» Kalam

---

(١) وهي التي خصصنا لها الجزء الأول من كتابنا الصادر عن مركز دلائل: (الإلحاد بين قصورين). إصدار ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م حيث دارت المناظرة بينهما عن أصل الأخلاق.

cosmological argument، حيث احتفظ في اسمها بما يشير إلىٰ أصلها الذي استقاها منه والذي يرجع إلىٰ **الفلاسفة المسلمين** والمتخصصين في **علم الكلام**[1] مثل **الكِنْدِيّ**، و**الغَزَالِيّ** رحمهما الله.

ويمكن وصف «**الحُجَّة الكونية الكلامية**» التي قدمها **ويليام كريج** بدليل **الحُدُوث**، حيث استند فيه إلىٰ مقدمتين ونتيجة كالتالي:

١- لكل حادِث بعد أن لم يكن موجودًا مُحدِث له أو سبب[2].

٢- الكون ثبت أنه حادث (وخصوصًا بعد نظرية **الانفجار العظيم**)[3].

---

(١) علم الكلام هو علم استحدثه بعض المسلمين (وخاصة الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة) لمجاراة الفلسفات الوثنية اليونانية القديمة وغيرها أو الرد عليها، لكن تلك المجاراة والتقليد جذبهم شيئًا فشيئًا للأسف إلىٰ المغالاة في دَور العقل في الوصول إلىٰ الحقائق ومعرفتها (حتىٰ إنَّ بعضهم تعرض لذات الله ﷻ رغم أنها غيب محض لا نعلم عنه شيئًا إلا عن طريق الوحي)، فلم يتنبهوا إلىٰ أن الغلو في العقل لدىٰ الفلاسفة الوثنيين كان لانقطاعهم عن الوحي، أما المسلم فلا حُجَّة له في إعمال عقله فيما فصل فيه الوحي وأوضحه، وهو ما تسبب في نقاط ضعف وضلالات شابت ما كان في منهجهم من فوائد (وذلك باعتراف أكابر علم الكلام وخاصة في أواخر حياتهم مثل الأشعري والغزالي والرازي وغيرهم رحمهم الله) حيث أقروا أنه لا غنىٰ عن فهم النبي وصحابته وسلف الأمة لظاهر نصوص الإسلام والتي تناسب الأمي والعالم بلا تفريق.

(٢) وقد أشار الله في القرآن لذلك بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥).

(٣) نظرية الانفجار العظيم Big Bang بدأت كفرضية للكاهن وعالم الفلك البلجيكي=

٣- إذن.. الكون له مُحدِث أو سبب (وهو الخالق عند أهل الأديان أو الله).

ولبساطة الحُجة التي يمكن اختصارها في ثلاثة سطور منطقية - كما رأينا - فإنها تمثل واحدة من أشهر كتبه في بدايات حياته الأكاديمية وتخرجه ألا وهو كتاب **«الحُجة الكونية الكلامية»** The Kalām Cosmological Argument الصادر عام ١٩٧٩م، وهو في سن الثلاثين، وبها اشتهر، حيث خصص الجزء الأول من كتابه للتعريف بتاريخ الحُجة، والذي يعود لحقبة العصور الوسطىٰ وعلماء الكلام المسلمين، ثم تطورها إلىٰ أن صَاغَهَا في صورتها الحديثة التي خصص لها الجزء الثاني من كتابه؛ حيث دعَّمها بكثير من الأدلة العلمية

=جورج لوميتر Georges Lemaître عام ١٩٢٧م، حيث وضع فكرة تمدد الكون، ثم ازدادت الفكرة رسوخًا لتصبح فيما بعد نظرية ببعض الأدلة الذ كية الفيزيائية مثل أدلة تباعد المجرات البعيدة (عن طريق الاستدلال بالانزياح نحو الضوء الأحمر)، وظل النزاع موجودًا بين «نظرية الحالة الثابتة للكون» Steady State theory و«نظرية الانفجار العظيم» إلىٰ أن تم حسمه بقوة عام ١٩٦٤م عند اكتشاف إشعاع الخلفية الميكروية للكون، والذي أكد توسع الكون المستمر، مما يعني أنه في الماضي كانت له نقطة بداية هائلة الضغط والكثافة لا تتمايز فيها أبعاد مكانية ولا زمن ولا القوىٰ الأربعة الفيزيائية المعروفة (الكهرومغناطيسية، والجاذبية، والنووية القوية، والنووية الضعيفة)، فهذه النقطة هي التي سُميت بالانفجار العظيم، وأما الذي أطلق عليها هذا الاسم فكان أحد معارضيها وهو عالم الفضاء والرياضيات البريطاني فريد هويل Fred Hoyle عام ١٩٤٩م في أحد برامج إذاعة البي بي سي وهو يشرح للمستمعين الفرق بينها وبين نظرية الحالة الثابتة.

الفيزيائية والفلكية علىٰ حدوث الكون.

وبمناسبة ذكر المجال الأكاديمي فقد مرَّ **ويليام كريج** في تاريخ دراسته وتدريسه علىٰ أكثر من جامعة مثل جامعة بيرمنغهام، وجامعة **لودفيش ماكسيميليان** في ميونيخ، وهو يُولِي اهتمامًا ملحوظًا في كتاباته للاستفادة من العقيدة النصرانية (مثل التثليث والصلب والفداء) لمواجهة الاعتراض العاطفي علىٰ مشكلة الألم والشر في العالم (مثله في ذلك مثل **سي إس لويس**).

وهو أيضا من المتأثرين بحُجج **ألفن بلانتنجا** في مشكلة الشر المنطقية ودفاع حرية الإرادة، ومن المكررين لها في المحافل والمحاضرات وغيرها.

ومما برع فيه - أيضًا - دحضه للمالانهاية الفيزيائية أو الرياضياتية التي يهرب إليها الفيزيائيون الملاحدة ويحاولون تصويرها ببعض الأغاليط الحسابية علىٰ أنها شيء له وجود وقيمة في الفيزياء أو الرياضيات.

وأخيرًا.. فإن **لوليام كريج** كتبًا فكرية وفلسفية ولاهوتية عديدة، نذكر منها كتاب **(الخلق من عدم)** Creation out from nothing، وكتاب **(الإيمان، الإلحاد، وكونية الانفجار الكبير)** Theism, Atheism, and Big Bang cosmology، وكتاب **(الإيمان العقلاني)** Reasonable Faith، وكتاب **(أبدية الزمان)** Time Enternity.

* * *

الباب الأول:
مدخل إلى مشكلة الشّـر

(١) أصل الإشكال لا ديني:

لا ينكر عاقل (مفكر أو فيلسوف مُحايد) مَحدودية عقل وقدرات الإنسان بالنسبة إلىٰ معرفة **حقائق الأشياء** وما يدور من حوله في العالم المنظور وغير المنظور، ومن هنا كانت الحاجة الفطرية دومًا **لإرشاد سماويّ** (أو إلهي) تتقبله النفوس السوية بشغف وتصديق؛ لاسيما عندما يأتيها (الوحي) الموثوق والمدعوم بأدلة رسالته من الخالق (أو الله)؛ وذلك مقارنة بما اصطنعته بعض النفوس من تأليهٍ لأشياء أخرىٰ تحاول أن تسد بها هذا النقص الفطري في البشر.

والشاهد.. أنَّ بـ (الوحي) يتعرف الإنسان علىٰ ما لم يكن يعرف، ويتعرف علىٰ إجابة **الأسئلة الوجودية الكبرىٰ** التي لا تنفك تخالط تفكيره في صغره وشبابه وإلىٰ آخر حياته إن لم يجد إجابات شافية عليها مثل:

- مَن خلقني؟
- مَن وهبني هذه الحياة وهذا التميز عن سائر الكائنات بالعقل والتفكير؟
- ماذا يريد مني؟

- ماذا بعد الموت؟

- مَن هذا الذي ألجأ إليه بفطرتي في السماء عند كل كرب؟

... إلىٰ آخر هذه الأسئلة التي يعرفها كل مَن اختلىٰ بنفسه يومًا ما متفكرًا ولو لدقائق من حياته.

لكننا سنتجاوز كثيرا من هذه الأسئلة - لعدم الإطالة - لنقف معًا علىٰ السؤال الهام الذي يمس موضوع كتابنا وهو:

لماذا توجد الشرور والأشرار في العالم إذا كان الله الذي يمثل الخير موجودًا؟

لماذا يوجد الألم والنقص والمرض والحاجة؟

ومع مثل هذه الأسئلة الوجودية الفارقة يظهر التباين الكبير بين ما يقدمه الوحي السماوي (أو الإلهي) الصحيح وبين ما يمكن أن تفرزه عقول البشر (مهما بلغ ذكاؤها) بعيدًا عن نور ذلك الوحي وهديه وما يزيله من جهلنا.

مقارنة بسيطة:

لمعرفة ما يمكن أن تفرزه عقول البشر القاصرة في تفسير وجود الشرّ في العالم فلننظر ثلاث نظرات:

- **نظرة قريبة:** تظهر لنا فيها الفلسفات المادية Materialism والوجودية Existentialism والعبثية Absurdism، والتي تنظر في النهاية إلىٰ الإنسان كـ (ذرات) لا حِكمة من وجودها، ولا غاية من فَنَائِهَا، وعليه تَسُودُ النزعةُ السوداوية في المصيرِ والمستقبلِ من جهةٍ، ومن

الجهةِ الأخرىٰ تدعو إلىٰ استنفاد كل الملذات في الحياة بَرِّها وفاجِرِهَا والتجاهلِ التامِّ لأيِّ شيءٍ آخر قبل الموت وفوات الفرصة. فصار مركز الوجود هو الإنسان.

- وأما **النظرة المتوسطة**: فنعود فيها إلىٰ التراث النصراني المحرَّف وما حمله من تفسيرات لوجود الشرّ في العالم نتيجة (خطيئة آدم) ﷺ - أو (الخطيئة الأصلية) Original sin كما يسميها النصارىٰ - وعليه فكل الشرور التي في العالم متولدة ونتيجة لهذه الخطيئة، بما في ذلك ما تعرَّض له المسيح في دينهم المحرَّف من ضربٍ وإهانةٍ ثم صلبٍ وموتٍ لينزل بذلك الخلاص Salvation الذي يمثل الثمن والفِدَاء الوحيد الكافي للإله بتعذيبِ ابنه (الإله أيضًا!) ليمحو هذه الخطيئة البشرية.

- وأما **النظرة البعيدة**: فنرىٰ فيها (كمثال) فيلسوفًا يونانيًّا مثل **إبيقور** Epicurus والذي عاش بين عامي ٣٤١ و٢٧٠ قبل الميلاد؛ وهو يدلو بدلوه في **مشكلة الشر** Problem of evil بعيدًا عن الدِّين والوحي، فيصنع منها دليلًا علىٰ عدم وجود الله (وليتماشىٰ بذلك مع فلسفته الطبيعية أو الإلحادية النافية للخالق والحساب) فوضع مقدمتين خاطئتين، ثم بنىٰ عليهما استنتاجه القاصر قائلًا:

١ - إذا كان يوجد إله كامل العلم والقدرة والخير فلن يوجد شرّ.

٢- يوجد شرٌّ في العالم.

٣- إذن.. لا يوجد إله كامل العلم والقدرة والخير.

ويُسمىٰ هذا الاستنتاج الذي يصور تناقضًا بين وجود إله بهذه

الصفات وبين وجود الشر في العالم: **بمفارقة** (أو معضلة) **إبيقور** Epicurean paradox.

والسؤال الآن: ماذا لو عرضنا مثل هذا الكلام علىٰ **أصغر طفل مسلم** قارئ للقرآن والسُّنَّة؟ هل سيرىٰ هناك تعارضًا حقًّا كما فعل أو قال **إبيقور**؟ هل سيقول أن الإنسان وُجِدَ في الدنيا عبثًا بغير حكمة ولا غاية؟ هل سيكرر أباطيل الخطيئة الأصلية ثم الخلاص وصلب الإله لإله آخر في حين لا تزر وازرة وزر أخرىٰ كما قرر القرآن؟

فإذا تركنا الفلسفات المادية والتحريفات النصرانية لننظر في كلام **إبيقور**، سنجد ذلك الطفل المسلم الصغير يعرف (وبصورة مباشرة وصريحة وواضحة جدًّا من القرآن والسنة) أن **المقدمة الأولىٰ** رقم (١) **خاطئة أصلًا** (وهي زعم التعارض بين وجود إله كامل بهذه الصفات وبين سماحه بوجود الشر)، **وما دامت المقدمة خطأ فالنتيجة بالتأكيد خطأ**.

إن القرآن (وهو كتاب الله الخاتم للبشرية والمسلمين) ينص صراحةً علىٰ **علم الله بهذه الشرور** التي لم تكن لتوجد أو تُخلق **إلا بإذنه**، وأنَّ ذلك السماح هو لغرض **الابتلاء والامتحان** المذكور في أكثر من آية بلا خَفاء أو تفلسف أو استنباط منذ أكثر من ١٤٠٠ عام حيث يقول سبحانه:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك:٢)، والابتلاء هو الامتحان والذي يكون بالخير أو

الشر، أو كما قال:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥)، بل يؤكد هذه المشيئة القدرية (أو الإرادة الكونية)[1] بقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥)، وذلك اتساق منطقي مقبول لإظهار صدق أو كذب ادعاء الإيمان والصبر في الله وتصديق موعوده بالثواب والرضا، يقول ﷻ:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:٢).

إذن.. يتضح لنا – وكما قلت منذ لحظات – التباين الكبير بين أن **تُعمِلَ عقلك بعيدًا عن نور الوحي** وبين أن يسترشد عقلُكَ بنورِ الوحي فتصيب، فالعقل هنا يمكن تشبيهه بقوة البصر، وأما الوحي فهو النور الذي يساعد العين علىٰ الإبصار الصحيح (سواء كان نور الشمس في النهار أو نور النار في الظلام)، وهو ما أقره شيخ الإسلام ابن تيمية

(١) يُطلِق البعض علىٰ إرادة الله للخير وما يُحب وقوعه وما يأمر به من أحكام وشرع وتيسير علىٰ المؤمنين: (الإرادة الشرعية)، وفي المقابل يُطلقون علىٰ سماحه للشر والألم بالوقوع في هذه الدنيا المخلوقة لغرض الابتلاء والامتحان وإظهار خير الأخيار وشر الأشرار لإقامة الحُجة عليهم: (الإرادة الكونية)، مثال: تيسير الله العبادات علىٰ المؤمنين هي (إرادة شرعية) يحبها الله ويأمر بها، أما سماحه للأذىٰ والضرر بالوقوع من مرض أو حرب ونحوه فهي (إرادة كونية) لا بد منها ليتمايز إيمان وصبر الناس أو كفرهم وسخطهم علىٰ أرض الواقع.

رحمه الله حينما قال عن العقل إنه:

«بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يُبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها»[1].

وبالطبع هناك حِكَمٌ أخرىٰ في الإسلام مِنْ خَلْق هذه الحياة الدنيا علىٰ هذه الصورة من النقص ووجود الألم والشر، وقد تكلم في ذلك بالفعل علماء الإسلام قديمًا وأجادوا، خصوصًا عند حديثهم عن الحكمة من خلق إبليس، والحكمة في القضاء والقدر حلوه ومره، بما في ذلك الحكمة من المرض والابتلاء وتأخُّر الدعاء، والصراع الدائر بين المؤمنين والكافرين...، وهكذا.

علماء الإسلام ومشكلة الشر:

لعل أشهر مَنْ كَتَبَ في ذلك بالتفصيل هو ابن قيم الجوزية[2] رحمه الله وخصوصًا في كتابه (شِفَاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل)،

---

(١) من مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٣٩)، وشيخ الإسلام ابن تيمية هو تقي الدين، أبو العباس: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م).

(٢) هو شمس الدين، أبو عبدالله: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزُّرعي ثم الدمشقي الحنبلي (٦٩١-٧٥١هـ/ ١٢٩٢-١٣٥٠م)، وهو الشهير بابن قيّم الجوزية، أو ابن القيّم (لعمل والده قيّمًا علىٰ المدرسة الجوزية بدمشق)، من أشهر شيوخه الذين عاصرهم وتتلمذ علىٰ أيديهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. حيث لازمه قرابة ١٦ عامًا.

حيث حوىٰ من ضمن ما حوىٰ فصلًا كاملًا بعنوان: (تنزيه القضاء الإلهي عن الشر)[1] مصداقًا لقول النبي ﷺ في دعائه لله: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»، وسيأتي شرحه بعد قليل.

وكذلك له كلام مفيد في أول كتابه (مِفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العِلم والإرادة).

أما شيخه وأستاذه ابن تيمية ﷺ فله كتابات منثورة غاية في العُمق والتحليل، منها كلامه وردوده في (باب القدر) - مثلًا - من (مجموع الفتاوىٰ)، بل قد جمع كثيرًا من هذه الدرر المتناثرة أحدُ المستشرقين المعاصرين في دراسة قيمة جدًّا وهو الدكتور جون هوفر Jon Hoover من جامعة نوتنغهام (قسم اللاهوت والدراسات الدينية)، نشرها عام ٢٠٠٧م في كتابٍ عن ثيوديسية ابن تيمية بعنوان: Ibn Taymiyya's Theodicy of Perpetual Optimism، حيث الثيوديسي Theodicy هي فرع الإلهيات من الفلسفة المختص بحوارات إثبات عدم تعارض وجود الشر مع الإله الكامل.

ويمكننا أخذ لمحة سريعة عن الكتاب بالنظر إلىٰ ملخصه كما أورده موقع أمازون الشهير[2] حيث أشاروا فيه إلىٰ أنه: رغم شهرة

---

(١) هو الباب ٢١ في: (تنزيه القضاء الإلهي عن الشر ودخوله في المقضي)، وقد تناوله في قرابة ٣٠ صفحة، ثم أعقبه بباب في إثبات حكمة الله، ثم آخر في نفي شبهات نُفاة الحكمة.

(٢) رابط الكتاب من موقع أمازون:

www.amazon.co.uk/Taymiyyas-Theodicy-Perpetual-Optimism-Philosophy/dp/9004158472

ابن تيمية (المتوفى في ١٣٢٨م) بنقده للفلسفة الإسلامية (يقصدون نقده لعلم الكلام كما عند المعتزلة والأشاعرة وغيرهما)، ورغم كتاباته الدينية والتقويمية للتصوف إلا أنَّ إسهاماته الإيجابية في الإلهيات لم تُفهم بعد على نحوٍ جيد، وهنا يأتي دَور هذه الدراسة الشاملة لثيوديسية ابن تيمية لتساعد على تصحيح هذا النقص؛ حيث إن عرض وتحليل كتابات ابن تيمية عن عدالة الله وغايته الحكيمة والقضاء والقدر في مسارات الإنسان ومشكلة الشر وطريقة تفكيره في العقيدة الإلهية تؤكد أنه يملك تصورًا ثيوديسيًّا متفائلًا يؤكد على خيرية الله في ذاته؛ وأنَّ كُلَّ إرادته هي الخير دومًا وأبدًا، وأفضل ما يمكن للعالم من الخلود، وهذا يجعل ثيوديسية ابن تيمية بعيدة عن ثيوديسية الكسب[1] عند الأشاعرة، وثيوديسية حرية الإرادة عند

---

(١) مع دخول سفسطات الفلسفات الوثنية إلى بعض المسلمين ظهرت منهم فرق تطعن في عدل الله تعالى وقدرته، فظهرت الفرقة القدرية التي نفت تقدير الله ﷻ وعلمه المسبق بأفعال البشر، كما ظهر على النقيض منها الفرقة الجبرية التي جعلت الإنسان مجبورًا على ما يفعل وما يختار، فلما حاول الأشعري رحمه الله الخروج بفكرة فلسفية وسط فأتى بفكرة «الكَسْب»، فنَسب الأمر والاختيار لله لكن الإنسان يكتسبه بفعله، وفاته أنَّ تلك صورة من صور الجَبْر أيضًا. ويَرُدُّ الله تعالى على كلا الفرقتين في آيةٍ واحدة من سورة الإنسان فيقول: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ (رد على الجبرية) ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (رد على القدرية) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الإنسان: ٣٠) فأثبت مشيئة الإنسان، لكنها لا تقع إلا إذا شاء الله لها الوقوع، وهو يعلم بها قبل وقوعها علم تقدير وليس علم جبر.

المعتزلة، وكذلك مخالفة لما قاله أمثال **ابن سينا وابن عربي**.

والآن... لنُفْسِحَ المجال لنرىٰ كيف وصلت **النصرانية** إلىٰ بعض ما ذكره القرآن صريحًا واضحًا، وذلك علىٰ يد الفيلسوف التحليلي اللاهوتي **ألفن بلانتنجا** في الرُّبع الأخير من القرن العشرين..

ونقول هنا وصولهم إلىٰ (بعض) ما ذكره القرآن لأنه مهما سعىٰ اللاهوتيون والمفكرون وفلاسفة النصارىٰ لسبر أغوار أوجه الحِكمة الإلهية من السماح بوجود الشر فإنه يبقىٰ قصورهم محصورًا في ركن **(عقيدة الخطيئة الأصلية، والخلاص، والفداء، والتضحية، ثم الصَّلْب)**.

ألفن بلانتنجا ومشكلة الشر:

سادت رؤية عاقلة في الغرب المسيحي تجاه مشكلة الشر وما طرحه **إبيقور** حيث أظهرت بوضوح كيف **لا تصلح حُجته لإنكار وجود الخالق** لأنه يمكن حلّها بمجرد افتراض خالق **شرير أو قاسٍ أو منقوص العلم والقدرة**؛ حيث لن يتعارض - ساعتئذ - وجوده مع **وجود الشر**، وكذلك لن تصلح لإمكانية الاحتجاج **بوجود الخير** علىٰ وجود الخالق (طالما كان منطقهم أن وجود الشر = عدم وجود الخالق)، مما يؤكد لكل عاقل أن معضلة **إبيقور** في الحقيقة لا تصلح للاعتراض علىٰ وجود الخالق في حد ذاته، وإنما فقط الاعتراض علىٰ الإله الديني **الكامل** (أي الذي تنادي به الأديان وتنزهه عن نقصان العلم أو القدرة أو الخير).

ولكن رغم هذه الرؤية إلا أن أشهر رد **فلسفي** حديث نفىٰ

التعارض الموهوم في معضلة **إبيقور** (الإله الكامل مع وجود الشر) هو ما طوَّره وقدَّمه **ألفن بلانتنجا** عام ١٩٧٤م من **دفاع الإرادة الحرة** - كما قلنا - وذلك في كتابه الشهير: «**الله، الحرية، الشر**» God, freedom, and evil حيث استطاع بإثباتاته المنطقية أن يفسر إمكانية وجود سبب **إلهي** (ضرب له مثالًا حرية إرادة البشر) جعله يُرجِّح ظهوره (**وهو خير**) رغم ترتب (**بعض الشر**) عليه، وبذلك أُصيبت مشكلة الشر الفلسفية بما يوقف عجلتها التي استمرت في الغرب المسيحي أو النصراني لقرون (والعجيب أن الملاحدة العرب لا زالوا ينقلونها كما هي وسط كل تراث ملاحدة الغرب الذي ينقلونه بحذافيره إلىٰ بلادنا كما هو من غير تفكير).

ويقر بذلك التوقف **جيمس بيبي** James R. Beebe من **جامعة بافللو** في مقاله المميز علىٰ موقع «موسوعة الفلسفة» علىٰ الإنترنت (موقع خاضع لمراجعة الأقران Peer-review) والذي بعنوان (**مشكلة الشر المنطقية**) Logical Problem of Evil، حيث يقول فيه أن الفلاسفة صاروا - اليوم - يتفقون علىٰ أن مشكلة الشر صارت تتطلب الكثير من الأدلة الجديدة لكي تكون جديرة بالطعن في وجود الله، وأنهم لذلك صاروا يتحدثون عن (**احتمالية مشكلة الشر**) The probabilistic problem of evil أو (**ثبوتية مشكلة الشر**) The evidential problem of evil[1].

---

(1) Logical Problem of Evil | Internet Encyclopedia of Philosophy: www.iep.utm.edu/evil-log

وهذا يعيدنا بقوة إلىٰ مقارنتنا البسيطة من جديد.. والسؤال:

هل رأيتم كيف تتخبط عقول اللادينيين والملاحدة **بعيدًا عن نور الوحي والدين الحقيقي؟**

هل رأيتم كيف تأخر أمر الحسم المسيحي أو النصراني المنطقي أو التحليلي في مشكلة وجود الشر إلىٰ ما بعد نزول القرآن بأكثر من ١٤٠٠ عام؟

والآن.. ماذا فعل **ألفن بلانتنجا** بالضبط؟ حتىٰ نبدأ مقارنة ما قاله بما لدينا في الإسلام، بل والزيادة عليه، وتصحيحه؟

لنتابع معًا...

* * *

(٢) استعراض ما قاله ألفن بلانتنجا:

إن الحديث عن **الإلهيات (أو الثيولوجي Theology)** في الفلسفة هو من أهم فروعها الجدالية بين المؤمنين وبين الملحدين أو اللادينيين والمتشككين علىٰ مرِّ العصور، وبطبيعة الحال كان النصيب الأكبر - كما ذكرنا منذ قليل - هو لُباب الدفاع الديني في وجه **مشكلة الشر (أو الثيوديسي Theodicy)**، والذي يثبت المؤمنون فيه عدم تعارض وجود الشر مع الإله الكامل.

فعلىٰ مر العصور كان الفلاسفة غير المؤمنين يعيدون إنتاج معضلة **إبيقور** كلٌّ منهم حسب رؤيته وإمكانياته في **تحويرها** ليُكسبها قوةً أكبر في وجه **الاعتراضات**، كما أنها الطريقة السهلة والمثالية لأيِّ ملحدٍ في أي مناظرة **لاكتساب تعاطف الحاضرين أو الجماهير** (إذ ما عليه إلا أن يذكر بعض المآسي الفردية أو الجماعية أو بعض الشرور في العالم هنا أو هناك)، ومن أشهر مَن فعلوا ذلك في العصر الحديث **مايكل بيترسون**[1] Michael Peterson، **وجون ليزلي ماكي**[2]

(1) Peterson, Michael L. 1998. God and Evil. Boulder, CO: Westview Press, p.1.
(2) Mackie, J. L. 1955. Evil and Omnipotence. Mind 64, p.200.

J. L. Mackie، وماكلوكوسكي[1] H. J. McCloskey.

وهنا لم يجد ألفن بلانتنجا بدًّا مِنْ وضع تحليل منطقي لهذه المعضلة ليرىٰ فعلًا (وحسب قواعد الفلسفة والمنطق نفسه) هل هي حُجَّة صحيحة البناء لفكِّ الارتباط بين وجود الشر وبين وجود إله كامل أم لا؟

لقد استعرضنا معضلة الشر - أو معضلة إبيقور - في مقدمتين واستنتاج كالتالي:

١ - إذا كان يوجد إله كامل العلم والقدرة والخير فلن يوجد شر.

٢- يوجد شر في العالم.

٣- إذن... لا يوجد إله كامل العلم والقدرة والخير.

إن الدفاع الذي من شأنه الطعن في بناء هذه النتيجة وفك الارتباط بينها وبين المقدمة الأولىٰ منها علىٰ الخصوص (لأن المقدمات الخاطئة تقود إلىٰ نتائج خاطئة) هو الدفاع الذي ينتقد **الاتساق المنطقي** Logical Consistency الموهوم في هذه المعضلة، والذي يعتمد علىٰ فكرة أن الإله - أو الخالق - الكامل في الأديان قد يكون لديه **أسبابًا** لسماحه بالشر في العالم، وهو ما يمكن تسميته **بالسبب الكافي أخلاقيًّا** Morally sufficient reason، أي الكافي لترجيح وجود بعض الشرّ في مقابل هدف آخر أكبر يُمثل الخير.

فوجود مثل هذه **الإمكانية** (المنطقية) يطعن مباشرة في المقدمة

---

(1) McCloskey, H. J. 1960. God and Evil. Philosophical Quarterly 10, p.97.

الأولىٰ التي تـم وضـع افـتراض فيهـا بغير دليـل (وهـو تعـارض الإلـه الكامل مع وجود الشر)، وذلك يُظهِر وجود مغالطة منطقية Logical fallacy في هــذه المقدمــة والــذي هــو مــن قبيــل المـصادرة علــىٰ المطلوب[1].

ولإظهار إمكانية عدم تعارض وجود بعض الشر لسببٍ منطقيٍّ (أو سبب أخلاقي مقبول) يحمل الخير فقد تـم إعطـاء مثـال أولًا مـن حياتنا الواقعية – نحن البشر – قبل أن ننقله للحديث عن الله.

السيدة جونز:

يفترض ألفن بلانتنجا أحد الجيران الثرثارين الذي يُخبرنـا أنَّ السيدة جونز Mrs. Jones سمحت لشخصٍ ما بإلحاق الألـم بطفلتها الرضيعة، وهنا قد يصيبُنا الرعب من جرَّاء ما فعلت (إذا اكتفينا بهذه اللقطة المقتطعة من المشهد)، ولكن إذا علمنا أن السيدة جونز أحضرت مَن يُحَصِّنُ ابنتها الرضيعة بحقنة ضد مرض شلل الأطفال؟ (وهو ما استوجب بعض الألـم للحظات في مقابل خير كثير لبقية حياتها) فإن نظرتنا ستتغير تمامًا إلىٰ السيدة جونز، بل وإلىٰ الموقف

---

(١) المغالطات المنطقية، هي نوع من الحيل أو الأخطاء (مقصودة أو غير مقصودة) والتي يقوم بها البعض أو يقع فيها أثناء الجدال أو الحوار أو المناقشة أو المناظرة لإثبات صحة رأيه، ومنها المغالطة المسماة بالمصادرة علىٰ المطلوب إثباته Begging the question، ومعناها استخدام مقدمة تحوي ضمنيًا المطلوب إثباته، ليتم منها استنتاج ما يُراد إثباته، فهي – علىٰ هذا – نوع من أنواع الاستدلال الدائري.

بأكمله من الناحية الأخلاقية رغم احتوائه علىٰ شر.

حسنًا...

ماذا لو أردنا تطبيق نفس الموقف السابق علىٰ معضلة **إبيقور**؟ سيكون كالتالي:

١- إذا كان الآباء جيدين ويحبون أبناءهم فلن يرضوا بأيٍّ ألمٍ يقع لهم.

٢- هناك ألم وقع علىٰ أبنائهم.

٣- إذن.. الآباء غير جيدين ولا يحبون أبناءهم!

إنها مشكلة بالفعل حينما يكون **الاتساق المنطقي معتلًّا**، أو به خلل، أو مغالطة منطقية ظاهرة، أو خفية.

ومن هذه النقطة:

بدأ **ألفن بلانتنجا** في تكبير الإسقاط وتعظيمه ليشمل حال **حرية الإرادة** (كهدف خير كبير من الله للإنسان) في مقابل **بعض الشر والألم والمعاناة** التي ستكون في العالم، فيقول:

إنَّ خلقَ أشخاصٍ بإرادةٍ حرةٍ لهو شيء ذو قيمة أخلاقية كبيرة، ولا يمكن إلغاء الشر والألم والمعاناة من العالم إلا إذا ألغىٰ الله هذه المنحة (أي الإرادة الحرة للأشخاص) والتي تجعلهم **في منزلة أعلىٰ ليتعاملوا مع الله**، وتعطيهم الفرصة **لعمل الخير الاختياري ومحبة** بعضهم البعض.

١ - ومن الاعتبار السابق نجد أن **جلب الخير الأكبر** مرتبط

بوجود الشر الأصغر، شيء مشابه لموقف السيدة جونز السابق (ألم حقنة صغيرة في مقابل خير يستمر طيلة العمر)، وعلىٰ هذا نجد أن محاكمة الله بسبب وجود الشر تحتاج إلىٰ بعض التفاصيل قبل أن نخرج بالنتيجة، ومن هذه التفاصيل معرفة عظِيم قدر ومنزلة حرية الإرادة بالفعل (أو حرية الاختيار libertarianism).

وهنا يتحدث ألفن بلانتنجا في أعماله[1] عن هذه المنزلة من أكثر من وجه، حيث يقرر أن أعلىٰ قيمة أخلاقية هي التي تنتج من حرية الاختيار الناتجة عن حرية الإرادة، فلو أن الله خلق عالمًا بأشخاص غير قادرين إلا علىٰ اختيار الخير فقط فلن يُسمىٰ ذلك أبدًا بحرية اختيار، وبالتالي لن نستطيع وصفهم بأن لديهم حرية إرادة، بل ولن يكون هناك أي معنىٰ إذا مدحناهم أخلاقيًّا علىٰ فعل ذلك الصواب دون غيره، تمامًا كما أنه لا معنىٰ لمدحك الروبوت الآلي الخاص بك علىٰ وضعه علبة المشروب الغازي الفارغة في سلة إعادة التدوير[2] بدلًا من وضعها في سلة المهملات.

وعليه يظهر الفرق الأخلاقي بين البشر و«الروبوتات» الآلية؛ فالروبوتات في برمجتها أصلًا ما عليها فعله (ولذلك لا تُلام أو تُمدح عليه)، أما البشر فبامتلاكهم لحرية الإرادة والاختيار فإنهم يُلامون إذا

---

(1) Alvin Plantinga 1974. The Nature of Necessary- 1977. God, Freedom, and Evil.

(٢) سلة إعادة التدوير Recycle bin هي المخصصة لبعض الأشياء التي يمكن إعادة الاستفادة منها.

أساءوا استخدامها، ويُمدحون إذا أحسنوا.

وتجدر الإشارة لاعتراض آخر هو قول البعض:

لماذا لا يخلق الله خلقًا بحرية إرادة واختيار ولكن لا يجعلهم يختارون إلا الخير فقط؟

والإجابة يلخصها ألفن بلانتنجا في الآتي (وإن كنا سنعقِّب عليها فيما بعد من وجهة نظر إسلامية) إذ يقول:

إن خلق البشر بحرية إرادة واختيار ومع ذلك لا يجعلهم الله يختارون إلا الخير فقط هو أمر محال في حد ذاته (أي مستحيل وقوعه أصلًا لكي نقول إن الله يقدر عليه)، فالله لا يقدر إلا علىٰ الأشياء التي يمكن وقوعها فعلًا (بغض النظر بعد ذلك عن حجمها أو عظمتها أو صعوبتها)، المهم أن تكون ممكنة الوقوع أو الوجود (وبذلك تخرج الأشياء المستحيلة الوجود مثل أن يخلق مثلثًا مستويًا بأربع زوايا).

ورغم أن ألفن بلانتنجا سيفصل في هذه النقطة تحديدًا لأنه سيحتاجها في دفاعه هنا إلا أنه يجدر بنا ذكر رأي اثنين من أكابر علماء المسلمين في ذلك لنبين السبق الإسلامي حتىٰ في مثل هذه النقاط الجوهرية في الفكر والمنطق أو الفلسفة؛ إذ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]:

«وأما أهل السُّنَّة فعندهم أنَّ الله تعالىٰ علىٰ كل شيءٍ قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا، وأما المحال لذاته - مثل كون الشيء الواحد

---

(١) في كتابه (منهاج السُّنَّة) (٢/ ٢٩٤).

موجودًا معدومًا - فهذا لا حقيقة له، ولا يُتصور وجوده، ولا يُسمىٰ شيئًا باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب: خلق مثل نفسه، وأمثال ذلك».

يقصد الشيخ أن يُقال: هل يستطيع الله أن يخلق إلهًا مثله؟ فيُرد علىٰ ذلك بأن الثاني ساعتها **لن يكون إلهًا** لأنه صار مخلوقًا.

ويقول ابن القيم رحمه الله[1]:

«لأن المُحال ليس بشيء فلا تتعلق به القدرة، والله علىٰ كل شيء قدير، فلا يخرج ممكن عن قدرته البتة».

والمهم.. يقوم **ألفن بلانتنجا** بتقديم أربعة احتمالات لعوالم **ممكنة** من حيث وجود الخيرية الأخلاقية في حرية الإرادة مع ما يترتب عليها من وقوع الشر كالآتي:

العالم الأول W1:

الله يخلق أشخاصا بحرية إرادة واختيار بقيمة أخلاقية كبرىٰ.

١ - لذلك لا يُجبرهم الله علىٰ فعل الصواب في كل موقف في حياتهم.

٢ - ولذلك هذا العالم فيه شر.

العالم الثاني W2:

١ - الله لا يخلق أشخاصا بحرية إرادة واختيار بقيمة أخلاقية كبرىٰ.

٢ - لذلك يجبرهم الله علىٰ فعل الصواب في كل موقف في

---

(١) في كتابه (شفاء العليل) (ص٣٧٤).

حياتهم.

٣ - ولذلك هذا العالم لا يوجد فيه شر ولا معاناة.

العالم الثالث W3:

١ - الله يخلق أشخاصا بحرية إرادة واختيار بقيمة أخلاقية كبرىٰ.

٢ - لكنه يجبرهم علىٰ فعل الصواب في كل موقف في حياتهم.

٣ - ولذلك هذا العالم لا يوجد فيه شر ولا معاناة.

العالم الرابع W4:

١ - الله يخلق أشخاصا بحرية إرادة واختيار بقيمة أخلاقية كبرىٰ.

٢ - وهو لا يُجبرهم علىٰ فعل الصواب في كل موقف في حياتهم.

٣ - ومع ذلك لا يقع شر ولا معاناة في هذا العالم.

والآن.. لنستعرض ما قاله ألفن بلانتنجا (باختصار) تعليقًا علىٰ هذه الأربعة الاحتمالات، حيث إننا إذا نظرنا إليها نجد أن ٣ منها ممكن وجودها بالفعل، ولكن واحدة مستحيل وجودها.

فأما الممكن وجودها فهي العوالم الأول W1 والثاني W2 والرابع W4؛ وذلك لأن اللهَ قادرٌ علىٰ خلق أشخاص بحرية إرادة واختيار، وينتج عنهم شر (وهو العالم الأول)، وكذلك قادر علىٰ أن يخلق أشخاصًا بغير حرية إرادة ولا اختيار، فلا ينتج عنهم شر (وهو العالم الثاني، رغم أن ذلك يعني عدم وجودنا نحن البشر بحالنا الحالي من

الإرادة الحرة، وبذلك ينتفي أصلُ الإشكال الموجود وهو ما لم يحدث)، وأخيرًا (في العالم الرابع) فإنَّ اللهَ الذي خلق أشخاصًا بإرادة حرة واختيارٍ يمكن أن يختاروا جميعًا فِعل الصواب والخير، فإن ذلك ممكن عقلًا (رغم نسبته الضئيلة)، لكنه ليس مستحيلًا في ذاته أو مُحالًا، فهذا راجع لاحتمالية اختيار (كل) الأشخاص فعل الصواب والخير وطاعة الله (وكأن بلانتنجا هنا يشير إلىٰ الحال في الجنة حيث لن يدخلها إلا أمثال هؤلاء الذين رضوا بالله ربًّا خالقًا ومُشرِّعًا آمرًا وناهيًا).

وأما المستحيل وجوده فهو العالم الثالث W3، وذلك لأنه مستحيل أن يخلق اللهُ الناس بحرية إرادة واختيار ثم يجبرهم علىٰ اختيار الصواب فقط (فهذا تناقض مستحيل في ذاته أو مستحيل عقلًا)؛ لأن معنىٰ ذلك اجتماع الحرية والجبر في شيءٍ واحد! كأنك تقول: «فلانٌ موجود وغير موجود» في ذات اللحظة، أو «طويل وقصير» في نفس الوقت،.. وهكذا، ومثل هذه المستحيلات الوجودية لا تدخل أصلًا في قدرة الله حتىٰ نطالبه بها أو نتعلل بأنه غير كامل القدرة إذا لم يُحققها.

وفي هذه النقطة يتوسع ألفن بلانتنجا بالرد خصوصًا علىٰ مَن حاولوا التشغيب بها فلسفيًا علىٰ عدم تعلقها بقدرة الله مثل أنتوني فلو[1]

(1) Flew, Anthony. 1955. "Divine Omnipotence and Human Freedom". In Anthony Flew and Alasdair MacIntyre (eds.) New Essays in Philosophical Theology. New York: Macmillan p.149.

Anthony Flew[1]، وجون ماكي[2] J. L. Mackie، فذكر **مُحالات منطقية أو استحالات عقلية** مثل قولهم: هل يستطيع الله أن يجعل ٢+٢=٥؟ فيقول: وماذا ستساوي إذن ٢+٣؟ وكذلك قولهم: هل يستطيع الله أن يخلق صخرة يعجز عن حملها؟ فيقول: طالما للصخرة نهاية في الحجم والوزن فالله يقدر علىٰ حَملها، وأي تصور غير ذلك هو مستحيل في ذاته عقلًا (أي غير موجود مثل أن تكون لا نهائية في الحجم أو الوزن)! فطالما خلقها محدودة مثل كل خلقه **فهي داخلة تحت قدرته**، وعلىٰ هذا فالسؤال يحوي مغالطة منطقية..

أيضًا..

يُركز **ألفن** بلانتنجا علىٰ التشابه الظاهر بين **العالم الأول** W1 والرابع W4، حيث نلاحظ أن الفارقَ الوحيدَ بينهما هو اختيار كل الأشخاص في الرابع فعل الخير، وهو ما يعني أن الوحيد الذي يجب أن يُلام علىٰ الشر **هم الأشخاص وليس الله**[3].

التقييم:

يُقر الفلاسفة المعتدلون والمحايدون (كما في مقال موقع «موسوعة الفلسفة» علىٰ الإنترنت السابق الإشارة إليه) بأن دفاع **ألفن**

---

(١) معلوم أن أنتوني فلو أمضىٰ قرابة ٥٠ عامًا من حياته ملحداً يدافع بشراسة عن الإلحاد فكريًا وفلسفيًا، لكنه في سن ٨١ سنة أعلن تخليه عن الإلحاد ودخوله في الربوبية (قبل ٦ سنوات من موته) وبالفعل في ٢٠٠٧م أصدر كتابه الأشهر (هناك إله) There is a God.

(2) Mackie, J. L. 1955. Evil and Omnipotence. Mind 64, p. 209.

(3) Plantinga, Alvin. 1974. The Nature of Necessary. Oxford University Press p. 190.

بلانتنجا نجح في فك الارتباط الفلسفي بالفعل بين وجود إله كامل العلم والقدرة والخير وبين وجود الشر، وبذلك يمكن القبول (فلسفيًا) بالإله التقليدي في الأديان مع وجود الشر من دون الحاجة للطعن في كماله، بل وصار الأمر مفتوحًا لوضع أية تفسيرات (أو أسباب) أخرىٰ طالما كانت وجيهة أخلاقيًا غير ما ذكره ألفن بلانتنجا (فما ذكره عن الإرادة الحرة هو مثال فقط لهدم الارتباط المتوهم الذي وضعه إبيقور وغيره).

مشكلة الشر غير المُبرر:

إذ رغم عناد واستمرار بعض المُستمسكين بأصل مشكلة الشر حتىٰ بعد تفنيدها منطقيًا (مثل ويليام روي William L. Rowe وهو ما يؤكد أنها فعلًا مشكلة عاطفية بينهم وبين الله) إلا أنه تبقت لهم بعض المحاولات والاعتراضات التي يجدر بنا النظر فيها كذلك ومعرفة كيف رد ألفن بلانتنجا عليها.

فمثلًا:

نجد جون ليزلي ماكي J. L. Mackie في كتابه «معجزة توحيد الله»[1] The Miracle of Theism قام بالتركيز هذه المرة علىٰ نوع من أنواع الشر الموجود في العالم ألا وهو (الشر غير المُبرر) Gratuitous أو (عديم الجدوىٰ)، ويقصد به الشر الزائد عن السبب الذي من أجله يتم إقرار حرية الإرادة والاختيار، حيث يرىٰ أن ذلك يدعم فكرة أصل

(1) Mackie, J. L. 1982. The Miracle of Theism. Oxford: Oxford University Press.

الشر في عالم بدون إله كامل، والذي كان - في رأيه - سيكتفي ببعض الشر الذي يؤدي الغرض فقط، بحيث لا نرىٰ بعد ذلك أي مبالغة في مقدار ذلك الشر إلىٰ الحد المفزع الذي يصل إليه أحيانًا في العالم كما نرىٰ.

وقد فعل مثله **بول درابر** Paul Draper في كتابه «**الألم والمتعة**»[1] Pain and Pleasure حيث حاول وضع نسق منطقي لهذه المعضلة من مقدمتين ونتيجة فقال:

١ - يوجد في العالم شر غير مُبرر.

٢ - تقدم فرضية **لا مبالاة الإله** Indifference تفسيرًا لذلك أفضل من الأديان.

٣- وعليه فإن الأدلة ترجح عدم وجود الإله الكامل أو التقليدي في الأديان.

ولو دققنا النظر معًا سنجد أن هناك نقطة قوية هنا لصالح **ألفن بلانتنجا** ألا وهي تسليم هؤلاء المعترضين بإمكانية وجود (**سبب أخلاقي**) للشر مع وجود الإله الكامل أو التقليدي، ولذلك انصبَّ اعتراضُهُم علىٰ (**تحويرٍ**) في تعريف ذلك (الشرّ) بالتركيز علىٰ مقدار الشر (**غير المُبرر**) أو الزائد عن الحدِّ في نظرهم.

ومن هذه النقطة انطلق **ألفن بلانتنجا** في رده عليهم، وضرب المثال الشهير له كذلك لإظهار أن إمكانيات **عقولنا القاصرة** علىٰ عدم

(1) Draper, Paul 1989. "Pain and Pleasure: An Evidential Problem for Theists". Noûs. Noûs, Vol. 23.

فهم كل (أسباب الإله) لا زالت قائمة، بل وبالمنطق أيضًا.

حُجَّة البعوض غير المرئيَ:

في حُجة البعوض غير المرئي[1] The "no-see-um" argument يقول ألفن بلانتنجا[2]:

إنك إذا فتشت داخل خيمتك عن كلبٍ ضخم مثل النوع الشهير باسم سان برنار St. Bernard ولم تر واحدًا فمن المنطقي أن تفترض عدم وجوده بالداخل. أما إذا فتشت في الخيمة عن بعوضة النوسيومة No-see-um (والتي قرصتُها أو لسعتُها أكبر من حجمها بكثير) ولم تجد واحدة فليس من المنطق ساعتها افتراض عدم وجود واحدة داخل الخيمة؛ وذلك لأنه أصلًا يصعب رؤيتها لحجمها الصغير جدًّا بالنسبة لإمكانيات أعيننا.

وعلىٰ هذا.. فإن الذين يفترضون أنه لو وُجدت أسباب وجيهة لوجود الشر غير المُبرر لكانت في متناول عقولنا هم أشبه بالباحثين عن الحشرة الصغيرة التي لا تُرَىٰ داخل الخيمة لا عن الكلب! ومن ثم ينكرون وجودها لأنهم لا يرون أيًا منها.

ولكن.. لماذا ينبغي أن يكون الحال علىٰ ما يفترضون وليس غيره؟!

---

(١) البعوض العضاض Ceratopogonidae أو biting midges أو بعوض النوسيومة No-see-ums هو: نوع من البعوض يصعب رؤيته بالعين المجردة لحجمه الذي يتراوح بين ١ إلىٰ ٤ ملليمترات.

(2) Alvin Plantinga, Warranted Christian Belief (Oxford,2000), pp. 466-67. Alvin Plantinga, "A Christian Life PartlyLived" in Philosophers Who Believe, ed.Kelly James Clark (I V P,1993), p.72.

مشكلة الشر الطبيعي:

علىٰ قدر نجاح **ألفن بلانتنجا** في حُجَّته السابقة إلىٰ حدٍّ كبيرٍ عندما ربطها بقصور الإدراك والعقل الإنساني مقارنة بحكمة وأسباب الله إلا أنَّ النقطة الأخيرة التي تحدَّث فيها - وهي محاولة تفسيره للشر الطبيعي - لم تكن بنفس القوة والتوفيق؛ وذلك رغم أنها أخطر من الشر الأخلاقي في التأثير علىٰ الناس وتشكيكهم في الخالق، ذلك أن عقلاء البشر يمكنهم الرد علىٰ شبهات الشر الأخلاقي بإرجاعها إلىٰ شر الناس واختياراتهم (يعني سيرجعون باللوم عليهم)، لكن في الشر الطبيعي يعمل الملحد أو اللاديني علىٰ وضع المؤمنين في مواجهة فكرية أمام الخالق مباشرة!

وكمثال فقط لاستغلال الملاحدة واللادينيين ذلك: ففي ديسمبر من عام ٢٠٠٤م مات قرابة ٢٣٠ ألف شخص ضحايا لأمواج تسونامي الرهيبة التي ضربت سواحل المحيط الهندي في إندونيسيا وغيرها، وعلىٰ مدىٰ الأسابيع التالية امتلأت الصحف والمجلات برسائل ومقالات تطرح السؤال: «أين كان الله»؟ بل سعت بعض البرامج - حتىٰ في بلداننا الإسلامية والعربية - في استضافة عدد من رجال الدين لتحرجهم بذات السؤال[1]، وقد تم استخدام بعض

---

(١) الحقيقة أن استغلال الكارثة أمام المسلمين في الإعلام كان بصورة ملتوية أكثر من ذلك ألا وهي سؤالهم: هل مثل هذه الكوارث هي مِن الله؟ (وهو ظاهر نصوص القرآن والسُّنَّة أن كل شيء بيد الله)، أم هي مجرد كوارث طبيعية يمكن تفسيرها=

عبارات المراسلين الأجانب التي طعنت في وجود الله في ذلك الوقت من خلال مناظرة أمريكية أُقيمت في ٢٠٠٥م[1].

فالشر الطبيعي Natural evil بمفهومه الواسع (يعني الشر الذي لا دخل للبشر فيه) يمكن تقسيمه إلىٰ صورتين:

١- شر ناتج عن **أقدار حياة الإنسان** المكتوبة عليه، ولا يد له فيها، مثل ولادته **بإعاقة جسمية** مثلًا، أو لأسرة **فقيرة** أو **إجرامية** كان لها تأثير علىٰ حياته.

٢- وشر ناتج عن الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والصواعق التي تصيب حتىٰ الكائنات الحية الأخرىٰ غير المُكلفة.

والحقيقة أن هذه النقطة تحديدًا (**أي الشر الطبيعي**) من أكبر النقاط التي استعصت علىٰ الفكر المسيحي أو النصراني خصوصًا وعلىٰ الفكر الإنساني عمومًا في ظل **الابتعاد عن وحي الخالق نفسه** ﷻ.

ولذلك..

تباينت الآراء والاجتهادات فيها كثيرًا، وكل فريق **محصورٌ في**

=بالعلم وليس الله أو الدين؟ فإذا اختار المسلم الإجابة الأولىٰ فكأنه بذلك يستنفر العداء العاطفي للدين ولله، وإذا اختار الإجابة الثانية فكأنه بذلك يعلن فصل الدين عن الحياة، وأننا في عصر ترك الأمور للعلم يفسرها بعيدًا عن فكرة التحكم الإلهي والعقاب بالكوارث الطبيعية.. إلخ، وبالطبع هنا خلط متعمد بين العِلَّة الغائية والعلة السببية سوف نتحدث عنه بعد قليل.

(1) Ron Roosenbaum, "Disaster Ignites Debate: Was God In the Tsunami?" New York Observer, January, 10, 2005: observer.com/2005/01/disaster-ignites-debate-was-god-in-the-tsunami

جوانب عقيدته التي تُملِي عليه تفكيره واتجاهه.

فأما الفلاسفة اللاهوتيين من النصارىٰ (أمثال **ألفن بلانتنجا**) والذين يُعتبرون إلىٰ اليوم أفضل مَن تكلموا فيها عندهم فلم تخرج إجاباتهم عن (تعميم) فكرة **الإرادة الحرة** وحرية الاختيار لتشمل **جميع الأشياء!**

وعندما نقول هنا **جميع الأشياء** فنحن نقصد كل ما هو مِنْ بِنْيَة هذا الكون نفسه الذي نعيش فيه والحياة بدءًا من الكواكب والنجوم والمجرات، وانتهاءً **بالكائنات الشيطانية** التي لديها حرية اختيار وإرادة كذلك **للتسبب في أفعال الشر**؛ إذ بهذه الصورة يصل أمثال هؤلاء المفكرون إلىٰ وضعية (**ترك الله**) لأمور كثيرة تجري **بالاحتمالية والعشوائية** مثل **ميكانيكا الكَمّ**[1] فتنتج عنها شرور وأذًىٰ، لأن ذلك سيتماشىٰ مع الصورة (المتكاملة) لحرية الاختيار التي في هذا الكون والحياة.

وكما قلنا منذ قليل..

---

(١) ميكانيكا الكمّ هي فرع من علم الفيزياء، مختص بدراسة الجُسَيْمَات دون الذرية، أو الأصغر من الذرة، مثل الإلكترونات والفوتونات وغيرها، وكان من أكثر الأمور دهشة للعلماء في هذا المقياس الصغير جدًّا من أبحاثهم هي (الاحتمالية) التي ظهر بها سلوك هذه الجسيمات وليس (الحتمية) (السببية)، بمعنىٰ أنها بعكس دراسة الذرات وما فوقها من أشياء: فإن الجسيمات لا يمكن التنبوء تمامًا بكل سلوكياتها ومعلوماتها في نفس الوقت.
ويرجح البعض أن ذلك عائد لقصور أدواتنا نحن عن فك أسرار هذا العالم الصغير وليس لعدم وجود قوانين تحكمه.

هم من أضعف الناس تحليلًا - للأسف - بسبب غياب إرادة الله ومشيئته في اختبار الناس وامتحانهم وإظهار حقائق نفوسهم، ولذلك سقطت منهم أكثر صفات الله المتعلقة بقدرته وعظمته وتحكمه في كل شيء، وهو ما سنتحدث فيه بعد قليل.

لكن في العموم..

يمكننا الآن تجاهل الصورة الأولىٰ من الشر الطبيعي عن أقدار البشر (لأن تقديرها هو من تقدير الابتلاء والامتحان المكتوب علىٰ كل إنسان وتختلف استجابات الناس معه)، ولنرَ ماذا قال ألفن بلانتنجا عن الصورة الثانية من الشر الطبيعي، وهي وقوع الكوارث الطبيعية وغيرها؟

تفسير ألفن بلانتنجا:

في كتابه (الله، الحرية، والشر) ذكر ألفن بلانتنجا أحد الافتراضات للقديس أوغسطين St. Augustine (p. 26) والتي تحدَّث فيها عن تسبب الشيطان Satan في أكثر شرور العالم، وهنا يستعرض بلانتنجا العقيدة الدينية قائلًا:

إن الله خلق الشيطان وأتباعه جنبًا إلىٰ جنب مع الملائكة قبل خلق الإنسان بفترة طويلة، لكن هذا الشيطان وأتباعه (يسميهم بلانتنجا أرواحًا عظيمة القدرة غير بشرية Mighty nonhuman spirit) تمردت علىٰ الله، ومنذ ذلك الوقت وهي تسعىٰ بالفساد في كل شيء.

ومن هنا يقول بلانتنجا أنه - وفقًا لهذه الرؤية الدينية - فإن

الكوارث الطبيعية (بخلاف التي هي عقاب إلهي) هي بسبب **الشيطان وأتباعه** من هذه الأرواح القوية غير البشرية، إذ أنَّ لديها – هي أيضًا – حرية اختيار وإرادة مثل البشر، لكننا لا نستطيع رؤيتهم ولا رؤية كيفية تسببهم في هذه الكوارث"[1].

وبالنظر في هذا الرأي الذي عرضه **ألفن بلانتنجا** كإمكانية للرد علىٰ مشكلة الشر الطبيعي في العالم نجد أنه لم يبتعد كثيرًا عما قاله مفكرون آخرون أو نسبوه إليه، حيث يرون أن (خطيئة) **آدم وحواء** الأولىٰ كانت إيذانًا بخلق هذا الكون والنزول إليه، أي النزول من الجنة **(عالم الكمال والضبط الرباني لكل شيء)** إلىٰ الحياة الدنيا **(عالم الشر والألم والعشوائية والشر العارض)** للخلاص والتكفير، يعني عاد السببُ بهذه الصورة إلىٰ عقيدة **(الخطيئة الأصلية)** في المسيحية، وتحت ذلك يتم تبرير **الشر الطبيعي** مثل **حرائق الغابات** والتي تؤذي الأبرياء من الناس والحيوانات، ومثل **الأمراض الفتاكة والطاعون والإيدز** التي يمكن أن تصيب أناسًا بغير ذنب، وكذلك **الأطفال** وموتهم أو قتلهم.. إلخ.

والآن..

ما هي الرؤية الإسلامية لكل ذلك؟

* * *

---

(١) استعرض ألفن بلانتنجا حُجته هذه في كتابه (الله، الحرية، والشر) الذي أصدره عام ١٩٧٤م، وهي في الصفحتين ٥٧ إلىٰ ٥٩ من طبعة عام ١٩٧٧م:

Plantinga, Alvin 1977. God, Freedom, and Evil. Grand Rapids, MI: Eerdmans, p. 57: 59.

(٣) الرؤية الإسلامية لمشكلة الشر:

كما أشرنا في أول هذا الموضوع: إن أصل أي قصور في بعض الردود الفلسفية والمسيحية علىٰ مسألة الشر هو **افتقادهم جميعًا إلىٰ نور الوحي الحق** من الله رب العالمين؛ ولذلك زاد اجتهادهم بغير علم، فظهر خطؤهم في عدد من المسائل التي ستتضح لنا تباعًا الآن عند المقارنة.

فالإسلام يتميز بالكثير من **النصوص الواضحة في القرآن والسُّنَّة** أو **الإشارات** التي تصلح لبناء فكرٍ واعٍ ببعض حكمة الله ﷻ من وجود الشر والألم والنقص في هذه الحياة الدنيا.. نصوص تتحدث عن **العدل الإلهي والقضاء والقدر والامتحان والابتلاء والإظهار**.. كل ذلك بوحيٍ صحيحٍ **لم يتغير ولم يتحرَّف ولم يتدخل في صياغته** بشر (وهنا تأتي مَيزته عن غيره من الاجتهادات).

فتعالوا معًا نستعرض بعض ذلك في نقاط محددة..

إثبات كمال الله:

خطوة من أهم الخطوات قبل الحديث عن **كمال حكمة الله** تعالىٰ في **أفعاله** وكذلك **كمال صفاته** هي النظر في كيفية إثبات تلك

الكمالات بالعقل مبدئيًا تمامًا كأننا نبدأ من الصفر مع شخصٍ ملحدٍ أو لا ديني؛ فنقول:

لقد ثبت في **العقل السليم** أنه لا يظهر شيء إلىٰ الوجود (بعد أن لم يكن) إلا ويكون ذلك بفعل سببٍ أو مُسبِّبٍ أو مُحدِثٍ له، فالعقل السليم يرفض فكرة ظهور شيء مِنْ لا شيء أو من عدمٍ محضٍ بغير سبب أو مُسبِّب أو مُحدِث، وعلىٰ هذا بنىٰ الإنسان كامل معرفته **وعلومه** منذ فجر التاريخ وإلىٰ اليوم؛ وإلا:

تخيلوا مثلًا إذا استمعنا إلىٰ قول القائل: إن **الأشياء تخرج من اللاشيء أو العدم بغير سبب أو مُسبب أو مُحدِث** فهل مثل هذا الكلام (فضلًا عن مخالفته لما نراه يوميًا في حياتنا) **هل ينبني عليه أي علم مفيد؟**

ماذا لو أن المطر ينزل بلا سبب؟ هل كان من الحكمة ساعتئذ ظهور (علم) يبحث في نزول المطر للاستفادة منه أو تجنبه؟ أم سيصير هذا (العلم) هنا زائدًا لا حاجة إليه لعدم وجود ضابط يضبطه؟

إذن.. **العقل السليم** يدرك أن لكل حادث (بعد أن لم يكن موجودًا) سببًا أو مُسببًا أو مُحدِثًا له، وهذا ما أشار إليه القرآن كما قلنا من قبل:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ (الطور:٣٥).

والسؤال الآن..

لماذا أعلن **الفلاسفة** (حتىٰ غير المتبعين لدين معين منهم) عن

حاجتهم **لخالق أول يصدر عنه كل شيء** (وهو ما اختلفت طريقة تعبيرهم عنه ووصفهم له لكنهم اتفقوا علىٰ أنه **واجب الوجود**)؟

والإجابة..

أنه **يستحيل عقلًا** تسلسل الأسباب أو المُسببات إلىٰ **ما لا نهاية في الماضي** أو **في الأزل**، لأنه - ساعتئذ - لم يكن ليحدث أي شيء أو يوجد أي شيء.

مثال:

لو افترضنا أن هناك جنديًّ ينتظر أمرًا من **قائده لإطلاق** الرصاصة، لكن **قائده** ينتظر أمرًا من **قائده**، **وقائده** من **قائده**... وهكذا، فإذا استمر الأمر إلىٰ ما لا نهاية **فلن تنطلق الرصاصة أبدًا**، أما إذا انتهىٰ إلىٰ **قائدٍ لا يأخذ أمره من أحدٍ** (أي مختلف عنهم) **فسوف تنطلق الرصاصة**، وبذلك.. فإن كل قائد في هذه السلسلة **يمكن الاستغناء عنه ولن تتأثر النتيجة** (وهي انطلاق الرصاصة)، وعليه فيمكننا وصف أي أحد في هذه السلسلة بأنه (**ممكن الوجود**)، أي يمكن الاستغناء عنه، لكنَّ **القائد الأول** هو الفريد والوحيد الذي **لا يمكن الاستغناء عنه وإلا فلن يحدث شيءٌ** (أي لن تنطلق الرصاصة أبدًا)، ولذلك يمكن وصفه هو فقط بأنه (**واجب الوجود**)، أي أنه لولا وجوده لَمَا انطلقت الرصاصةُ أبدًا.

وهكذا الحال في هذا الكون والوجود الذي نراه؛ فلو كان الأمر مجرد أسباب تتلوها أسباب إلىٰ ما لا نهاية في الماضي **فلم يكن ليوجد**

أنا ولا أنت ولا أي شيء ولا الكون نفسه، أما وجودنا الآن فهو يعني أن (الرصاصة قد انطلقت) أي أن هناك (خالق أزليٌّ لا بداية له) ولا يعتمد في وجوده علىٰ شيءٍ، وذلك لأن الحاجة إلىٰ غيره هي نقص، والنقص ينافي كمال واجب الوجود الأزليّ، فالمحتاج إما تسبقه حاجته أو توجد معه. ونحن اتفقنا أنه - عقلًا - لازم الاعتراف بـ(واجب الوجود)؛ فكل مخلوق فالله يسبقه في الوجود وظاهر عليه، بل وكل سبب ظاهر للوجود ففي أصله السبب الباطن وهو الله، وكما أنَّ اللهَ هو أول كل الأسباب فإن كل الأسباب أيضًا آخرها إلىٰ الله، ومن هنا يقول ﷻ عن نفسه في القرآن:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:٣).

ويقول في غناه عن خلقه وبيان أن له كل شيء ولا يحتاج إلىٰ شيء:

﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (لقمان:٢٦).

فنحن باعتبارنا مخلوقين في حاجة إليه دومًا وفي كل لحظة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (فاطر١٥).

فإذا فهمنا ذلك (أي استغناء الخالق عن كلّ شيء) فهمنا أنَّ باقي صفات الكمال مترتبة عليها - (بالإضافة إلىٰ ما يمكن ملاحظته من

عظيم خلقه) - فهو صادق لأن الصدق كمال والكذب نقص (فالكذاب إما يُداري أو يستجيب أو يخاف، وكل ذلك لا يليق بالكامل سبحانه)، وهو عليم لأن الجهل نقص (فهو عالم بما كان، وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف يكون)، وهكذا بقية الصفات فهو خبير، وحكيم، وجبار، ومُتَعَالٍ، وقاهر، ومهيمن،... وكل هذه الصفات هي بمعانيها التي نعرفها ولكن بكيفيات ليست مثلنا، يقول تعالىٰ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ:١١).

فهو سميع وبصير (بالمعاني التي نعرفها) لكن سمعه ليس بنفس كيفية سمعنا، وبصره ليس بكيفية بصرنا، لأنه إذا كانت مخلوقاته نفسها تتفاوت في كيفية الصفة الواحدة (مثل اختلاف كيفية السمع والبصر بين الإنسان والصقر والكلب والقطة والضفدع والأخطبوط والنمل... إلخ) فما بالنا باختلاف كيفيتها بينهم وبين خالقهم؟

لكن السؤال الآن هو..

هل مِن الكمال أَنْ يَخْلُقَ اللهُ خلقًا يعبدونه بغير حرية إرادة واختيار (كالملائكة مثلًا)؟ أم الأكمل في خَلقه أن يشتمل - أيضًا - علىٰ مَن يعبدونه عن حرية إرادة واختيار؟

هل الملائكة أفضل أم الصالحون؟

هذا السؤال شغل كثيرًا من علماء المسلمين وغيرهم قديمًا وحديثًا، وذلك خوفًا من التقول فيه بغير علم ونسبة التفضيل إلىٰ الله

بالخطأ، ولا شك أن الخلاف هنا ليس عن (خلق مخلوقات مُختارة من عدمه، وهم الجن والإنس)، وإنما عن: **هل صالحوهم يفوقون الملائكة في المكانة أم لا؟** وبذلك يتبين لنا إجماع المسلمين أنه من كمال خلق الله (أي صفة الخلق لديه) إيجاد **خلقٍ مُختارين** (أي لديهم حرية إرادة واختيار يعبدونه بها)، ولم يعترض علىٰ ذلك أحدٌ - فيما نعلم - منذ بدء الإسلام، بعكس ما رأيناه عند المسيحيين ودفاع **ألفن بلانتنجا** السابق.

وبالعودة إلىٰ السؤال نجد أن:

غالبية المسلمين (وخاصة أهل القرون الأولىٰ الفاضلة ومَن تبعهم) كانوا علىٰ تفضيل جنس أو نوع البشر علىٰ جنس أو نوع **الملائكة**، وذلك لأن العقل يعترف **بتكريم الفاعل الضعيف** إذا أتىٰ **بنفس فعل الفاعل القويّ** أو قريبًا منه.. بمعنىٰ:

إذا قام أحد الرجال **الأقوياء** بحمل صخرة مثلًا لمسافة خمسين مترًا ثم قام أحد الرجال **الضعفاء** بحمل نفس الصخرة لنفس المسافة فلا شك أن ما بذله من مجهود هو أضعاف ما بذله القوي، ولذلك فهو **يلقىٰ من التقدير أكثر مما يلقاه القويّ.**

وكلما زادت الأعباء والمصاعب والأثقال في طريقه عن الآخر القوي كلما زاد هذا التقدير، **حتىٰ ولو لم يُحقق ما يُحققه القوي من إنجاز**، وذلك يشبه - إلىٰ حد كبير - ما نجده في حالة **البشر والملائكة؛** فالبشر من جهة هم محاطون بالشهوات والحاجات الدنيوية، ومن

الجهة الأخرىٰ هم أضعف من الملائكة في القوة والعبادة والطاعة، ومثال ذلك ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله:

«**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَ** (والأطُّ هو الصوت الناتج عن زيادة الحمل)؛ **مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ**»[1].

أو كما قال في حديث الإسراء والمعراج الشهير (الإسراء إلىٰ المسجد الأقصىٰ ببيت المقدس، والمعراج إلىٰ سِدرة المنتهىٰ في السماء):

«... **فَرُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ** (وهو البيت الذي في السماء السابعة، ويقابل الكعبة عندنا)، **فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ**»[2].

وهو ما ينبئنا عن الكثرة الكاثرة للملائكة العابدين لله، أو كما جاء في الحديث الصحيح الآخر عن النبي ﷺ أيضًا قوله:

«**إِنَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ لَسَمَاء مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ** (أي من السجود لله) **أَوَ قَدَمُهُ قَائِمًا** (أي قائمًا يصلي لله)، **ثُمَّ قَرَأَ: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ)**»[3].

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» برقم (٢٣١٢)، وحَسَّنَهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن التِّرْمِذِيِّ».

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٢٠٧)، ومسلم في «صحيحه» برقم (١٦٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢٧)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٠٥٩).

ومثل هذه العبادة لا يُطيقها البشر لضعف أجسامهم، ولحملهم من الأعباء والمصاعب وأثقال حاجاتهم الإنسانية ما لا نجده عند الملائكة المفطورة علىٰ طاعة الله بغير شهوات ولا حاجات حياتية تشغلهم.

ومن هنا يقول الشيخ محمد السفَّارِينِيّ الحنبلي رحمه الله:

«.. ولكثرة الخلاف فيها وتباين أقوال الأئمة من المتكلمين وغيرهم في تفاصيلها قلنا في النظم:

وعندنا تفضيل أعيان البشر * علىٰ مَلاكِ ربنا كما اشتُهر

قال ومَن قال سوىٰ هذا افترىٰ * وقد تعدىٰ في المقال واجترَىٰ

(وعندنا) أي معشر أهل السُّنَّة، خصوصًا أهل الأثر وسلف الأمة وكبار الأئمة فإنهم يقولون ويعتقدون (تفضيل أعيان البشر) محركة الإنسان ذَكَرًا أو أنثىٰ، ويُطلق البشر علىٰ الواحد والجمع، وقد يُثَنَّىٰ ويُجْمَع أبشارًا، والمراد بأعيانهم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والأولياء، فالأنبياء أفضل من الأولياء، وهما أفضل من الملائكة، وقيل: كل صالح أفضل من الملائكة»[1].

بل والإجماع أقوىٰ وأظهر في تكريم الإنس علىٰ الجن كذلك، وله شواهد كثيرة قرآنًا وسُنَّة، ولكن بما أننا نهدف إلىٰ عدم التطويل

---

(١) من كتابه (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية)، المكتب الإسلامي - دار الخاني، بيروت، طـ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (ص٣٩٨).

والإسهاب فسنكتفي بالقليل الذي يكفي، إذ يمكننا هنا ذكر أحد أدلة احتجاج أفضلية جنس البشر علىٰ جنس الملائكة والجن معًا وهو قول الله تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)، فشمل ذلك تكريم آدم (رمز البشر) علىٰ الملائكة والجن؛ حيث الأمر بالسجود هنا هو للتكريم والتحية (وكان مُباحًا قبل تحريمه لغير الله في الإسلام، وقد جاء في القرآن سجود إخوة يوسُف مع أبيه وأمه له عليه السلام). وقد فهم إبليس هذا التكريم.. وهو ما أثار حقده وعصيانه لله، نقرأ ذلك في قوله:

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٢).

فالإنسان أضعف من الملائكة وأضعف من الجن، لكنه رغم ذلك يسبقهما في المنزلة والتكريم إذا أطاع الله وعَبَدَهُ عن حبٍّ واختيار، بل هو مُطَالَب في امتحانه لدخول الجنة وتجنب النار بأقل قدرٍ من ذلك ألا وهو: الإيمان والاعتراف بالله ربًّا وإلهًا خالقًا مُطاعًا؛ حتىٰ ولو جاء ذلك الاعتراف في آخر حياته، بل حتىٰ إذا جاء بعد الموت في امتحان يوم القيامة للأجنَّة والأطفال الذين ماتوا صغارًا والمجانين والطاعنين في السن والمصابين بالصمم والذين لم تبلغهم رسالة ولا رسول حيث كلهم لم تبلغهم حُجة الله عليهم ودعوتهم لطاعته كما سنوضح بعد قليل.

لكن الشاهد هنا هو:

تغليب الرأي القائل بأفضلية البشر (**كجنس ونوع مُختار**) علىٰ الملائكة المفطورين علىٰ الطاعة وعدم المعصية كما قال عنهم الله في القرآن:

- ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦).

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٦).

- ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٠).

- ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ (فصلت:٣٨).

وقد استفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في استعراض أكثر الآراء وتفريعاتها في هذه المسألة، حيث نجد ذلك في خمسين صفحة تقريبًا من (**مجموع الفتاوىٰ**) الجزء الرابع من ص ٣٤٤ إلىٰ ٣٩٢.

ومن الجميل أنه فرَّق في المقارنة بين إذا كانت بين آحاد البشر وآحاد الملائكة؟ وإذا كانت بين جنس البشر وجنس الملائكة؟ وكذلك إذا كانت بين صالحي البشر والملائكة الذين كلهم صالحين؟.. وهكذا، حيث ذكر أن أكثر الاختلاف في الرأي وقع مع عدم التفريق أو التحديد لمجالِ هذا التفضيل أو التكريم (فمثلًا كفار البشر هم في منزلةٍ أقلَّ من الحيوانات أنفسها فما بالك بالملائكة، فالحيوانات تدفع عن نفسها الضر، في حين الكفار يضرون أنفسهم

بالتعرض لعذاب الله وهم يعلمون).

وقد استعرض الأقوال المختلفة في آية: ﴿ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وكذلك استعرض آراء المعترضين في استثناء سجود الملائكة ﴿ ٱلْعَالِينَ ﴾:

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ (ص: ٧٥).

وأيضًا استدل علىٰ **أفضلية الصالحين من بني آدم وتكريمهم** بأن الله تعالىٰ قد خلق أباهم آدم عليه السلام بيده وليس **بكُنْ فيكون** مثل الملائكة (وذكر حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في ذلك)[1]، وفي العموم يقول في ص ٣٤٤:

---

(١) الحديث له طرق ضعيفة مثل التي رواها الطبراني في معجميه «الأوسط» و«الكبير»، وله طرق صححها أهل العلم كما ذكر العلامة أحمد شاكر مثل ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتابه (السنة)، وما رواه الدارمي في كتابه (الرد علىٰ المَرِيسِي) (ص ٣٤)، عن عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه قول النبي ﷺ: «إِنَّ المَلَائِكَةَ قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة؟ قال: لا أجعل صالح ذرية مَن خلقت بيدي (أي الصالحين من ذرية آدم الذي خلقته بيدي) كمَن قلت له: كُنْ فَكَانَ».

«عن عبد الله بن سَلَام أنه قال: مَا خَلَقَ الله خلقًا أكرم عليه من محمد. فقيل له: ولا جبريل ولا ميكائيل؟ فقال للسائل: أتدري ما جبريل وما ميكائيل؟ إنما جبريل وميكائيل خَلقٌ مُسَخَّرٌ كالشمس والقمر، وما خَلَقَ الله خلقًا أكرم عليه من محمد ﷺ»؛ فيُعلق علىٰ ذلك شيخ الإسلام قائلًا:

«وما علمتُ عن أحدٍ من الصحابة ما يخالفُ ذلك، وهذا هو المشهور عند المنتسبين إلىٰ السُّنَّة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو أن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة».

ويقول كذلك في الجزء ١١ من مجموع الفتاوىٰ ص ٩٥:

«وآدم خلقه الله من طين، فلما سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وفضَّله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء وبأن خلقه بيديه وبغير ذلك؛ فهو وصالحو ذريته أفضل من الملائكة، وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين؛ وهؤلاء من نور».

ويقول ابن القيم رحمه الله:

«صالح البشر أفضل من الملائكة، لأن الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعي النفس والشهوات البشرية، فهي صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق، وهي كالنفَس للحيِّ. وأما عبادات البشر فمع مُنازعات النفوس، وقمع الشهوات، ومُخالفة دواعي الطبع فكانت أكمل، ولهذا كان أكثر الناس علىٰ تفضيلهم علىٰ الملائكة لهذا المعنىٰ ولغيره»[1].

---

(١) من كتابه (طريق الهجرتين) (ص٣٤٩ - ٣٥٠).

لماذا لم يخلق الله الصالحين في الجنة مباشرة؟

قد رأينا في النقطة السابقة أنه طالما كان من **الأكمل** خلق أشخاص (**مُختارين**) فإن الله يخلقهم... لأنهم أكثر للمدح من الخلق غير المُختارين، وهو ما حاول **ألفن بلانتنجا** الإشارة إليه في مثال **الروبوت الآلي** الذي لا يملك إلا فعل ما هو **مُبرمج عليه**، لكن هنا يظهر التساؤل الذي يبدو لصاحبه حاملًا مفتاح الخروج من إشكال الشر والألم والنقص في الحياة الدنيا وهو:

لماذا لا يخلق الله الصالحين في الجنة مباشرة من غير مرور علىٰ كل ذلك أو رؤيته والتأثر به؟

وللإجابة المنطقية علىٰ هذا السؤال تعالوا نتفكر معًا في هذه الفرضية بالفعل: **ماذا لو خلق الله الصالحين في الجنة مباشرة؟**

إن الجنة - بعموم أوصافها في الأديان وخاصة الإسلام دين الحق - هي **العالم الكامل** الذي لا شرَّ فيه ولا ألم ولا نقص، كيف لا والله تعالىٰ كما **سيُبدل** الأرض والسماوات يوم القيامة فسوف **يُبدل** خلق الناس كذلك إلىٰ **أكمل صورة** بلا ضعف ولا مرض ولا حاجة، كلهم في سن الشباب يتلألؤن كالقمر والكواكب المضيئة في السماء، بل وكل ما يتمناه **الواحد منهم ويشتهيه** من سائر أنواع **المُتَعِ الحلال**[1]

---

(١) تعمدنا بيان أنها مُتَع حلال هنا ردًا علىٰ محاولات تشويهها من جهة بعض النصارىٰ والملحدين بزعم أنها متع (مفتوحة) بغير حدود من الأدب أو الشرع، وهو ما يتعارض مع قول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ =

سيجده بلا أَيَّةِ مَشَقَّةٍ أو تَعَبٍ، وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من أنواع تلك المُتع مثل السعادة الدائمة، والتعلق المتجدد بكل ما فيها بلا سأم ولا ملل، وكذلك العمل الذي نحبه، أيضًا الجماع والاستمتاع بشتىٰ مناظر الجَمال والملابس والطعام والشراب والسكن، وهو ما يمكن إجماله بذكر بعض الآيات التالية من قوله تعالىٰ:

- ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ (فصلت:٣١).

- ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٣٤).

- ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق:٣٥).

- ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ (الفرقان:١٦)... وغيرها من الآيات والأحاديث.

والسؤال الآن..

كيف لمثل هؤلاء الصالحين أن يعرفوا حقًّا (**الفرق بين**) مقام

= عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٨)، فلا يوجد في الجنة جماع إلا مع ما أحله الله لرجال الجنة ونسائها من أزواج أو حور عين، ولا يوجد في الجنة مُسكرات تَذهب بالعقل، فخَمْر الجنة (أي شرابها المعصور من الفاكهة) ليس فيه ما في صفة خمر الدنيا من الفساد الذي يظهر عليه إذا تم نبذه (أي تركه) أكثر من ٣ أيام، وغِلْمان الجنة (أي أطفالها) هم لبهجة النَّظَر والضَّحِك الفطري العَفَوِيّ معهم، وليسوا للشذوذ الجنسي كما يشيع المستخفون بعقول الناس للأسف، وهكذا في باقي متع الجنة.

(العبوديـة) و(المحدوديـة) بـصفتهم (مخلـوقين) لله، وبـين مقـام (الألوهية) أو (الربوبية) لله تعالىٰ بصفته (خالقهم)؟

كيف سيعرفون قيمة ما أسبغه الله عليهم من (النِّعَمِ) و(الخير) و(تعريفهم الحق) إذا لم يعرفوا معنىٰ (الاحتياج) و(الشر) و(الألم) و(الضلال)؟

هل سيعرفون قيمة (الخلود) أو (الأبد) إذا لم يعرفوا معنىٰ (الموت) و(الضعف)؟

هل سيعرفون قيمة (الصحة) و(الجمال) إذا لم يعرفوا معنىٰ (المرض) و(القُبح)؟

ماذا عن الطيبة والعطاء والإيثار؟ الشجاعة والوفاء؟ السماح والمغفرة؟

كيف سيدركون **عظمة الله وكمال صفاته** التي تفضَّل بها عليهم؟

كيف سَيَعْلَمُونَ **قَدْرَ محبته لهم** إذا لم يروا **كيف ولماذا كانت تلك المحبة**؟

وهكذا يمكننا أن نسترسل في ذكر الكثير والكثير من الأشياء والمفاهيم والمعرفة والقيم التي **ستفقد معناها وقدرها الحقيقي** إذا افترضنا وضع أشخاص (**مُختارين**) في الجنة مباشرة، أو في **الحياة الكاملة** مباشرة.

.. بل:

كيف ستظهر عوامل (التفاوت) فيما بينهم في المنزلة والتفاضل

الذي لا بد من وجوده بينهم كونهم (مُختارين)؟ إذ لزامًا عقلًا مع حرية الإرادة والاختيار أن يوجد تفاوت بينهم.. فكيف سيفهمون حقيقة الاختلاف بين منازلهم في الجنة إذا لم يظهر ذلك الاختلاف في مواقف فعلية تُظهر حقائق أنفسهم وتدرجاتها؟

لن نطيل في شرح تلك النقطة، وحسبنا ما ذكرناه من جوانبها، لكننا الآن في حاجة إلىٰ وضع النقاط علىٰ الحروف، وترتيب ما استطعنا الوصول إليه من مفاهيم لنصوغه في تسلسل منطقي فيما يلي:

١ - من كمال صفة الخلق أن يخلق الله خلقًا (مُختارين) لديهم حرية إرادة واختيار، بجانب خلقه غير المُختارين.

٢ - هذه الأنفس (المُختارة) إذا جعلها الله تعالىٰ في الجنة مباشرة فسيفوتها عِلمٌ عمليٌّ وفهمٌ عميق لمعاني الوجود وصفات الله ﷻ ومعنىٰ عبوديتها وحاجتها له ومقدار تنعمه عليها، كما أنها لن يظهر لها سبب تفاوتهم في الجنة، وهو التفاوت الحاصل يقينًا بسبب حرية إراداتهم وخياراتهم.

٣ - الله تعالىٰ قدَّر لكل نفس امتحانها وابتلاءها واختبارها الذي يناسب إظهار مكنونها مما يعلمه الله من الخير أو الشر، من الإيمان أو الكفر، من المعصية أو الطاعة، فكل اختيار لأيٍّ منَّا هو بمشيئة الله وتقديره الحكيم، فهو يعلم لوازم كل اختبار لصاحبه، فالفقر يكشف الصبر علىٰ الأذىٰ والعطاء رغم الضيق، والغنىٰ يكشف الصبر عن الشهوات والعطاء مع السعة، بل وأن تكون رجلًا أو امرأة هو اختبار

من الله تعالىٰ كذلك بما يناسب مكنونات نفسك وما يناسبها، فالرجل اختباره بمسؤولياته وقيادته وقوامته، والمرأة اختبارها بمسؤولياتها وطاعتها وعفتها،.. وهكذا، وكل هذه الاختبارات ليست لإظهار شيء لا يعلمه الله (وحاشاه)، لكنه إظهار **يقيم علىٰ كل نفس الحُجَّة** إذا دخل أقوامٌ بسببه **الجنة** وأدخل الله الآخرين **النار**.

٤ - فأما الذين دخلوا النار فقد رفضوا الاعتراف بالله **غيبيًّا**.. رفضوا استخدام نعمة (**العقل**) التي ميزهم بها في إقرارِ **أوضح حقيقة في الوجود!** رفضوا طاعته فيما يأمر وينهىٰ. فهؤلاء يُدخلهم النار رغم **قدرته علىٰ (إجبارهم)** علىٰ الطاعة والعبودية والإيمان، **لكنه لم يخلقهم لذلك**، وإنما خلقهم (**أحرارًا**)، ولن يقبل منهم الإيمان **إلا إذا كان بإرادتهم واختيارهم**، يقول في ذلك:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ومَن يفهم هذا يعرف مدىٰ سطحية الملاحدة واللادينيين الذين يتصورون أن الله (**فشل**) في **إظهار نفسه للناس** ليؤمنوا به؟ أو أنه **يحاول** أن يؤمن (كل الناس) به لكنه (**لا يستطيع**)! فيشبهونه بالبشر أو الآلهة الوثنية المضحكة، يقول جل وعلا:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩).

ويقول كذلك:

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (السجدة:١٣).

ويقول أيضًا:

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء:٤).

إذن.. فحتىٰ الآيات أو المعجزات التي أجراها الله تعالىٰ لرسله فلم تكن علىٰ سبيل الجبر وحمل مَن يروها كلهم علىٰ الإيمان، وإنما كانت بالقدر الكافي لطمأنة المؤمنين بأن هؤلاء الرسل هم من عند الله الخالق المتحكم في قوانين الكَون، وبالقدر الكافي أيضًا لترك باب التشكك المعاند عند الكافرين ليصفوها بالسحر! ولذلك لم يؤمن بالله كل مَن رأىٰ آياته:

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٢).

... والشاهد:

أن الله تعالىٰ قد خلق جميع الناس مُختارين، يقول:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ (الكهف:٢٩).

فالكفار هم الذين اختاروا لأنفسهم مصير العذاب والنار بكفرهم، وليس الله!

يقول ﷻ:

﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (التوبة:٧٠).

٥ - أما الذين يدخلون الجنة فهم الذين امتلكوا أقل قدر من الاعتراف بالله غيبيًا بعقولهم التي منحهم إياها، فآمنوا بلزوم طاعة أمره ربًا وإلهًا معبودًا، لأن الذي يخلق هو الذي يملك الأمر، يقول تعالىٰ: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (الأعراف:٥٤)، حتىٰ لو أقروا بذلك في آخر حياتهم كما قلنا من قبل (ولو علىٰ فراش الموت قبل الغرغرة) فهؤلاء هم الذين يمُنُّ الله عليهم بدخول الجنة حتىٰ لو دخلوا النار أولًا لقضاء بعض الحقوق والذنوب التي عليهم للناس[1]، لكن مصيرهم يؤول إلىٰ الجنة والخلود فيها لأنهم اختاروا في النهاية الله وهو عالم النعيم كامل الخيرية (العالم الرابع عند بلانتنجا).. هؤلاء هم أقل درجات الإيمان، فما بالنا بأعظمها وأكثرها تفاوتًا وهم الذين آمنوا بالله من كل قلوبهم وعقولهم فأحبوه وأطاعوه حسب استطاعتهم وقدراتهم كبشر؟

٦ - وهكذا تظهر لنا ضرورة تفاوت اختبار تلك الأنفس المختلفة اختلافًا كبيرًا، فمنهم مثلًا الأنفس التي يكفيها سؤال واحد فقط (أو اختبار واحد فقط)، وهو الذي يكون يوم القيامة (مثل الأجنَّة والأطفال الذين ماتوا صغارًا[2] والمجانين والطاعنين في السن

---

(١) كما في حديث الشفاعة الشهير في الصحيحين وغيرهما.

(٢) ورد في بعض الأحاديث أنهم يُمتحنون يوم القيامة، كما ورد في أحاديث أخرىٰ أن الله يعلم ما كان سيكون منهم بتقديره الكامل سبحانه وعلمه المحيط ﷻ، ولا تعارض، فعلمه بما سيكون منهم مثل علمه بما سيكون من أحدنا ومصيره في الآخرة إلىٰ الجنة أو النار قبل أن يفعله، أما امتحانه لهم فهذا من عدله في إقامة الحُجَّة علىٰ جميع خلقه كما قلنا، وإلا لاحتج الكافر علىٰ الطفل الميت لماذا=

والمصابين بالصمم والذين لم تبلغهم رسالة ولا رسول، حيث كلهم لم تبلغهم حُجة الله عليهم ودعوتهم لطاعته).

٧ - فهؤلاء اختبارهم يكون بعد أن يُقِرُّوا لله تعالىٰ بألوهيته يوم القيامة، وبعد أن يروا أحوال الناس في ذلك اليوم، فيأتي امتحانُ الله لهم كما جاء في الحديث الصحيح عند الإمام أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ قال:

«أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصمّ لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق (أي مجنون فاقد العقل)، **ورجل هَرِم** (أي طاعن في السن لا يفهم ما يُقال له أو يسمعه)، **ورجل مات في فترةٍ** (أي لم تأته رسالة ولا رسول).

فأما الأصمّ فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفطرة فيقول: رب ما أتاني لك رسول.

فيأخذ مواثيقهم لِيُطِيعُنَّه (أي يطيعونه في أي شيء مهما كان)، **فيُرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت بردًا وسلامًا»**[1].

=دخل الجنة (إذا كان موته صغيرًا سببًا لدخول الجنة)، وحتىٰ إذا قيل إن أطفال المسلمين في الجنة فنقول إن ذلك مَنْ سَبَقَ عِلْمُ الله بهم فجعلهم أطفالًا للمسلمين، فيُجمع بين هذا وذاك.

(١) الحديث رواه الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٨٨١).

وهذا الاختبار هنا ليس مستحيلًا أو صعبًا عليهم، فلقد رأينا مثل تلك التضحيات ممَن امتحنهم الله في الدنيا، رأينا مثله في المؤمنين علىٰ مرِّ الزمان، وفي كل أمة ورسالة مثل الذين يتم تقديمهم للموت في مقابل كفرهم بالله فيرفضون، ففي الحديث الشهير عن أصحاب الأخدود الوارد ذكرهم في القرآن في سورة البروج (قصة الملك الكافر الذي حفر للمؤمنين من قومه أخدودًا في الأرض ملأه نارًا ليقذفهم فيها) ومنه ما جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال:

«إن امرأة جيءَ بها لتُلقىٰ في النار أو لتكفر ومعها صبي يرضع فتقاعست (أي تباطأت)، فقال لها: يا أمه، اصبري، فإنك علىٰ الحق»!

والشاهد هنا: أن المرأة أقبلت علىٰ الموت والإلقاء في النار يقينًا بالله، فزادها الله يقينًا بأن جعل ولدها الرضيع يتكلم، فألقت بنفسها في تلك النار وهي علىٰ علمٍ بأن الله سيقابلها بالخير والجنة.

والسؤال: هل سيكون من المستحيل علىٰ الذين سيمتحنهم الله يوم القيامة أن يفعلوا مثلها وقد رأوا ما رأوا في ذلك اليوم من اليقين بالله وأخذه عليهم وعد الطاعة وقد عرفوا أنه خالقهم والقادر علىٰ كل شيء؟

٨ - وأما بالنسبة لامتحانات الناس الأخرىٰ في الحياة الدنيا فإنها تختلف فيما بينهم وتتفاوت في كيفيتها باختلاف أقدار الله التي اختارها لهم بعدله وعلمه وحكمته لإظهار مكنون كل نفس فيها علىٰ حدة، ودرجة إيمانها أو كفرها عمليًّا ليحاسبها عليه، وذلك مثل العصر الذي

سنولد فيه، بلدنا، ديننا، **أهلنا**، صحتنا أو مرضنا، **فقرنا** أو غنانا، وهكذا... فكله مبني علىٰ (**عدل**) الله تعالىٰ مع كل نفس علىٰ حدة وما يعلمه منها والأنسب لإظهار مكنونها، وليس مبنيًّا علىٰ (المساواة) التي تضع امتحانًا واحدًا لأنفس مختلفة (**تخيل مثلًا أن تضع امتحانًا واحدًا لطلبة الصف الأول الابتدائي مع الثالث الثانوي!**) فالمساواة لا تكون في الأشياء المختلفة، فأنت إذًا لديك ثلاثة أبناء: **طفل** صغير، وآخر **غلام**، والثالث **شاب** كبير، فعندما تأتيهم بملابس فأنت **لا تأتيهم بمقاسٍ واحدٍ لتساوي بينهم!** وإنما تأتي لكل منهم **بمقاسه الخاص الذي يناسبه** فتكون بذلك قد (**عدلتَ**) بينهم، ومن هنا: **فعلىٰ** كل مؤمن بالله (**الكامل**) أن يثق في **عدله وحكمته**.. في أنه لن يمتحن أحدًا بأكثر من قدراته أو ما يحتمل، يقول ﷻ:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦). ولما سُئل رسول الله ﷺ عن أشد الناس بلاءً قال:

«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه»[1].

وهكذا تظهر حكمة أخرىٰ من بث الناس **مختلفين في الأرض**، حيث إذا شاء الله لجعلهم متشابهين، لكن ذلك ينافي مشيئته في إظهار اختلافاتهم الشخصية وحرية إراداتهم وحرية اختياراتهم، إذ يقول ﷻ:

---

(١) رواه الترمذي في سننه برقم (٢٣٩٨)، وصححه الألباني.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود:١١٨ - ١١٩).

وبالفعل.. نرىٰ نفس الاختبار لشخصين مختلفين، ونرىٰ نتائج مختلفة، فيتعرض اثنان للمرض الشديد أو للفقر المدقع فيصبر أحدهما في حين يتسخط الآخر، أو يسرق، أو يقتل، أو يكفر بالله، ويولد اثنان في النصرانية ويُعرَض عليهما الإسلام والتوحيد فيبقىٰ أحدهما، ويُسلم الآخر، وبالمثل يُولد اثنان في الإسلام، ويتعرضان لنفس الإغراءات أو الشبهات، فيثبت أحدهما علىٰ دينه، ويكفر الآخر فيتنصر أو يُلحد، وكذلك يُعذَّب اثنان في الله، أو يتركان الإسلام، فيزداد تمسك أحدهما بدينه في الظاهر أو الخفاء، في حين يترك الآخر الإسلام، أو يكفر به.

ولذلك نجد قصصًا عجيبة علىٰ مر التاريخ وإلىٰ اليوم من مؤمنين يُعذبون بأشد أنواع العذاب وما تركوا دينهم، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«قد كان مَن قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفرُ له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يؤتىٰ بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيُجعل نصفين، ويمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه»[1].

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٦٩٤٣)، وإن كان هذا الأمر مبنيًّا علىٰ الصبر في الأمم السابقة؛ فإنه من الأمور التي شرع الله فيها التخفيف علىٰ أمة الإسلام من رحمته بهم، وهو ما فعله عمار بن ياسر رضي الله عنه عندما عذَّب الكفار أمه وأباه=

٩ - تتبقىٰ هنا إشارة أخيرة إلىٰ كمال عدل الله تعالىٰ مع جميع خلقه المُختارين إذ رغم علمه النافذ بأنهم لن يدخلوا الجنة كلهم إلا أنه جعل لكل مخلوق منهم مكانًا في الجنة وآخر في النار، ليعلن بذلك عن أنه لم يكن مستحيلًا أن يستقيم كل الخلق المُختارين علىٰ الإيمان والطاعة والعبودية إذا أرادوا ذلك (مما يثبت من جديد احتمالية العالم الرابع عند بلانتنجا)، ولهذا نجد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله:

«كل أهل النار يرىٰ مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فيكون عليهم حسرة، وكل أهل الجنة يرىٰ مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرًا»(١).

فالله تعالىٰ غنيٌّ عنا جميعًا، وهو يفعل الأشياء، ويخلق المخلوقات، لا لحاجة أو نقص (حاشاه)، وإنما عن إرادة وحكمة ومشيئة خير:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء:١٤٧).

=وقتلوهما ولم يتركوه إلا بعدما قال كلام الكفر الذي يريدون، وفيه وفي أمثاله من المستضعفين نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل:٦٠).

(١) رواه الإمام أحمد وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٣٤).

فهو شاء الخير لمخلوقاته المُختارة بالفعل، لكن منهم من **رفض بنفسه وباختياره**، واختار الكفر والعناد والتكبر علىٰ الله، فاستحقوا بذلك العذاب:

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (النحل:٣٣).

لماذا نقول إن الله خالقُ كلِّ شيءٍ بما في ذلك الشر؟

وهنا فارق جوهريٌّ بين عقيدة المسلمين وعقيدة النصارىٰ أو المسيحيين، إذ في الوقت الذي **يتحرجون فيه من القول بخلق الله للشر** فإننا في الإسلام نقول إن الله تعالىٰ لا يوجد أي شيء في الكون (**خير أو شر**) إلا وهو مخلوق له، لم يظهر إلىٰ الوجود ولم يقع إلا بإذنه ومشيئته حتىٰ لو كان بمشيئة واختيار الإنسان:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الإنسان:٣٠).

فليس في الوجود إلا مخلوق أو خالق ولا ثالث لهما:

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الزمر:٦٢).

والمقصود: أنه لو لم يشأ الله تعالىٰ للشر أن يوجد (**أي أن يُخلق أو يقع أو يفعله أحد**) فلم يكن ليوجد أو يُخلق أو يقدِر علىٰ فعله أحدٌ، ومِنْ هنا يتبين لنا المعنىٰ أكثر، فقد ترك اللهُ الفرصةَ للشرِّ في الظهور لا لأن الله شرير - مثلًا، حاشاه - ولكن لإظهار **خير الأخيار وشر الأشرار** كما وضحنا من قبل، والذي لا يمكن ظهورهما علىٰ أرض الواقع ليكونا حُجَّة إلا بإتاحة الفرصة للشر في الوقوع بالفعل، تمامًا

كما أن هناك فرصة للخير بالوقوع.. فالأمر يشبه - **ولله تعالىٰ المثل الأعلىٰ** - مُعلِّما يُريد إظهار أخلاق الطلبة الجيدين والطلبة السيئين عمليًّا ليحاسبهم عليها، ومن هنا فهو يتركهم يتصرفون وهو يراهم، وبالفعل تصدر عن الطلبة السيئين أشياء سيئة، **لو أراد المُعلم ألا تظهر لكان منعها بكل سهولة** (فهو أقوىٰ منهم، وله السلطة والهيمنة عليهم)، لكنه ترك لهذه الأشياء السيئة الظهور **ليقيم عليهم الدليل والحُجة والبرهان** إذا حاسبهم.

ولذلك يقول رسولنا الكريم ﷺ في دعائه الشهير:

«**لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشرّ ليس إليك**»[1].

بل ويبلغ التأدب مع الله ﷻ ألا يُنسَب المرضُ إليه رغم أنه **لا نفع ولا ضر إلا بإذنه تعالىٰ وتقديره**، حيث يقول عنه أبو الأنبياء **إبراهيم** عليه السلام في القرآن:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٧٨ - ٨٠).

فنسب الخلق والهداية والإطعام والسقاية إلىٰ الله بما يليق به سبحانه، ثم نسب المرض إلىٰ نفسه رغم أن تقديره كله من الله كما أسلفنا.

الشر الطبيعي في الإسلام:

لاحظنا في دفاع **ألفن بلانتنجا** السابق عندما تعرض لمحاولة

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» برقم (١٧٨١).

تفسير وجود الشر الطبيعي Natural Evil في العالم كيف أنه ساق مقدمة ونتيجة.

المقدمة هي: أن هذا الشر مفصول عن عقاب الأمم (يعني ظواهر طبيعية فقط).

والنتيجة هي: لمّا لم يجد لها تفسيرًا لله فجعلها من أعمال الأرواح الشريرة.

وهنا سؤال:

إذا كانت الأرواح الشريرة عظيمة القوة (الشيطان وأتباعه) - بحيث لديها القدرة على إحداث تغييرات طبيعية كارثية مثل الزلازل والبراكين والأعاصير وغيرها بعيدًا عن أي تدخل إلهي - فلماذا لم تهجم على كل مكان في الأرض فيه مؤمنين أو فيه أماكن للعبادة وانتصرت وانتهى الأمر؟

والحقيقة.. أن استبعاد كون تلك المصائب (الظواهر الطبيعية المدمرة) هي من ضمن عقابات الأشخاص والأمم والبلدان: هو من الجهل بهيمنة الله تعالى على خلقه، ومُلكه لكل شيء في العالم، فلا يحدث شيء إلا وله حكمة عنده وغاية حتى المصائب (وخصوصًا وأنه ليس هناك إنسان أو قوم أو بلد معصومين لا تقع منهم ذنوب أو معاصي كثيرة أو قليلة)، فأما الذين يكثر فيهم الخبث حتى يتفشى فلماذا نتعجب من أن يعمهم شيء من الأذى لقاء ذلك؟ بل وحتى الذين حاولوا تفسير وقوعها في بلاد المؤمنين بأنها (خير) لأن فيها

تنفيث لما في باطن الأرض من براكين وتوازن بيئي من زلازل وأعاصير ونحوه نقول لهم إن الله تعالىٰ في مقدوره أن يجعل ذلك التنفيث والتوازن في أماكن أخرىٰ أو يجعله بلا ضحايا! وتقرير هذه المعاني نجده بكل وضوح في كلام الله ﷻ إذ يقول:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ (الشورىٰ: ٣٠).

والمصيبة كلمة عامة لكل ما يُصيب الإنسان، وفي هذه الآية مقصود بها المكروه الذي يصيب البشر.

العِلَّة الغائيَّة والعِلة الفاعلة:

وهنا نوضح ما أشرنا إليه سابقًا وهو كيف يكون تفسير الظاهرة الطبيعية بالدين والعلم معًا؟ فنقول:

بالدين: هو أن ننسب غايتها إلىٰ مشيئة الله (مثلًا نزول الغيث رحمة ووقوع البركان عذاب).

وأما بالعلم فهو عندما نصف كيفية حدوثها بقوانين وسُنن الطبيعة التي أودعها الله فيها.

فالأولَىٰ هنا تسمىٰ (عِلة غائية)، والثانية تسمىٰ (عِلة فاعلة).

وعليه.. فلا غضاضة ولا تناقض من أن يجمع التفسير للشيء الواحد بين العِلتين الغائية والفاعلة معًا، بل ونحن في حياتنا اليومية نستخدم ذلك كثيرًا.

فمثلًا إذا ترك أحد الموظفين العمل فجأة لاتصال جاءه بوقوع

حادث لأبيه، ثم سأله مديره بعد ذلك مُستنكرًا غيابه المفاجئ قائلًا: «**كيف تركت العمل في هذا الوقت الحرج**»! هنا توجد إجابتان وكلتاهما صحيحة، فإما أن يجيب **بالعِلة الغائية** وهي أنه فعل ذلك بسبب تعرض أبيه لحادث، وإما يجيب **بالعِلة الفاعلة** وهي أنه ركب المصعد ثم استقل سيارة إلىٰ المستشفىٰ!

الملاحظ هنا أن الموظف سيجيب بالعِلة الغائية لمعرفته بأنها **مقصود مديره من السؤال**، وكذلك سيفعل أي مسلم عند سؤاله مثلًا عن ظاهرة طبيعية (سواء كانت رحمة أو عذاب)، حيث سينظر **لمراد السائل وسياق كلامه**، هل يقصد معرفة (العِلة الغائية) من الله فيها أم (العِلة الفاعلة) من كيفية وقوعها؟

الشر الطبيعيّ كعقاب للناس:

إذن.. فكل مكروه يصيب البشر هو بما كسبت أيديهم رغم ترك الله تعالىٰ للكثير الذي لم يؤاخذهم به إمهالًا ونحوه، ولذلك يقول أيضًا سبحانه:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد:٢٢)، ويقول كذلك ﷻ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١).

حيث نجد في تفسير الآية الأخيرة عند ابن كثير رحمه الله[١]:

(١) تفسير ابن كثير، سورة الروم، آية رقم (٤١).

«ومعنىٰ قوله تعالىٰ: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) أي: بأنَّ النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: مَنْ عصىٰ الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة».

وبالنظر إلىٰ البلاد الإسلامية نفسها التي وقعت فيها مصائب يجد كل مُنصف مُطلع وعارف أنه سبقها مُجاهرات عديدة بمعاصي الله، أو استحلال حرامه، وتحريم حلاله، أو حتىٰ الاستخفاف بمحارمه (مثل شيوع الزنا حتىٰ يصير مهنة يقوم فيها الأب بتأجير ابنته للسائحين، أو تسكت عنه الدولة وتشرعنه)، ومثله الاستخفاف بسبِّ الدِّين وسب الله تعالىٰ ورسوله علنًا علىٰ ألسنة الصغار والكبار ممَن ينتسبون إلىٰ الإسلام! فأما أهل الصلاح الذين يُنكرون الباطل فحسابهم عند الله إذا وقع البلاء والفتنة التي لن تقتصر علىٰ الظالمين خاصة وإنما ستعم الجميع للأسف طالما أقاموا فيهم ما لم يتدارك الله المؤمنين منهم برحمة فينجيهم:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٢٥).

وها هو الخسف والمسخ والقذف يربط النبي ﷺ كثرته بانتشار المعاصي والمجاهرة بها فيقول - كما عند الترمذي -: «في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف. فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتىٰ ذلك؟ قال: إذا ظهرت القيان (أي المُغنيات) والمعازف، وشُربت

الخمور»[1].

وقريب منه في خبر الخَسْف:

«ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»[2].

وبالفعل.. نجد أن الصحابة - وهم أكثر الناس فهمًا عن النبي ﷺ - قد استوعبوا العلاقة بين مثل تلك الظواهر الطبيعية (أو الشر الطبيعي) وبين المعاصي والذنوب والبدع التي يستحدثها الناس في الدين؛ فها هو الفاروق **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، صاحب النبي المقرب، والخليفة الثاني للمسلمين، والذي وافقت آراؤه أحكام القرآن في غيرما موضع من قبل نزولها، ينقل لنا الإمام أبو عمر (ابن عبد البر) في كتابه (الاستذكار) واقعة فريدة حدثت في عهد خلافته في المدينة فقال:

«٩٨٤٤ - قال أبو عمر: لم يأت عن النبي ﷺ من وجه صحيح أن الزلزلة (أي ظاهرة الزلزال) كانت في عصره، ولا صحت عنه فيها سُنة، وقد كانت أول ما كانت في الإسلام على عهد عمر فأنكرها وقال:

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» برقم (٢٢١٢)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن التِّرمِذِيّ».

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه» برقم (٣٢٦٣)، وقال: «... ولهذا شواهد من حديث عليّ، وعِمْرَان بن حُصَين، وعبد الله بن بسر، وسهل بن سعد، وأنس بن مالك، وعائشة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ»، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

أحدثتم والله (أي ابتدعتم ذنبًا لم يكن موجودًا من قبل في مدينة رسول الله)، لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم.

٩٨٤٥ - رواه ابن عيينة عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن صفية، قالت: زُلزلت المدينة علىٰ عهد عمر حتىٰ اصطكت السور. فقام، فحمد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: ما أسرع ما أحدثتم.. والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم».

والخبر الثاني إسناده صحيح[1].

وهذا من فقه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب ﷺ وأرضاه في نظره لمثل هذه الأمور، ولقد اخترت ذِكر هذا الأثر بالذات لإيضاح شيء هام وهو: أنَّ الأصل عدم القدرة علىٰ التفريق إذا وقعت كارثة طبيعية بين إذا كانت وقعت عقابا أم مجرد حدث كوني عشوائي عارض، أو بفعل الأرواح الشريرة عظيمة القوة! هذا هو الأصل (فتلك الأرواح مثلًا لن تترك توقيعها بعد الكارثة لنعرف أنها منها وليست من

---

(١) عُبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب العدوي المدني أبوعثمان، هو أحد الفقهاء السبعة، قال فيه ابن حجر ﷺ كما في «التقريب»: «ثقة، ثبت»، ونافع هو مولىٰ ابن عمر ﷺ، قال فيه ابن حجر أيضًا: «ثقة، ثبت، فقيه، مشهور»، وأما صفية فهي ابنة أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي، وهي زوج عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، تزوجها في خلافة والده كما في «طبقات ابن سعد»، ورَوَت عن عمر وعائشة وحفصة وأم سلمة وغيرهم ﷺ أجمعين كما في «تهذيب التهذيب»، قال عنها ابن حجر: «قال العجلي: مدنية تابعية ثقة»، وذكرها ابن حبان ﷺ في «الثقات».

الله كعقاب)، وبذلك يتبين لنا أن الطريقة الوحيدة للتفريق عند بلانتنجا أو غيره ستكون الافتراض المسبق لطهارة أهل بلدٍ ما، بحيث إذا كانوا طاهرين ووقعت بهم كارثة فهي حدث كوني عشوائي عارض أو من الأرواح الشريرة، أما إذا كان أهل البلدة ليسوا بطاهرين فإن الكارثة هي من الله عقابا لهم (ولاحظوا أنها هي هي نفس الكارثة بوقائعها وتفاصيلها).

وبالرجوع إلىٰ ذلك الأثر عن واقعة زلزال المدينة نرىٰ الفهم الشامل والعميق لعمر الفاروق ﷺ في نظرته لمثل هذه الكوارث، بل لكل المصائب عمومًا، وهذا.. رغم أن المدينة (أي مدينة النبي ﷺ) لها مكانتها الكبيرة في الإسلام كما هو معلوم، بل وفيها مسجد النبي وقبره وبجواره قبر صاحبه أبي بكر ﷺ وسائر قبور الصحابة.

إذن.. الإسلام والقرآن في غير ما موضع يقر أنه ما من مصيبة إلا وهي مُقدَّرة سلفًا عند الله من قبل أن يبرأها للناس علىٰ أرض الواقع، يقول تعالىٰ:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد:٢٢).

وإذا كان هذا في بلاد المؤمنين أو المسلمين موجودًا فهو في بلاد الكفار أولىٰ بالوجود، وهذا حاصلٌ بالفعل مهما جهله الجاهلون أو لم ينتشر في إعلامنا، إذ توجد من الزلازل والأعاصير الكثير الذي يصيبهم، لكن لا يصلنا من أخباره إلا القليل، بل أحيانًا تتعاقب

الأعاصير علىٰ البلد الواحدة في أقل من شهر واحد (مثل أعاصير أمريكا الوسطىٰ وما تدمره من جزر الكاريبي وتصيب به شمال فنزويلا وشرق المكسيك وجنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية)![1]

فالابتلاء والامتحان والاختبار هو سر هذه الحياة وجوهرها وهدفها لإظهار **مكنونات كل نفس** من خير أو شر، من جَزَعٍ أو صبرٍ، بل ورِفعة درجات أحيانًا وتكفير ذنوب ومعاصي، وهذا يعني أنه يمكن أن يصيب **أشخاصًا أبرياء** أو حتىٰ **صالحين** وسط الظالمين كما ذكرنا منذ لحظات.

فهذه هي النتيجة عندما يكثر الخبث في المجتمع للأسف، وهو ما ذكرته أم المؤمنين زينب **بنت جحش** ﵂ زوج النبي عندما سألته: «**يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم.. إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»، وهو حديث صحيح، متفق عليه.

فأما **الظالمون** فقد هلكوا بذنوبهم في الكارثة الطبيعية، ويبعثهم

---

(١) ولعله في هذا العام ٢٠١٧م - وقت انتهاء هذا الكتاب - قد طرق أسماعنا وشاهدنا في القنوات والأخبار عدة أعاصير تتابع في هذه المناطق بالفعل مثل «الإعصار كاتيا» Katia و«هارفي» Harvey و«إيرما» Irma و«خوسيه» Jose. وهو ما تسبب في خسائر فادحة لبعض الدول والتي تخطت ٣٠٠ مليار دولار، لدرجة تعجب متخصصي الأعاصير من تواجد ثلاثة منهم معا في وقت واحد، مثل هذا الخبر علىٰ الرابط التالي:
www.msn.com/en-us/weather/topstories/hurricane-scientists-have-never-seen-an-image-like-this-before/ar-AArtxSw

الله ليحاسبهم ويعذبهم بذنوبهم، وأما الصالحون فهم ضحايا لأولئك الظلمة وما حل عليهم جميعًا بسببهم (تمامًا مثلما يغش أحد مقاولي البناء فينهدم البنيان علىٰ مَن فيه ولا ذنب لهم، فهذا المقاول قد أظهر مكنون نفسه ليؤاخذه الله به وفي رقبته ذنب مقتل هؤلاء) حيث يبعث الله كل أحد علىٰ نيته، وله مثال فيما ذكره النبي ﷺ في حديث الجيش الذي يقصد الكعبة في آخر الزمان وما يصيبه من الخسف الذي يُهلكه في الطريق، إذ عندما سُئل رسول الله ﷺ عن الذين يكونون في الطريق ولا ذنب لهم؟ فأجاب كما جاء في «الصحيحين» عن عائشة ﵂:

«... فقلنا: يا رسول الله.. إن الطريق قد يجمع الناس؟ قال: نعم.. فيهم المُستنصر والمجنون وابن السبيل، فيهلِكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتىٰ، يبعثهم الله ﷿ علىٰ نياتهم».

وفي رواية للبخاري عنها:

«قلتُ: يا رسول الله.. كيف يُخسَف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومَن ليس منهم؟! قال: يُخسف بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثون علىٰ نياتهم».

إذن من جديد..

فإن نظرة الإسلام لما يُسمىٰ بـ (الشر الطبيعي) Natural evil ليست منفصلة عن نظرة الابتلاء الذي قدره الله بحكمته عمومًا في الحياة، بل وكثيرًا ما أشار علماء الإسلام في تفسيرهم للقرآن أو في نصائحهم للأمة إلىٰ كيف أن علىٰ المسلم العظة والعبرة من مثل تلك

المصائب والكوارث علىٰ **اختلاف درجاتها وأنواعها**، وتذكر قدرة الله تعالىٰ علىٰ **إيقاع العذاب والضر إذا شاء بذنوبنا**، وخصوصًا أنه - غالبًا - **لا يمر عام إلا** ويتعرض الناس لبعض **الرسائل التحذيرية** مثل هذه، يقول ﷻ عن الكافرين وعدم اعتبارهم بذلك للأسف:

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٦).

وقد جاء في «تفسير الطَّبَرِيّ» لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء:٥٩) ما نقل عن قتادة قال:

«وإنَّ الله يخوّف الناس بما شاء من آية لعلّهم يعتبرون، أو يذكَّرون، أو يرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت علىٰ عهد ابن مسعود، فقال: يأيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه».

ولذلك كما يُشرع الدعاء للمسلمين في الاستسقاء (أي بنزول الغيث) فإنه يُشرع الدعاء علىٰ الكافرين المحاربين للمسلمين بالقَحْط (أي الجَدب وعدم نزول الغيث ونحوه)، ففي «صحيح البخاري» أنَّ النبيَّ ﷺ دعا في صلاته قائلًا: **«اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك علىٰ مُضَر، اللهم اجعلها سنين كسنيِّ يوسُف»**.

أي كالسبع السنوات العجاف التي مرت علىٰ أهل مصر، فكما أن استجابة الدعاء من الله بنزول الغيث سيكون **بالأسباب الفيزيائية** فكذلك القحط والجدب سيكون **بأسباب فيزيائية**.

أمثلة من القرآن والسُّنَّة:

أما من القرآن:

فيقول تعالىٰ في ربط الطاعة والمعاصي بخيرٍ وشرِ الطبيعة:

- ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل:١١٢).

- ويقول أيضًا:

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ (الجن:١٦).

- ويقول كذلك:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف:٩٦).

- وقال حاكيًا عن نوح عليه السلام قوله لقومه:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ (نوح:١٠ - ١٢).

وأما من السُّنَّة:

فسنقتصر علىٰ حديثٍ واحدٍ بالإضافة إلىٰ ما مَرَّ بنا منذ قليل من الدعاء بالقحط وسنين كسِنِيِّ يوسف عليه السلام نتيجة محاَربة الكفار للمسلمين، حيث يقول رسولنا الكريم ﷺ فيما روىٰ ابن ماجه في «سننه» وحسَّنه الألباني:

«يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ: خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ - وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ -:

- لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ (أي الزنا والشذوذ الجنسي، ونحو ذلك) فِي قوم قط حتىٰ يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوا.

- وَلَمْ يُنْقِصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ (أي القحط والجَدب وفساد الزرع) وَشِدَّةِ المَؤُونَةِ (مِثل الفقر وفساد المعيشة)، وَجَوْرِ (أي ظلم) السُّلْطَانِ عَلَيْهِم.

- وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِم إِلَّا مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

- وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِن غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

- وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُم (أي قتالهم) بَيْنَهُمْ».

ماذا عن الحيوانات؟

كثيرًا ما يتخذ المعترضون علىٰ وجود الشرِّ آلامَ الحيوانات مثالًا غيرَ مُبرر علىٰ المسألة، فيطعنون بها في رحمة الله وعدله، فيقولون مثلًا: ما ذنب غزال وديع يسقط بين حجرين ويظل مكانه لا يدري به أحد حتىٰ يموت جوعًا أو عطشًا!.. وغير ذلك من الأمثلة التي يستدرّون بها عطف السامع لينقلب علىٰ الدين.

والحقيقة أن ما يحدث للحيوانات من عذابٍ لا يخرج عن التأثر بذنوب بني آدم أيضًا، ونحن هنا نتكلم عن التعرض لموتٍ بطيء أو موجع كالغزال المذكور وإلا فالحيوانات تقتل وتفترس بعضها البعض في كل يوم وساعة ولا يوجد عاقل يعترض على هذا، وكذلك يذبح منها الإنسانُ ما يذبح ليأكله يوميًّا، لكن يدور كل ذلك في فلك القتل اللحظيّ أو السريع (نتكلم هنا عن الذبح الإسلامي وليس ما ابتدعه أدعياء الرحمة بالحيوان فعذبوه أكثر)[1].

---

(١) يُسمىٰ الذبح الإسلامي في الخارج بالذبح الحلال Halal Slaughter، وقد تم إجراء عدة أبحاث ودراسات تثبت أنه الأفضل علميًّا، والأرحم بالحيوان بلا منازع، فبالنسبة لطرق قتل الحيوان عن طريق الحقن الهوائية مثلًا: تم إجراء دراسة علىٰ الأرانب أثبتت ارتفاع نسبة إنزيم الانفعال (الأدرينالين) لدىٰ الأرانب بعد الحقن إلىٰ ١٠ أضعاف الذبح الإسلامي، وكذلك ارتفاع نسبة حمض اللاكتيك وإنزيمات الكبد والكالسيوم والجلوكوز في الدم، مما يدل علىٰ شدة المعاناة والألم وإنهاك العضلات، وفي النهاية فإن جودة اللحم قلَّتْ لقلة الجليكوجين نتيجة إنهاك العضلات، عنوان الدراسة ورابطها:

Influence of gas stunning and halal slaughter (no stunning) on rabbits welfare indicators and meat quality.
www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/25089797?_e_pi_=7%2CPAGE_ID10%2C3107492519

وكذلك الصعق بالكهرباء، ففي دراسات علىٰ العجول وجدوا أن وعيها يعود في قرابة نصف دقيقة وقبل الذبح، فتتضاعف آلامها وكأنهم ذبحوها مرتين، عنوان الدراسة ورابطها:

Assessment of Return to Consciousness After Electrical Stunning in Lambs.
www.ingentaconnect.com/content/ufaw/aw/2002/00000011/00000003/art00007

وحتىٰ محاولة تخدير العجول قبل الذبح، ورغم تكلفة ذلك ماديًّا لذلك هو غير منتشر، إلا أنهم وجدوا أيضًا أن موتها يكون في الذبح الإسلامي أسرع من تعريضها=

وقد جمع ابنُ القيم ﷺ مجموعة من أقوال الصحابة والسلف في تلك المسألة في كتابه (الجواب الكافي)، نذكر منها:

- قول أبو هريرة ﷺ: «إنَّ الحُبَارَىٰ (وهي نوعٌ من الطيور) لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا من ظلم الظالم».

- وقول مجاهد ﷺ: «إنَّ البهائمَ تلعنُ عُصَاةَ بني آدم إذا اشتدت السَّنَةُ وأَمْسَكَ المطرُ (أي إذا اشتد القحطُ وقلَّ المطر كما رأينا من القرآن والسُّنَّة منذ قليل) وتقول: هذا بشؤمِ معصيةِ ابن آدم».

- وقول عكرمة ﷺ أيضًا: «دَوَابُّ الأرضِ وهوامها حتىٰ الخنافس والعقارب يقولون: مُنِعْنَا القَطْر (أي الغيث والمطر) بذنوب بني آدم».

وهو أحد أوجه فهم الحديث المروي في «البخاري» و«مسلم» وغيرهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّت عليه جنازة فقال:

«مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ (الواو هنا للتقسيم، بمعنىٰ مُستريح أو مُستراح منه).

قالوا: يا رسول الله ما المُستريح والمُستراح منه!

قال: العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ (أي تَعَبِ) الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلَادُ وَالشَّجَرُ

=للتخدير، عنوان الدراسة ورابطها:

Electroence phalographic studies of stunning and slaughter of sheep and calves: Part 1—The onset of permanent insensibility in sheep during slaughter.
www.sciencedirect.com/science/article/pii/0309174082900316

وَالدَّوَابُّ».

فقد يكون المعنىٰ ما يقوم به الفاجر مِن أذىٰ مباشر للعباد وفي البلاد وللشجر والدواب، أو بما يتسبب فيه من أذىٰ غير مباشر بما يصيبهم من قحط وجَدْبٍ ومثل ذلك مما ذكرناه.

إذن..

عندما يقول لك أحد الملحدين أو الخائضين في **مشكلة الشر** عن طريق الاستشهاد بما يقع **للحيوانات فقُلْ** له بكل بساطة: وما أدراك أن **إلحادَكَ وكُفْرَكَ** الآن ليس سببًا لما يقع لهذه الحيوانات من **ألم ومعاناة!**

والعجيب..

أن من هداية الله تعالىٰ للحيوانات أنْ جَعَلَ حدودَهَا في الافتراس هو **الأكل فقط** وليس التسلي أو التعذيب، فالحيوانات لا تقتل بعضها من غير جنسها إلا للافتراس **لتستمر الحياة**، وكذلك أَمَرَنَا الإسلامُ أيضًا بعدم قتل الحيوان للتسلي واللعب أو التلهي وإنما **للذبح والأكل فقط** (وسوف نستعرض بعض الأحاديث في ذلك في الباب الثاني من الكتاب)، ونحن نرىٰ العجب العُجاب في هذا الأمر من بعض الحيوانات **ذوات الوعي للألم** أو ذوات **الكبد الرطبة** (حتىٰ المفترسة منها)، ففي مقطع شهير في أحد البرامج الوثائقية وعالم الحيوان نجد أنثىٰ **فهد** بعدما قتلت أنثىٰ **قرد** بابون تفاجأ بخروج وليد أُنثىٰ القرد أثناء جرِّهَا لها لتأكلها، وفي لحظتها تتوقف أنثىٰ الفهد وتترك فريستها

لتعتني بالوليد الصغير وتستمر بجواره تحميه ليلًا ونهارًا[1].

والشاهد (فإن مثل هذه المواقف كثيرة جدًّا) أنه حتىٰ في عالم الحيوانات هناك رحمات جعلها الله فيها رغم أنها غير مُكلفة برسالةٍ ولا نبيٍّ، يقول رسولنا الكريم ﷺ في الحديث الذي رواه «البخاري» و«مسلم»:

«جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ، حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

ورغم هذا فالله تعالىٰ خلق الحيوانات لتأكل وتؤكل، خلقها لخدمة الإنسان ولتوازن واستمرار الحياة علىٰ الأرض، خلقها ولم يعِدْهَا بجنةٍ ولا نارٍ حتىٰ نسأله عن آلامها أو عذابها في الدنيا، بل ستصير ترابًا في الآخرة (وعندها يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا)، فالله تعالىٰ هو أعلم وأرحم بها منا، ويكفي من عدله ﷻ ما جاء في الحديث عند الإمام أحمد وصححه الألباني وغيره:

«يَقْتَصُّ الخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ (أي يوم القيامة)، حَتَّىٰ الجَمَّاءَ (أي الشاة التي ليس لها قرون) مِنَ القَرْنَاء (أي التي لها قرون فنطحتها اعتداء عليها)، وَحَتَّىٰ الذَّرَّةَ مِنَ الذَّرَّةَ (كناية عن أنه حتىٰ أصغر شيء سيعدل الله تعالىٰ بينه وبين مَن ظلمه)».

---

(١) لمشاهدة المقطع لمَن يريد: www.youtube.com/watch?v=8d6b3RlfJ-4

إلىٰ هنا ينتهي هذا الفصل..

والآن..

نبدأ معًا استعراض بعض الأقوال المفيدة لمفكرين آخرين غير بلانتنجا لنرىٰ ماذا عندهم يمكن الاستفادة منه.

***

(٤) دُ جَ ج سي إس لويس:

لا شك أنَّ ما قطعناه من شَوْطٍ كَبيرٍ إلىٰ الآن بين أفكار **ألفن بلانتنجا** ونظرة **الإسلام** سوف يختصر علينا كثيرًا مما يناسبنا نقله من أفكار وحُجَج كلٍّ من **سي إس لويس** وويليام **لان** كريج، وخصوصًا عند استبعاد النقاط المتشابهة لعدم التكرار.

لذلك.. سنختار فقط ما تميز به كلٌّ منهما بعد **استبعاد الدفاعات النصرانية** أو المسيحية لمحاولة تبرير الشر فلسفيًّا، وهي الدفاعات التي لها حيز كبير عند **سي إس لويس** باعتبار أنه أقدم من **ألفن بلانتنجا** في الظهور بسنوات (لذلك لم يحضر حُجَج **بلانتنجا** والتي كانت ستخفف عنه كثيرًا من الاعتماد علىٰ دفاعات الخلاص والخطيئة والصَّلب وآلام الإله تكفيرًا عن البشر بتضحيته بابنه الوحيد)! (زعموا).

مشكلة الشرّ وموت الأحباب:

أول ما نبدأ به هنا هو نقل يوضح لنا مدىٰ ثِقَل المصائب النفسية أو العاطفية في ميزان مشكلة الشر عندما يغيب الإيمان للأسف، وعندما تغيب الحكمة من الحياة، ولعلكم تذكرون ما نقلناه في المقدمة

من كلام الفيزيائي الملحد الحائز علىٰ نوبل **ستيفن وينبرج** عن مدىٰ تأثره بمرض **أمه** بالسرطان ووفاتها، وكذلك مرض **أبيه** بالزهايمر الذي دمر حياته، وأيضًا مقتل **ابنَيْ** عمه الثاني والثالث في الهولوكوست.

حسنًا..

الأمر لم يختلف كثيرًا عند **سي إس لويس** نفسه - كما أوضحنا في التعريف به - وكذلك عند شخصٍ ثالث نُفسح له المجال الآن لنقرأ بعضًا مما كتبه في ذلك **(وخاصة مصيبة موت الأحباب)**.. إنه **فيليب فاندر إلست** Philip Vander Elst، وهو كاتب حُرّ ومحاضر قضىٰ ٣٠ عامًا في مجالَي السياسة والصحافة.

فيليب فاندر كتب عن قصة رحلته من الإلحاد إلىٰ الإيمان بعنوان **(مِن الإلحاد إلىٰ المسيحية: رحلة شخصية)** From Atheism to Christianity: a Personal Journey وصف فيها تأثره بأفكار الأعمال الدفاعية لسي **إس لويس** ضد مشكلة الشر خصوصًا[1]، وسوف أنقل هنا مقتطفات مما كتب حيث يقول:

«**أنا كاتبٌ حرٌّ ومحاضرٌ، ومنذ أن تخرجت من جامعة أكسفورد عام ١٩٧٣م في تخصص السياسة والفلسفة وأنا أشتغل بالسياسة والصحافة معظم وقتي. وكم أعشق عالم الكتب الأفكار والحوارات، ولطالما كان يدور في ذهني سؤالان بالتحديد، وكم سعيت لأجد إجابة عنهما: هل يوجد إله؟ وإن كان ذلك كذلك فما هي العلاقة بين**

(1) www.bethinking.org/is-christianity-true/from-atheism-to-christianity-a-personal-journey

الله والحرية؟

نشأتُ وترعرعتُ في أسرة غير مسيحية، وهي وإن كانت أسرة موهوبة إلا أنَّ والدَيَّ لم يكونا مؤمنين، وكنت أعتقد أن التقدم العلمي قد قضىٰ علىٰ فكرة الإيمان بالله والأمور الخارقة، وأنَّ مثلَ هذا الإيمان لهو أمر يتنافىٰ مع مفهوم الحرية، وقد بدا لي الإيمانُ الدينيُّ مثل عبادة عمياء لديكتاتور يحكم الكون وتخلي عن المنطق لصالح «الوحي».. وعلىٰ أية حال كنت أتساءل: هل يجب أن أنظر إلىٰ الدين نظرة جدية؟ وكيف أفعل هذا وأنا أرىٰ العالم يرزح تحت وطأة الشر والألم، مما يفقد المسيحية مصداقيتها في أن العالَم قد خلقه إلهٌ صالحٌ محبٌّ للبشر؟

ولقد تزايدت شُكوكي وتعاظم عدائي للمسيحية بتأثير من كتابات آين راند Ayn Rand وبرتراند راسل Bertrand Russell، وهذا كان حالي وأنا في أكسفورد.. وحين بلغت الرابعة والعشرين تقابلتُ مع زوجتي في المستقبل، وكانت الصدمة حين اكتشفت أنها مؤمنة، فكيف لهذا الجمال وذلك الذكاء أن يكون أحد هؤلاء المؤمنين، وهكذا قررت البحث عن براهين قوية علىٰ وجود الله، وما مدىٰ مصداقية الإيمان، وعلىٰ الرغم من أني كنت واضح من بداية الأمر إلا أني لم أكن أبحث عن إجابات لهذه التساؤلات لمجرد أن تكون علاقتي قوية بفتاتي.

وبدأتُ أقرأُ للكاتب سي إس لويس - والذي أُعْجِبْتُ بقَصَصِهِ

«سجلات نارنيا» في طفولتي - وقد اتخذتُ هذه الخطوة لثلاثة أسباب:

- السبب الأول: أنَّ هذا الكاتب كان فيما سبق ملحدًا، وربما لهذا السبب يستطيع أن يجيب عن أسئلتي وشكوكي.

- والسبب الثاني: كنت أحترم عقلية سي أس لويس، فقد تخرج من جامعة أكسفورد، وحصل علىٰ تقدير امتياز مع مرتبة الشرف في الكلاسيكيات، الفلسفة، واللغة الإنجليزية، وصار من أعظم الأكاديميين البريطانيين في جيله. فإن كان قد نجح في رحلته من الشك إلىٰ الإيمان فربما كنتُ مخطئًا في اعتقادي أن عليك أن تلغي عقلك من أجل الإيمان بالله.

- أما السبب الثالث الذي حفزني علىٰ قراءة كتاباته فهو أنه بالنسبة لقضية الألم لا تستطيع أن تتهمه بالسطحية أو ضحالة الفكر حيث فَقَدَ والدته وهو طفل في العاشرة من عمره، ولم يكن سعيدًا وهو يذهب إلىٰ المدرسة، وعاين ويلات حرب الخنادق حين نشبت الحرب العالمية الأولىٰ، هذا إلىٰ جانب وعيه الشديد بمشكلة الشر..

ومن خلال كتاباته في هذه الأمور استنار عقلي، ولم يَخِبْ ظَنّي فيه، فقد أخذتُ في قراءة أهم ثلاثة كتب له علىٰ الإطلاق وهي: «المسيحية المجردة»، «المعجزات»، وأخيرًا: «مشكلة الألم»، وحينئذ أدركتُ أني لم أتبع شخصًا صارع مع تلك المعضلات التي اتعبتني فقط، بل وجدتُ إجابات عقلانية مقنعة علىٰ كل الشكوك التي راودتني.

سي أس لويس يُلقي الضَّوء علىٰ مشكلة الشر:

حين توفي أبي وأنا في السابعة عشرة من عمري وجدت أن ما كتبه سي أس لويس عن مسألة الشر - بصفة خاصة - يردد ما يجيش في صدري ويجيب علىٰ تساؤلاتي، وقد أشار بحق إلىٰ أننا لا يمكننا أن نشتكي من وجود الشر والألم وأن نأخذ هذا الأمر ذريعة لنشكك في وجود الله وصلاحه، ما لم نكن علىٰ يقين أننا نستخدم معيارًا موضوعيًّا للحكم علىٰ هذا العالم وإدانته، وينبغي أن تكون رؤيتنا للعدالة رؤية واقعية؛ وذلك قبل أن نبرر غضبنا وسخطنا علىٰ ما نراه من شر وألم من حولنا، وإلا.. فبماذا نفسر تلك الشفرة أو البوصلة الأخلاقية التي نشعر بها في داخلنا؟

ووفقًا للرؤية الإلحادية فإن الجنس البشري وتفكيره هو نتاج ثانوي عارض لحركة عشوائية قامت بها مجموعة من الذرات في كون عشوائي وُجِدَ بالصدفة ولا هدف له، فكيف لنا والحال هكذا أن نفهم حقيقة أفكارنا ومشاعرنا ومعناها، بما في ذلك الشعور بتحقيق العدالة؟ وقولهم هذا لا صحة ولا أهمية له، ولا يعدو أن يكون صوتًا فارغًا مثل مرور الرياح بالشجر.

ولكن من جهةٍ أخرىٰ: إن لم نقبل هذه النتيجة وأصررنا علىٰ أنه - مثلًا - حقيقة موضوعية وواجبة أن تحب جارك وألا تسيء معاملة الأطفال فهنا نكون قد ابتعدنا عن الإلحاد، لأن شعورنا الداخلي بوجود قانون أخلاقي موضوعي مكتوب علىٰ صفحات قلوبنا فهذا بدوره

يُشير إلىٰ وجود عقل خيّر أزلي، وهو خالقنا وخالق الكون أيضًا، وهو مَنْ مَنَحَنَا القدرة علىٰ التفكير، وهو مصدر أفضل وأعمق ما فينا مِن قِيَم.

وبعبارة أخرىٰ: يرىٰ لويس أن الإلحاد قد ذَبح نفسه وانتحر فلسفيًّا، ذلك لأنه يسيء إلىٰ المنطق البشري، بما في ذلك الحُجة التالية: إذا كان الكون كله بلا معنىٰ فلم يكن من المفترض أبدًا أن نعرف أنه بلا معنىٰ. وعلىٰ سبيل المثال: إن كان هناك كون بلا نور ومخلوقات بلا أعين ما كُنّا عرفنا شيئًا عن الظلام. وستكون كلمة «الظلام» بلا معنىٰ[1]... وحين نعترف بأن هناك إلهًا يمكننا أن نعقل الوجود البشري، والعالم الذي نسكنه، ونفهم مشكلة الشر».

من أين للملحد التفريق بين الخير والشر؟

إن النقطة الأخيرة التي ذكرها فيليب فاندر من حُجج سي إس لويس هي نقطة عميقة بالفعل، فلقد وصف سي إس لويس من قبل كيف أن سبب إلحاده ورفضه لفكرة وجود الله كان قسوة الحياة، ثم أدرك بعد ذلك أن مشكلة شعوره بالشر نفسه (أي ذلك الشعور والتمييز بين الشر والخير) هو أكثر إشكالًا بالنسبة إليه من إلحاده الجديد نفسه! إذ لمَّا تفكر في الأمر عقليًّا ومنطقيًّا وجد أنَّ مجرد استشعاره وتمييزه للألم يشكل حُجة لصالح إثبات وجود الله:

أفضل من تشكيله حُجة ضد ذلك!

(1) C. S. Lewis, Mere Christianity (1952; Harper Collins: 2001) 38-39.

وإليكم الفقرة الكاملة التي ذكر منها فيليب فاندر هذا الاقتباس الأخير من كلامه، إذ يقول سي إس لويس:

«كانت حُجتي ضد الله أن الكون يبدو في غاية القسوة والظلم، ولكن كيف حصلتُ علىٰ مفهوم «الظلم» و«العدل» هذا؟ فالإنسان لا يصف الخطَّ بأنه منحنٍ إلا إذا كانت لديه فكرة عن الخط المستقيم؛ فبماذا كنت أقارن هذا العالم عندما وصفته بأنه ظالم؟

إذا كان العرض كله سيئًا ولا معنىٰ فيه من الألف إلىٰ الياء - إذا جاز التعبير - فلماذا أنا - الذي من المفترض أني جزءٌ من هذا العرض - أجد نفسي في رد فعل عنيف معارض لذلك؟

الإنسان يشعر بالبلل عندما يقع في الماء، لأن الإنسان ليس حيوانًا مائيًّا، لكن السمك لا يشعر بالبلل بالطبع..

كان يمكنني التخلي عن فكرة العدل التي عندي بالقول أنها لم تكن سوىٰ فكرة خاصة بي، ولكن إذا فعلتُ ذلك لانهارت حُجتي ضد الله أيضًا - فالحُجة تعتمد علىٰ القول بأن العالَم كان ظالمًا حقًا، وليس مجرد أن ذلك لم يحدث لإرضاء رغباتي الخاصة بي، وهذا ما حدث أثناء محاولة إثبات عدم وجود الله -

وبعبارة أخرىٰ: في حين من المفترض أنَّ كل الواقع هو لا معنىٰ له: وجدتُ أنني أُجبِرْتُ علىٰ افتراض أن جزءًا واحدًا من هذا الواقع - وهي فكرتي عن العدل تحديدًا - كان له معنىٰ!

وبالتالي اتضح لي مدىٰ سذاجة الإلحاد، إذ لو كان الكونُ كله بلا

معنىٰ فلم يكن من المفترض أبدًا أن نعرف أنه بلا معنىٰ.

وعلىٰ سبيل المثال: إن كان هناك كون بلا نور ومخلوقات بلا أعين ما كُنّا عرفنا شيئًا عن الظلام.. وستكون كلمة «الظلام» بلا معنًىٰ»[1].

مشكلة الشر حُجَّة للمؤمنين:

مما سبق يتبين لنا أن إثارة الملحد لمشكلة الشر بغرض إحراج المؤمن في أي حوارٍ أو مناظرةٍ لإثارة العاطفة ضد الله هي في الحقيقة فرصة لا تُعَوَّض لإحراج الملحد ومنهجه المادي في الحياة، وهو غالبًا ما لا يكون في حَيِّز توقعه أو يملك حتىٰ الرد عليه، وذلك لأنه يتوقع غالبًا دفاعًا مستميتًا من المؤمن لإقناع الحضور أو المشاهدين بصفات جمال وجلال الله ورحمته وعدله وحكمته.. إلخ، ولا يتوقع أبدًا أن يقوم المؤمن (وبكل هدوء) بقلب السِّحْر علىٰ الساحر واستخدام نفس السلاح الإلحادي بتوجيهه إلىٰ صدر صاحبه في مقتل.

وهذا ما صِرْتُ أفعله (عن نفسي) في السنوات والأخيرة وأثبتَّ نجاحًا باهرًا علىٰ الدوام، فإما أن يصاب الملحد بالذهول وعدم القدرة علىٰ الرد لينتقل الحوار إلىٰ نقاط أخرىٰ، وإما أن يبدأ في التهرب المكشوف (وهذا في حد ذاته أيضًا انتصار لأن تهربه يكون واضحًا جدًّا للآخرين)، وإما أن يبدأ في الشتم والسباب الذي يُعجِّل بإنهاء الحوار أو المناظرة حتىٰ لا يُفتَضَح أمره أكثر (حيث يكون من

---

(١) المرجع السابق.

شروط الحوار أو المناظرة عدم الشتم أو السبّ فيلجأ إلىٰ ذلك لإنهاء الأمر قسرًا).

والأمر بسيط ويسير بالخطوات التالية لمَن أراد أن يعرف:

أولًا:

يبدأ الملحد بسرد قليل أو كثير من مآسي العالم والحياة ومعاناة الملايين أو الأفراد والأمراض والحيوانات.. إلخ، وذلك في أسلوبِ استجداءٍ **عاطفيٍّ** محفوظٍ ومعروفٍ للتأثير علىٰ الحاضرين أو المشاهدين متهمًا الله بالظلم والقسوة إذا وُجد.

ثانيًا:

يترك المؤمن الانسياق خلف هذا الفخ، ويركِّزُ علىٰ شيءٍ واحد فقط هو: مِنْ أين لك يا ملحد وبمنهجك ونظرتك المادية في الحياة **أن تفرق بين الظلم والعدل**؟ بين الخير والشر؟

ثالثًا:

سيحاول الملحد (إذا فهم ما هو مُقبلٌ عليه من **ورطة حقيقية**) أن يتهرب مِنْ ذلك باتهام المؤمن بأنه هو الذي يتهرب من الردّ علىٰ سؤاله.

رابعًا:

يُصِرُّ المؤمن علىٰ أنه لم يتهرب، لكنه لا يحب تجاوز التفاصيل **غير المنطقية** من دون أن يتوقف عندها، أو كما يُقال في باب الحجاج والمناظرة: «**ثبِّت العرش ثم انقش**»، فلا يصح أن نمضيَ في شيءٍ هو

خطأ من أوله، والسؤال هنا: مِنْ أَيْنَ لك - كملحدٍ أصلًا - التفريق بين الظلم والعدل؟ وبين الخير والشر؟

لأني كمؤمن: لا أرىٰ كل شيء في الكون إلا علىٰ سبيل **الحكمة والخير الإلهي**، في حين أنت ترىٰ **شرًّا لا تفسير له**، والآن: كيف تريدني أن أدافع عن شرٍّ لا تفسير له إذا كنت أنت **عاجز** عن تفسير وجوده أصلًا! فمَثَلِي ومَثَلُكَ - في تلك الحالة - كمَن يسألني: لماذا **سانتا كلوز** Santa Claus تجرُّ الغزلان عربته بدلًا من الكلاب؟ في حين لا أنا ولا هو نؤمن بوجوده أصلًا! فكذلك الوضع هنا: أنا لا أؤمن بوجود **شر لا تفسير له**، وأريد قبل أن أجيب سؤالك أن أتأكد من **وجوده عندك** حتىٰ لا نضيِّع وقتنا في الحديث عن شيءٍ لا وجود له عندنا!

والآن نرجع إلىٰ السؤال:

ما دليل وجود الشر عندك بأي وجهٍ كان (سواء كان له تفسير أو ليس له تفسير)؟ كيف ميزتَ بينه وبين الخير؟ بين الظلم والعدل؟ بل حتىٰ بين الصواب والخطأ؟

خامسًا:

الملحد يحاول جاهدًا التفكير في مخرج بأي حُجَّةٍ مهما كانت باهتة، ويا حبذا لو بطريقة استعراضية لحفظ ماء الوجه مثل توجيهه الكلام للمؤمن قائلًا:

هذا تهربٌ واضحٌ منك، أنت لا تستطيع الدفاع عن إلهك لذلك تلجأ إلىٰ هذه التشغيبات.

سادسًا:

هنا يسدل المؤمن الستار على هذا الفصل برمته بأن يكشف للملحد (إن كان لا يعرف) ويكشف للحاضرين أو المشاهدين كذلك: **لماذا لا يستطيع الملحد الإجابة فيقول:**

الذي يتهرب هنا بشكلٍ واضح هو أنت، أنا أستطيع الدفاع عن حكمة الله والدين في وجود شر في العالم، ولكني أردتُ أن أوضح لك وللجميع أن سؤالك في حَدِّ ذَاتِهِ **يهدمُ إلحادَكَ من الأساس**، وإليك وإليكم البيان:

الإلحاد يقوم على فكرة **المادية** في الحياة، فلا روح، ولا غاية، ولا هدف، ولا ثواب، ولا عقاب بعد الموت.. الإلحاد ينظر إلى الإنسان والحيوان على أنهما مثل كل جماد آخر من حولنا وفي الكون: **ما هم إلا ذرات مادية تتفاعل**، تجتمع وتفترق بلا أي غاية ولا معنى ولا قيمة.. فإذا أردنا الحديث عن **الذرات** أكثر لقلنا: أنها تتبع **قوانين محددة**، و**تفاعلات حتمية** تقع إذا توفرت ظروفها، فتفاعل الحمض + القاعدة مثلًا سيعطي دومًا في نفس الظروف: ملح + ماء (مثلًا حمض الهيدروكلوريك + هيدروكسيد الصوديوم يعطي كلوريد الصوديوم + ماء).

العجيب هنا: أنك لن تستطيع وصف تفاعل بأنه **صواب** وآخر بأنه **خطأ**! فأي تفاعل بين الذرات **طالما تم بالفعل** فقد تم بحتمية لا يضادها شيء.. لا توجد ذرات ستعتذر عن التفاعل اليوم.. أو تقول إن

الذرات الأخرىٰ لا تعجبها ولن تتفاعل معها، بل كل الذرات تتفاعل في حتمية طالما توافرت ظروف تفاعلها، ومهما تكررت تلك الظروف مليارات مليارات المرات فلن تتغير نتيجة التفاعل واتجاه سيره أبدًا..

والسؤال: إذا كان كل شيء في الكون (حسب مادية الإلحاد) يسير بهذه الصورة فمِنْ أينَ أتىٰ مفهوم الظلم أو العدل؟ الصواب أو الخطأ؟ الخير أو الشر؟

كيف لنا أن نصفَ فعلًا أو تفاعلًا حتىٰ بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي؟!

بل كيف نفسر ظهور حرية الإرادة أصلًا والتي يريد الملحد أن يحاسب الناس عليها واختياراتهم؟

إذن..

مجرد صدور مثل هذه الأسئلة من ملحدٍ هي تهدم إلحاده في ثوانٍ بصورة تلقائية أو ذاتية النقض.

إذ لا يمكن أن يوجد معنىٰ لكل ما ذكرناه الآن إلا إذا كانت تلك المعاني مغروسة فينا بالفطرة.. مغروسة فينا من وجود أعظم وأعلىٰ مستقل هو وحده واهب المعنىٰ والتفريق بين الخير والشر:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٧ – ٩).

إذ لو كان الكون كله خيرًا لَمَا عرفنا معنىٰ الشرّ، وإذا كان الكون كله شر لما عرفنا معنىٰ الخير (مثال الخط المستقيم والمنحني،

والإنسان والسمكة لسي إس لويس)، فمن أين يأتي المُلْحِدُ بمرجعيته التي يريد أن يحاكم المؤمنين إليها؟

وهنا سيصيب الملحد الخرس..

ولن يستطيع الرد.

* * *



(٥) ويليام لان كريج:

يشترك ويليام لان كريج مع ألفن بلانتنجا في تخصص الفلسفة التحليلية Analytic philosophy، والذي يتميز بالترتيب المنطقي للحُجج أو الردود في شكل نقاط متسلسلة، لكن تظهر على ويليام لان كريج علامات التأثر بالفكر الإسلامي أكثر في بعض أفكاره، وقد تبنى فكرة بلانتنجا في دفاع الإرادة الحرة لتفسير مشكلة الشر فلسفيًا وإظهار عدم تعارض وجود إله ديني كامل مع وجود الشر.

لكن هناك نقطة مشتركة أخرى بينهما لم نبرزها عند حديثنا عن ألفن بلانتنجا، حيث فضلنا تأخيرها إلى هذه اللحظة ألا وهي مهارة نقض المنهج المادي Materialism، ليس فقط من جهة إظهار عدميته في باب الخير والشر والأخلاق (ولويليام لان كريج مناظرات في ذلك من أشهرها مناظرته مع الملحد سام هاريس)[1]، وإنما كذلك مهارة استخدام إقرارات وإلزامات المنهج المادي نفسه في التطور Evolution الصدفي العشوائي لبيان كيف أن الأصل في العالم هو الشر إذا صح

---

(١) تمت ترجمة المناظرة في كتاب (الإلحاد بين قصورين) من إصدارات مركز دلائل ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

التطـور، وأن محاولـة التمـرد علـىٰ ذلـك بادعـاء معنـىٰ مخـالف (**أي الخير**) هو شيء مناقض لذلك الأصل المادي!

المنهج المادي والتطور يُعَمِّمان الشر:

ولكي نفهم موقف ويليام **لان كريج** هنا، فهو مبنيٌّ علىٰ فكرة واضحة أظهرها **ألفن بلانتنجا**[1] تتمثل في:

اعتماد الاعتراض الإلحادي بالنسبة لوجود الشر في العالم علىٰ افتراض **مُسبق** لدىٰ الملحد في أن البشر **لا ينبغي أن يتألموا أو ينبذوا أو يموتوا جوعًا أو ظلمًا**، لكن الصادم هنا (للملحد بالطبع) هو أن آلية **الانتخاب الطبيعي** التطورية نفسها The Evolutionary Mechanism of Natural Selection تعتمد بصورة أساسية علىٰ **القتل والإفناء والعنف** من جانب القويّ تجاه الضعيف! بل ويعد هذا الأمر - وفقًا لمنهج الإلحاد المادي والتطور - **طبيعيًّا تمامًا**، وهنا المفارقة والسؤال:

علىٰ أي أساس يحكم الملحد علىٰ الواقع في عالمنا الطبيعي بأنه **ظالم** أو **مُجحِف** أو **غير عادل** علىٰ نحوٍ لا ينبغي له أن يكون عليه؟

إنَّ حُكمَ الملحد هنا لا يُترجم إلا لجوءه إلىٰ **شيء** (أو جهة ما) **غير طبيعية** (أو فوق طبيعية، أو ما وراء الطبيعة) ليستمد منها مثل هذا **الاعتراض علىٰ الطبيعة!**

فاعتراضه علىٰ وجود الشر هو نفسه تمردٌ علىٰ الطبيعة التي (من المفترض) أنه **ينتمي إليها ولا يعرف إلا مفرزاتها** (والتي لا تشجع إلا

---

(1) Avlin Plantinga, "A Christian Life Party Lived," Philosophers Who Believe, ed..Kelly James Clark (IVP,1993), p.73.

الشر والظلم والألم كآلية للتطور أو النشوء والارتقاء)!

لا يمكن للملحد طلب العدل في مقابل الظلم مثلًا إلا إذا كان لديه مسبقًا مصدرٌ يوجب على المخلوقات كيف تعيش ليحتكم إليه وعليه يقيس، ومن هنا: فلا يوجد أي منهج أو فكر إلحادي أو لاديني عمومًا فيه مثل هذا الوجوب أو الإلزام المُسبق، فحيث لا خالق لا يوجد افعل ولا تفعل.

كل شيء سيصير نسبيًا حسب حاجة كل فرد لضمان بقائه ولو على حساب ظلم أو هلاك الآخرين (وهذا مطعن آخر في كيفية ظهور أخلاقيات التضحية والإيثار من رحم التطور، لكنه ليس مبحثنا ها هنا).

رأي ويليام لان كريج في مشكلة الشر:

بالعودة إلى ويليام لان كريج نجده تحدث في مقالة مطولة عن مشكلة الشر[1] يمكن تلخيص أهم ما جاء فيها فيما يلي:

المقالة تتعرض للحُجة المنطقية Logical (وهي قولهم أن وجود الشر يتعارض مع وجود إله ديني كامل) والاحتمالية Probabilistic (والتي اخترعوها بعد سقوط الحُجة المنطقية فقالوا أن هناك شر كثير غير مبرر يطعن في وجود إله ديني كامل) وكما مر معنا في حديثنا عن ألفن بلانتنجا.

قام ويليام لان كريج بتقسيم الرد على مشكلة الشر عمومًا إلى رد

(1) www.reasonablefaith.org/the-problem-of-evil

من **الناحية الفكرية** Intellectual (وهي تشمل الحُجتين الفلسفيتين السابقتين وبيان كيف يمكن وجود إله ديني كامل مع الشر)، ورد من **الناحية العاطفية** Emotional (وهي تشمل الاعتراضات النفسية من المؤمن تجاه وجود الألم والمعاناة في العالم تحت سمع وبصر الإله).

ستتعرض هنا لردود **ويليام لان كريج** من الناحية **الفكرية فقط**، وسنتجنب الردود التي هي من الناحية **العاطفية** لأنها كلها قائمة علىٰ العقيدة النصرانية أو المسيحية المُحرفة (**مثله مثل سي إس لويس**) في زعم معاناة الإله وتألمه (ومعلوم نفسيًّا أن الإنسان إذا وجد مَن يتألم أو يعاني مثله أو أكثر منه فإن ذلك يُخفف مُصابه، وهذا هو الأسلوب الذي اتبعوه هنا)، وذلك رغم اختلاف الكثير من اللاهوتيين فيما إذا كان ألم الإله المزعوم هذا حقيقيًّا أم مجازيًّا.

أيضًا يُقر **ويليام لان كريج** بأن الحُجة المنطقية لمشكلة الشر تم حلها علىٰ يد الفلاسفة، (**ولعله يشير بذلك إلىٰ ألفن بلانتنجا وموافقة الكثيرين علىٰ انتصاره فيها**)، حيث أظهر بكل وضوح كيف يمكن أن يوجد سبب منطقي للخالق في سماحه للشر بالوجود (**وهو حرية الإرادة**) من دون أن يطعن ذلك في خيريته أو علمه أو قدرته (أو ألوهيته الكاملة كما في الأديان). ومن ثم يقول **ويليام لان كريج** إن المسألة الأحق بالتتبع الآن هي الحُجَّة الثانية أي **الحُجة الاحتمالية** بخصوص كمية الشر وخاصة غير المُبرر عندهم والتي تطعن في وجود مثل هذا الإله، ومن هنا حاول تلخيص الرد كما يلي:

أولًا: معلوم أن عقل الإنسان **محدود** وكذلك قدراته، فكيف لمخلوق محدود مثله أن **يحيط بحكمة الله ومراده أو غايته** من وجود الشر علىٰ الصورة التي عليها؟

وقد ضرب **ويليام لان كريج** لذلك مثالًا بأنه في الوقت الذي يعجز فيه أغلب الناس عن الوقوف أمام فعل هامشي صغير مثل **ضربات جناحي فراشة**، فإنه وفقًا **لنظرية الفوضىٰ** فإن تلك الضربات للفراشة علىٰ فرع شجرة في غرب إفريقيا يمكن بعد سلسلة من التأثيرات المُضاعفة أن تسبب **إعصارًا في المحيط الأطلسي!**

إذن.. نحن لسنا في وضع يتيح لنا **تقييم أحداث العالم**، فرُبَّ قتلٍ وحشيٍ لرجلٍ بريء أو موت طفل بسرطان الدم تنتج عنه **آثار كبيرة** بعد سنوات، بل ربما قرون، وربما في أماكن أخرىٰ من العالم.. هكذا هو تعقيد الحياة أمام قدراتنا المحدودة.

ثانيًا: هناك بعض **العقائد الإيمانية** التي تعزز وجود مثل هذه الشرور في العالم (مع) وجود الإله الديني الكامل، ومن هذه العقائد مثلًا:

١ - الإيمان بأن الهدف الأساسي من الدنيا ليس أن نعيش فيها **سعداء**، فنحن لسنا هنا **الحيوانات المُدللة لله**، لكن الهدف هو **معرفة الله** The knowledge of God، وبتلك المعرفة يتمكن البشر من الوصول إلىٰ **كمالهم في العالم الآخَر**، وبذلك فإنَّ كثيرًا من الشرِّ غير المُبرر في نظرهم في الدنيا هو بالفعل لا يتوافق مع الذين **ينظرون للدنيا**

علىٰ أنها للسعادة، لكنه يتوافق مع الذين ينظرون إليها علىٰ أنها لمعرفة الله، فإن تلك المعاناة تزيدهم تعلقًا وتقربًا منه، وتقوِّي من صبرهم وثقتهم به، سواء من المتألم نفسه أو الموجودين من حوله، وبذلك يظهر الفرق بينهم وبين مَن يقابل ذلك بالغضب والتسخط من الله.

٢- غضب عدد من الناس علىٰ الله وغايته من ظهور الشر بدلًا من عبادته وطاعته يدفعهم إلىٰ الابتعاد عنه أكثر والانغماس في الذنوب والمعاصي والكفر، وبذلك يقع الشر البشري الذي يعيبون عليه في حين يترتب الشر بالابتعاد عن الله، وهكذا لا يتدخل الخالق ليمنع الشر تمامًا من الظهور، وإنما يتركه لتتضاعف المسؤولية الأخلاقية للناس أمام خالقهم، ويعرفون الحاجة إلىٰ المغفرة والتوبة منه.

٣- مهما كان حجم المعاناة في الدنيا والألم فإنه لا يساوي شيئًا بجوار ما أعدَّه اللهُ للمؤمنين به في العالم الآخَر[1]؛ لذلك لا تصح المقارنة أصلًا مهما كان حجم الشر في الدنيا ولا يُقدح في كمال الله.

٤- معرفة الله هي أسمىٰ نعمة يمكن أن يحوزَها إنسان، ولإظهار هؤلاء الذين فاضت قلوبهم بتلك النعمة فإن الشرَّ والمعاناة في العالم تبرهن أنهم مهما تعرضوا لها فإنَّ محبتهم وتعظيمهم لله لا تتغير، وفي

---

(١) يذكرنا ذلك بحديث النبي ﷺ في صحيح مسلم عندما قال في شقه الثاني: «... ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبَغُ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مَرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مَرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شِدَّةً قَط!».

ذلك إثبات عملي لتفوق محبة الله وتعظيمه علىٰ كل شيءٍ مهما كان.

ثالثًا: بالنظر إلىٰ **مجموع نطاقات الأدلة واحتمالاتها، فإن** وجود الإله الديني الكامل هو الراجح، ولنعطي مثالًا: لنفترض أن الطالب جو Joe هو من ضمن طلبة جامعة كولورادو، وأنه جاءتنا معلومة بأن ٩٥٪ من طلاب الجامعة **يتزلجون**، هنا نجد أن احتمالية كون جو Joe يتزلج كبيرة، لكن ماذا لو تم إعلامنا أيضًا بأن جو Joe **مبتور الأطراف**، وأن ٩٥٪ من المبتورين في جامعة كولورادو **لا يتزلجون**، هنا نجد أن نسبة تزلج جو Joe ستنخفض فجأة، وهكذا أيضًا الحديث عن وجود الإله الديني الكامل؛ إذا نظرت إليه في نطاق احتمال واحد - كما يريد الملحد - وهو الشر غير المبرر في نظره فإن الاحتمالية تكون صغيرة بهذا الاعتبار وحده، ولكن إذا تداخل **معه نطاق أدلة أخرىٰ** - وهي أدلة وجود الله - **فإن الأمرَ يتغير**، وبذلك نرىٰ أنَّ العبرةَ هي النظر إلىٰ **الأدلة الإجمالية**، وهو ما يمكن ذكر بعضها فيما يلي:

١ - وجود الله يعد التفسير الوحيد للتساؤل عن: **لماذا يوجد الكون بدلًا من لا شيء**؟ فتقريرات العلماء طيلة **الثمانين عامًا الماضية** لصالح نظرية **الانفجار الكبير**، والتي ظهر فيها الكون من لا شيء، وهنا وقفة عقلية ومنطقية: لماذا ظهر الكونُ في هذا الوقت تحديدًا من قُرابة ١٣.٥ مليار سنة؟ إنه أمر **مُحرج للملحدين واللا أدريين** الذين جاءت ردودهم ضعيفة بشكل ملحوظ، وقد اعترف بذلك الفيلسوف الملحد **كوانتين سميث** Quentin Smith، ومما ذكره في ذلك قول

أنتوني كيني Anthony Kenny: «إن مؤيد نظرية الانفجار الكبير على الأقل إذا كان ملحدًا، فإن عليه الاعتقاد بأن مادة الكون جاءت من لا شيء ولكن بواسطة شيء»!

٢- وكذلك وجود الله يعد التفسير الأفضل لمسألة الضبط الدقيق في الكون عن طريق ثوابت القوانين التي تم اكتشافها خلال الأربعين سنة الأخيرة، وهو ما جعل احتمالية ظهور كون يلائم ظهور الحياة على الأرض هو احتمال ضئيل للغاية لا يمكن تخيله صدفة أو عشوائية، نتحدث هنا عن قيم مثل قوة الجاذبية أو القوة النووية الضعيفة لو تغيرت بمقدار واحد فقط من ١٠ مرفوعة للأس ١٠٠ (أي واحد أمامه ١٠٠ صفر)[1] لم يكن الكون ليسمح بالحياة، فمثلًا ثابت التسارع الكوني (لامدا λ)، أو الثابت الكوني Cosmological constant لو تغير بمقدار واحد فقط من ١٠ مرفوعة للأس ١٢٠ لم يكن ليتوسع الكون بالصورة التي صار عليها الآن، الفيزيائي الشهير من جامعة أكسفورد روجر بنروز Roger Penrose حاول حساب الاحتمالات للقوانين الكونية العشوائية التي تتيح في النهاية الحياة على الأرض فوجدها بدقة ١٠ مرفوعة للأس ١٠ مرفوعة للأس ١٢٣، وهذه نسبة احتمالية ودقة مذهلة جدًّا، يعلق هو نفسه عليها (رغم أنه لاديني)

---

(١) في الرياضيات إذا أردنا ان نعبِّر عن ضرب عدد في نفسه أكثر من مرة (مثلًا: ١٠×١٠×١٠) يمكننا كتابته اختصارًا في شكل أساس (وهو ١٠ هنا) مرفوعًا إلى أس (وهو ٣ مرات)، ويُكتب هكذا: 10^3.

فيقول: «لا أستطيع تذكر أي شيء في الفيزياء تقترب دقته ولو من بعيد من قيمة واحد إلىٰ ١٠ أس ١٠ أس ١٢٣»، ويقول أيضًا: «هناك الكثير من القيم والثوابت التي يجب أن تُضبط بدقة لتتوافر الحياة في الكون، بل وليس ضبط أحدها منفردًا، بل علاقاتها ونسبتها مع بعضها البعض يجب أن تُضبط أيضًا بعناية، وهذا يعطي حاصل ضرب أرقام لاحتمالية في أرقام لاحتمالية في أرقام لاحتمالية إلىٰ أن تترنح عقولنا في أرقام غير ممكنة». فهو يرىٰ أن العلامات صارت أكثر وضوحًا للابتعاد عن الصدفة والعشوائية إذ يقول: «من خلال عملي العلمي أصبحتُ أعتقد أكثر وأكثر قوة بأن الكون الفيزيائي قد تمَّ وضعه مع براعة مذهلة لدرجة أنني لا يمكن قَبوله علىٰ أنه مجرد حقيقة عمياء».

وبالمثل عالم الفلك والرياضيات اللاديني الشهير فريد هويل Fred Hoyle يقول: «تفسير الحسّ السليم للوقائع يشير إلىٰ أنَّ فكرا خارقا تداخل مع الفيزياء».

كل ما سبق يمكن صياغته بصورة أوضح بعيدًا عن التهرب أو العناد اللاديني، حيث يصفه روبرت جاسترو Robert Jastrow – الرئيس السابق لمعهد جودارد لدراسات الفضاء التابع لناسا – بأنه الدليل الأقوىٰ علىٰ وجود الله الذي يمكن استخراجه من العلم.

٣- وآخر الأمثلة علىٰ أدلة ضرورة وجود الله هنا هو وجود قيم أخلاقية موضوعية في العالم:

إذ أنه بدون إله (كمرجعية ثابتة ووحيدة) لم يكن لأحد أن يُثبت

أفضلية أي خُلُق أو بشاعة أي جريمة بالمقياس المادي، فالاغتصاب قد يكون بشعًا عند البعض اجتماعيًّا، في حين يكون مقبولًا عند آخرين حسب حاجتهم ورؤيتهم لضروريات حياتهم، وهكذا..

فيلسوف العلوم البيولوجية الملحد **مايكل روز** Michael Ruse يقرر أنه (بنظرتهم المادية والإلحادية) لا تتعدىٰ الأخلاق كونها **(تكيفًا)** للبقاء، مثلها مثل أي عضو يتطور ويتكيف كاليدين أو القدمين، ويقول: إن تصور أي معنىٰ أعمق من ذلك للأخلاق هو مجرد وهم!

وها هو أشهر ملحد في القرن الـ ١٩ **فريدريش نيتشه** Friedrich Nietzsche بعدما أعلن عن عصر الإلحاد الشيوعي بـ**(موت الإله)** فهم من ذلك بنفسه **موت أي معنىٰ أو قيمة موضوعية في الحياة معه** (لأنه لم يعد هناك مرجعية واحدة ثابتة للتقييم أو الحُكم)!

وهنا يبين **ويليام لان كريج** ابتعاده عن الأسئلة التقليدية من الملحدين مثل: **هل تقول أنه يجب الإيمان بالله لكي نعيش حياة أخلاقية؟** أو: **هل يمكن الإيمان بقيم أخلاقية موضوعية بدون أن نكون مؤمنين بالله؟** فيوضح **ويليام لان كريج** أن السؤال الذي يريد التركيز عليه وإبرازه هنا هو: **إذا كان الله غير موجود فهل ستكون القيم الأخلاقية الموضوعية موجودة؟**

ولكي نتصور الإجابة: ننظر إلىٰ رؤية الملحدين إلىٰ الإنسان الذي من المفترض يصدر حُكمًا علىٰ خُلُقٍ ما أنه جيد أو سيء، فهذا الإنسان في المنهج المادي الإلحادي لا يعدو كونه عرضًا جانبيًا ناشئًا

من أعراض الطبيعة العشوائية، مثله مثل أي جماد أو نبات أو حيوان نشأ عنها، لا يوجد لديه أي معنىٰ موضوعي أو مطلق يعوَّل عليه، وإنما هو هباء علىٰ كوكب لا وزن له في غبار الكون، وسيختفي وينتهي فردًا أو جماعات إن عاجلًا أو آجلًا...

فهل هذا هو الذي سيكون له حُكم بقيمة أخلاقية موضوعية أو مطلقة؟ وعلىٰ أي أساس ثابت أو مرجعية سيكتسب هذه الموضوعية أو هذا الإطلاق؟ والآن إلىٰ المفارقة وهي: أننا جميعًا نشعر من داخلنا بأن القيمَ الأخلاقية الموضوعية موجودة بالفعل[1]، وبذلك فإنَّ مجردَ الشعور بالشر وتمييزه هو دليل علىٰ حتمية وجود الله.

هذه بعض الأدلة القليلة التي تيسر ذكرها.. في حين جمع الفيلسوف البارز ألفن بلانتنجا مثلًا دستتين أو أكثر من الأدلة والحُجج علىٰ وجود الله، وهو الشيء الذي يُمثل مع تراكم نطاقاته كما قلنا رجحان احتمالية وجود الله عن أي حُجة منفردة.

وبذلك نرىٰ ونحكم بأن مشكلة الشر الفكرية فشلت في إنكار وجود الله.

***

---

(١) يمكننا إثبات بعض الأخلاق التي يتفق عليها البشر بإطلاق عن طريق سؤال الملحد عن خُلُقٍ مثل الكذب عليه أو قتله أو سرقته أو خيانته مثلًا (أي الأخلاق التي تُوقع ضررًا مباشرًا عليه ويرفضها كل إنسان بالفطرة)، فساعتها سينطق بالحق.

إلىٰ هنا وصلنا إلىٰ نهاية الباب الأول

ولكن قبل أن نتركه أود الختام بهذه المقولة من كلام ويليام لان كريج[1] والتي لا تعد دليلًا ولا حُجة في حد ذاتها، ولكنها بيانٌ عاطفيٌّ يترجم لنا مكنون الشر عند بعض الملاحدة إذا أُتيحت له فرصة الظهور عند انسلاخه من كينونته كإنسان إلىٰ أحط من الحيوان:

«... إذا كان الله غير موجود وليس هناك خلود إذن كل أعمال شر البشر ستذهب دون عقاب، وكل تضحيات البشر الصالحين ستذهب دون ثواب.. مَن الذي يمكنه التعايش مع ذلك؟ يقول ريتشارد فيرمبراند Richard Wurmbrand الذي تعرض للتعذيب في السجون الشيوعية بسبب إيمانه:

«من الصعب تصديق إلىٰ أي مدىٰ تصل قسوة الإلحاد عندما لا يوجد أي إيمان عند الإنسان بوجود ثواب علىٰ أفعاله الصالحة أو عقاب علىٰ السيئة، فساعتها لا يوجد سبب لتكون إنسانًا.. لا يوجد حاجز للشر العميق الذي يمكن أن يكون في الإنسان.. الشيوعيون الذين يعذبوننا كثيرًا ما قالوا: «لا يوجد إله، لا الآن ولا بعد الموت، ولا عقاب للشر. يمكننا أن نفعل ما نريد». حتىٰ لقد سمعت أحد المُعذِبين يقول: «أشكر الله الذي لا أعتقد في وجوده، أنني عشت إلىٰ هذه الساعة التي أستطيع التعبير فيها عن كل الشر الذي في قلبي»!

لقد أظهر ذلك في وحشية لا تصدق في تعذيبه للسجناء».

* * *

---

(1) www.reasonablefaith.org/the-absurdity-of-life-without-god

الباب الثاني:

أُسسٌ غائبة



أُسسٌ غائبةٌ ...

لقد ذكرنا في مقدمة الكتاب كيف أنَّ أكثرَ المجهودات التي تناولت مسألة **الإلحاد** في عالمنا العربي والإسلامي إلىٰ الآن كان التركيزُ الأكبر فيها علىٰ المسلمين **ضعاف الإيمان أو العلم الشرعي** في الأصل، بل إن شئت قل إن معرفة أكثرهم بالقرآن أو بالرسول محمد ﷺ أو بالشرع والأحكام هي مثل معرفة **الغريب الأجنبي** البعيد أو **النصراني** تمامًا بتمام!

ومن هنا أشرتُ إلىٰ أنه قد حان الوقت لننظر في مسألة أخرىٰ موازية وخطيرة ألا وهي بعض **المسلمين الملتزمين** (أو الذين كانوا ملتزمين) ثم انحرفوا ليقعوا في مستنقع **الشبهات والتشكك** في وجود الله، أو **الكفر**، أو **الإلحاد الصريح** نتيجة **مشكلة الشر**، ويأتي وصفنا لها بالخطيرة هنا لأسباب، هي:

* **أولًا**: دلالتها علىٰ **ضعف البناء الديني الذي نربي عليه أبناءنا**، إذ رغم كون الشخص ملتزمًا إلا أن هناك خلل في تأسيسه المعرفي الديني، مما يمثل علامة تنبيه كبيرة للشيوخ والدعاة والمُربين والأسرة في هذا المجال.

* **ثانيًا:** الأثر السيء الذي يتركه خبر انحراف **شخصٍ** كان يراه عامة **المسلمين ملتزمًا**، كيف لا وأمثاله هم قدوة في أعينهم يمثلون لهم قمة الأخذ بالدين واتباعه وتذوق ثمرته، **فهل** ثمرة الإيمان هي الانحراف أو الإلحاد؟

وبالنظر إلىٰ مشاكل انحراف أو إلحاد مثل هذه النوعية فقد لا تتوقف عند سببٍ **واحدٍ** للشخص، بل غالبًا ما تتضافر **مجموعةٌ** من **الأسباب المختلطة** فتجتمع وتتراكم بمرور الوقت، وربما منذ الصغر، إلىٰ أن تأتي اللحظة المناسبة لتنفجر في صورة انحراف أو إلحاد.

فقد تتراكم لديه بعض مؤثرات الظروف الأسرية مثل **فقدان** أحد الوالدين أو كليهما، أو **طلاق** وانفصال، أو تربية **قاسية**، أو **فساد** أحد الوالدين أو كليهما، أو **فساد** الزوج أو الزوجة، أو **صدمته** الحياتية عندما تنهدم **مثاليته** الخيالية لعالم بلا شرور مع ما يراه في الواقع أو علىٰ الشاشات من آلام ومآسٍ ومعاناة سواء له أو لغيره.

لذلك...

سوف نركز في هذا الباب الثاني من الكتاب علىٰ استعراض أكثر المسائل التي قابلتني من خلال احتكاكي بمثل هؤلاء الشباب ممن كان ملتزمًا ثم تشكك، والتي تلخص لنا - للأسف - عددًا كبيرًا من **(الأسس الغائبة)** التي قد لا ننتبه إليها في تعليمنا أبنائنا الالتزام وحفظ القرآن.

مع ملاحظة أن بعض **(الملتزمين)** الذين أعنيهم هنا أغلبهم

ملتزمين **ظاهرًا** بحسب فهمهم ورؤيتهم الخاصة، لم يتشرب أكثرهم الالتزام عن طريق العلم اللازم أو الفهم الكافي أو عمق الممارسة والمحبة لله، فالأمر لمعظم هؤلاء أشبه **بالتقليد لمَن يُحبون** سواء ممَن قرؤوا أو سمعوا عنهم، أو ممَن رأوهم من أقارب وزملاء وأصدقاء ملتزمين فأحبوا أن يكونوا مثلهم[1]، وهذا يفسر مستوىٰ بعض المسائل التي سأذكرها واستنكار أن يكون لها أثر علىٰ مسلم ملتزم.

١ - الجهل الشرعي:

لا شك أن الجهل هو أصل كل بلية في الدين والدنيا، ورغم أن (**الملتزمين**) الذين سنتحدث عنهم هنا ليسوا كلهم جاهلين بالدين بالضرورة إلا أن أغلبهم كذلك وبنسبة أقدّرها شخصيا (من واقع مئات الحالات التي تعاملت معها) بـ٩٥٪ تقريبًا، هذه النسبة الكبيرة الجاهلة شرعًا أغلبها يلتزمون **ظاهرًا** بحسب فهمهم ورؤيتهم الخاصة للإسلام، فمنهم مَن يرىٰ الالتزام في **الملابس فقط أو اللحية والنقاب**، ومنهم مَن يراه في **حفظ القرآن والأحاديث وبعض المتون**، ومنهم مَن يراه في بعض السلوكيات والآداب التي أمر بها الإسلام أو نهىٰ عنها، وهكذا.. ورغم أن ذلك كله جيد (بل هم أقرب الناس لأن يكونوا

---

(١) لذلك لن أذكر موضوع نقص العلم الشرعي في مسألة منفصلة وإن كنا سنلاحظه في أغلب المسائل التي سأذكرها بإذن الله. فنقص العلم وحده كافٍ للتشكك عند البعض. في حين سعة العلم تصد أكثر الشبهات ومسائلها.

دعاة في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم العادية بين الناس) إلا أن جهلهم الشرعي للأسف يجعل منهم كذلك **هدفًا لبعض الشبهات التي** قد تزلزلهم أو تثير الشكوك في أنفسهم إذا لم يتداركوها بسؤال أهل العلم والتبيين، سواء كانت شبهات علمية أو نفسية أو عاطفية كما سنرىٰ بعد قليل.

*** مثال لشبهة علمية:**

أحد الشباب من حفظة القرآن ومقيم لبعض الصلوات في أحد المساجد كان لا يعرف تفاصيل جمع القرآن **ولا القراءات وبعض اختلافاتها**، وبذلك كان فريسة سهلة لشبهة تطعن في حفظ وتواتر القرآن من هذه الجهة، فكان دوري معه شرح هذه النقطة حتىٰ فهمها، ولله الحمد.

فهذا مثال لشبهة في **العلم الشرعي**، وهناك أضعافها من الشبهات في **العلم الطبيعي**، والتي قد يُفتتن بها بعض الملتزمين أيضًا، مثل طعن الطاعنين - مثلًا - في آيات الجنين، وآيات الجبال أوتادًا،.. وغيرها، وكل ذلك لا مجال لذكر ردوده ها هنا، وهي موجودة بكثرة علىٰ الإنترنت لمَن يبحث، ولله الحمد.

*** مثال لشبهة نفسية أو عاطفية:**

إحدىٰ الأخوات الملتزمات تتلقىٰ دروسًا في حفظ القرآن قابلتها شبهة تطعن في عدالة إرسال الرسل وتوزيعهم، وأن القرآن لم يذكر إلا رسلًا من **المنطقة العربية فقط**، وكأنه لا يوجد بشر في باقي بلاد العالم،

والشاهد من الشبهة هو إما أن القرآن ورب الإسلام **ظالم لم يهتم بباقي العالم**، أو محابٍ للعرب - وحاشاه - **وإما أن الدين كله كذب**، فما كان مني إلا أن سألتها عن قوله تعالىٰ:

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ ﴾ (النساء:١٦٤) فتعجبت، وكأنها تنتبه لمعناها الآن لأول مرة، رغم أنها تحفظ سورة النساء من ضمن ما تحفظ عن ظهر قلب، لكن انظر إلىٰ عدم استحضارها لمعنىٰ الآية وقت حاجتها **لغلبة التأثر العاطفي والنفسي ساعتئذ؟**

ثم زدتها بيانًا بأنَّ من حِكمة ذكر رسل وأنبياء المنطقة العربية أنها من فجر الإنسانية إلىٰ اليوم وهي **نقطة اتصال العالم** شرقه بغربه وشماله بجنوبه، ولا توجد حضارة أو أمة كبيرة أو شهيرة تُذكر إلا **ومرَّت بهذه المنطقة** أو وصل أهل هذه المنطقة العربية إليها في التجارات ونحوه، لذلك كان لذكر هؤلاء الرسل والأنبياء وقع ليس لغيرهم في نفوس المتلقين من الناس.

ومما يساعد علىٰ وجود مشكلة الجهل الشرعي عند الملتزمين:

- الالتزام الديني من غير تلقي العلم سماعًا أو مدارسة.

- عدم الاهتمام بشرح روح الدين وتفسير القرآن بقدر الاهتمام بحفظ القرآن.

- عدم غرس روح السؤال والاستفسار عند الملتزم إذا واجهته شبهة ما.

- حب تقليد الدعاة والشيوخ، وأخذ الظاهر السهل منهم دون الباطن من العلم.

٢- الجهل بأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان:

وهذه المسألة هي الأخرىٰ أصل مشترك وثابت في كل إشكالات مشكلة الشر، وذلك من أعتىٰ الفلاسفة وأكبر العلماء إلىٰ أبسط البشر، ومن المؤمن الملتزم إلىٰ المؤمن العادي، فأنا كمؤمن قد (**أقرأ**) كثيرًا عن الابتلاء في القرآن والسُّنَّة، بل وقد أقوم بـ(تدريس) ذلك للناس بنفسي، أو (**وعظهم**) به لسنوات، لكن كل هذا لن يغني وقت (**تعرضي**) لابتلاء **حقيقي** كموت حبيب في حادث، أو سجنٍ، أو تعذيبٍ.. لن يُغني ساعتئذ شيء إلا إيماني بأن هذه الدنيا دار مرور وليست دار سكن، دار ابتلاء وامتحان وليست جنة، فإذا كنت متشربًا بكل ذلك متفهمًا له، مستوعبًا، مؤمنًا به أشد الإيمان سيهون كل ابتلاء في عيني، وسيتعاظم أجر احتسابه لوجه الله في قلبي، وهذا هو درب الرسل والأنبياء والصالحين وما تعرضوا له..

فالابتلاء في هذه الحياة مثل الكأس وكل الناس شاربٌ منه ولا بد، لكنه يتفاوت من شخص إلىٰ آخر حسب قوة إيمانه ويقينه، وحقيقة نفسه التي يخرجها الله بهذه الامتحانات؛ يقول ﷻ:

- ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥).

- ويقول:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥).

- ويقول كذلك:

- ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك:٢).

- وأخيرًا وليس آخرًا:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:٢).

وأما العوامل التي تساعد علىٰ أن يضل مؤمن ملتزم بالابتلاءات فمنها:

- **المثالية الزائدة في تصور الحياة الدنيا.**

- **قراءة القرآن بغير تدبر حتىٰ لو كان حافظًا له.**

- **الغفلة عن قصص ابتلاء الرسل والأنبياء والصالحين والصحابة والسلف.**

- **العبادة الجافة التي تخلو من الارتباط بالله تعالىٰ الذي يهُونُ كُلُّ شيءٍ من أجله.**

٣- المثالية الزائدة:

وهي مسألة متفرعة من الابتلاء، فإذا لم ير المرء بعض وجوه الشر منذ الصغر، فغالبًا ما يكون عيشك في سلام مساعدًا علىٰ انحصار

فكرك في عالم مثالي.. عالم تظن أن كل مَن فيه مثلك، يفكرون نفس تفكيرك الطيب، ويُضمرون نفس نواياك الحسنة، لكن مرور سنوات العمر كفيلٌ بإظهار الوجه الحقيقي للحياة، وإظهار الفارق بين أن تفكر بمثالية وبين أن تطغىٰ المثالية الزائدة علىٰ عقلك وتفكيرك.

فالدنيا ليست كما تظن، والناس أيضًا ليسوا كما تتخيل، ففيهم الكاذب علىٰ الله والخائن للناس، وفيهم الظالم والجبار والمُرتشي وشاهد الزور، وفيهم القاتل والسارق،.. إلىٰ غير ذلك مما هو كفيل بـ (عقلنة) نظرتك للحياة، هذا كله لا إشكال فيه..

بل الإشكال عند الذين يسبب لهم ذلك صدمة في مثاليتهم؛ فمثلًا: هو كمؤمن ملتزم يُصَدم عندما يرىٰ موقفًا لا يليق من مسلمٍ من المفترض أنه ملتزم مثله، أو حتىٰ من داعيةٍ أو شيخٍ، وعلىٰ هذا قِس، حتىٰ مواقف الحياة الأخرىٰ بعيدًا عن الدين؛ الغش في العمل والوظيفة.. الزوجة المتمردة.. أو الزوج المتسلط.. الأقارب الجاحدين.. موت الأطفال والأبرياء.. إلىٰ غير ذلك مما يطول عَدُّهُ.. كل ذلك يكون له وقع إفساد الإيمان أو بث التشكك عند المتأثرين به، والذين تجمعهم عوامل مثل:

- استعظام ابتلاء الصالحين، أنت أو غيرك.
- استعظام بعض المواقف السيئة من الملتزمين.
- استعظام بعض الآراء والمواقف للشيوخ والدعاة.
- استشكالات في مرض أو موت الأطفال والأبرياء.

وغيرها الكثير مما تجعله المثالية الزائدة غاية في الحساسية لصاحبها، للدرجة التي قد تفتنه في وقت من الأوقات للأسف، ونَسِيَ صاحبها أن الحياة الحقيقية علىٰ وجه الكمال هي الجنة في الآخرة بإذن الله:

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤).

٤- استعظام ابتلاء الصالحين؛ أنت أو غيرك:

يسوء الظن بالله - للأسف - عند بعد الملتزمين عندما يرىٰ الابتلاء في نفسه أو غيره من الصالحين، حيث يتعاظم ذلك في نظره، وكأنه يستنكر سماح الله تعالىٰ بوقوعه لهم مع قُربِهم منه، وهو في ذلك يجهل أو يعمىٰ عن حكمتين عظيمتين من ابتلاء الصالحين، هما: رفع الدرجات بصبرهم، وحط السيئات عنهم ببعض ذنوبهم حتىٰ يلقوا الله وما عليهم شيء؛ يقول ﷺ - كما في «سنن التِّرْمِذِيّ» -:

«مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حتىٰ يَلقَىٰ اللهَ تعالىٰ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

ولو كانت منزلة الإنسان الصالح من الله تمنعه من الابتلاء لكان أولىٰ الناس بذلك هم الرسل والأنبياء؛ فهم صفوة الله من خلقه، وأقربهم إليه، لكن انظر كيف كان مِن ابتلاء بعض الأنبياء أن (قَتَلَهُمُ) اليهود! وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك مرتين في كتابه الكريم:

﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (آل عمران:١٨١)، و(النساء:١٥٥).

وليس الرسل والأنبياء فقط، بل **وأتباعهم أيضًا**.. وتحت سمع الله تعالىٰ وبصره، وهو القادر علىٰ نجاتهم سبحانه، لكنه **يُصبرهم بما هو أهله**، وبما يُلقيه في قلوبهم مِنْ بَرْدِ اليقين، والثبات علىٰ الإيمان، حتىٰ وهم يُرمون في النار الحارقة:

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (البروج:٤ - ٨).

فهذه هي سُنة الله تعالىٰ الجارية في **عبادِه الصالحين** مِن الذين وقفوا في وجه طغيان باطل الكفر وبطشه، يقول ﷻ:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤).

بل وحتىٰ نبينا الكريم ﷺ يقص الله علينا موقفه العصيب وصحابته في **غزوة الأحزاب** عندما أحاطت مجاميع الكفار بالمدينة من كل جانب وكشف اليهود ظهر المسلمين فيقول عز من قائل:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١٠ - ١١).

لذلك يترك الله تعالىٰ بعض مواقف صبر المؤمنين علىٰ العذاب

لتكون آية وعلامة لكل طالب حق على صدق إيمانهم وتصديقهم لما عند الله من أجر وثواب سبحانه، أمَا سَمِعَ المُسلم الملتزمُ بحديث النبي ﷺ:

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبلكم يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[1].

وقبل أن يظن البعض ظن السوء في أن يصيبه الله تعالىٰ بابتلاء لا يناسب قوة إيمانه فإن الله تعالىٰ يقول في محكم التنزيل:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦).

بل قد رأينا في الواقع وفي الشاشات كيف أن بعض المسلمين المُعذَّبين حتىٰ الموت كان آخر كلامه الشهادتين ورفع السبابة في التوحيد، فهل هو أشد جأشًا ممَن يتخذ مشهد عذابه حُجة لكفره وإلحاده وتشككه في الدين؟

وإذا كان الموتُ قادما قادمًا لا مفر منه فلماذا الانتكاسة عند الفتنة والابتلاء إذا وقع تقديرًا من الله ساعتئذ؟ أذلك خيرٌ أم الثبات وختم الحياة بما عاش المسلم عليه لا يحيد عنه شعرة وهو يعلم أن ما عند الله خير؟ ولذلك لن تجد أكثر بروزًا في القرآن والسُّنَّة ونصائح وكتب علماء المسلمين الأكابر من الأمر بالصبر؛ يقول رسولنا الكريم ﷺ - فيما رواه مسلم في «صحيح» وغيره -:

---

(١) مر تخريجه في «البخاري» والتعليق عليه.

«... وَمَن يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خيرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

وقد سُئل - أيضًا - ﷺ عن أشد الناس بلاءًا فقال:

«الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل مِنَ النَّاسِ. يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيدَ فِي بَلاَئِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ»[1].

إذن..

لا يجوز لمسلم أنعم الله تعالىٰ عليه بنعمة الالتزام أن يغفل لحظة عن هذه (الأسس الغائبة) والحقائق الواضحة من دينه، ولا يجوز له أن يسيء الظن بالله؛ لأن ذلك يوازي في العقل نظر الشخص إلىٰ نفسه باستعلاء، فمثل هذا الشخص سيظلُّ يَرَىٰ أنَّ ما يتلقاه مِن قضاءِ الله وقَدَرِهِ لا يُنَاسِبُ (مكانته) ولا (التزامه)، ناسيًا حتىٰ ذنوبه التي قد يكون الابتلاء عقابًا أو تكفيرًا عنها، بل وكأنه هو الذي يَمُنُّ علىٰ الله بإسلامه!

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات:١٧).

ولابن القيم رحمه الله كلامٌ يترجم ذلك الحال بدقة إذ يقول:

«... وأكثر الخلق - بل كلهم إلا مَن شاء الله - يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ، فإنَّ غَالِبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» برقم (٢٣٩٨)، وصححه الألباني.

الحظِّ، وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولِسانُ حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه، ونفسُه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره، ولا يتجاسرُ علىٰ التصريح به.

ومَن فتَّش نفسَه، وتغلغل في معرفة دفائِنها وطواياها رأىٰ ذلك فيها كامِنًا كُمونَ النار في الزِّناد، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده، ولو فتَّشت مَن فتشته لرأيت عنده تعتُّبًا علىٰ القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرىٰ به، وأنه كان ينبغىٰ أن يكون كذا وكذا، فمُستقِلٌّ ومُستكثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟»[1].

كل ما سبق أنا لا أذكره وأنا بعيد عنه، بل أُذكِّر نفسي به قبل غيري، وأسأل الله تعالىٰ الثبات عند الفتن ونزول البلاء حيث لا يغني وقتها كثير الكلام، فيا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك[2].

ومن العوامل التي تساعد علىٰ وجود هذه المسألة عند بعض الملتزمين:

- المثالية الزائدة في استثناء الصالحين من الامتحان.
- الجهل بحقيقة الابتلاء والامتحان في الدنيا.
- سوء الظن بالله من المؤمنين به.

---

(١) في كتابه (زاد المعاد) (٤ – ١٨٤/ ١٨٦).

(٢) مأخوذ من حديث صحيح للنبي ﷺ رواه الترمذي في «سننه» برقم (٢١٤٠)، وأحمد في «مسنده» برقم (١٢١٢٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٠٢).

- الظن السيء بالصالحين وأنهم ضعاف الإيمان أمام الابتلاءات.
- ضعف تعلق القلب بالله وفقه عبادته ومحبته.

٥- استعظام بعض المواقف السيئة من الملتزمين:

في كل مكان في العالم عندما يُخطئ شخصٌ محسوبٌ علىٰ جهةٍ ما أو يتبع نظامًا ما أو قانونًا ما لا يتم تعميم خطئه علىٰ تلك الجهة أو النظام أو القانون قبل الاطلاع عليه أولًا، وإنما تقتصر التخطئة علىٰ ذات الشخص إلىٰ أن يظهر أن هناك خلل بالفعل في الجهة أو النظام أو القانون الذي يتبعه.

هذا هو حديث العقل والمنطق السليم بعيدًا عن عاطفة الغضب أو الاستياء.

فالأشخاص الملتزمون لا يُمثلون حُجَّةً علىٰ الإسلام، بل الإسلام حُجة عليهم إذا لم يتبعوا مسألةً واحدةً من مسائله مهما بلغت مكانتهم.. فها هم الرُّماة - في غزوة أحد - عصوا أمر رسول الله ﷺ بعدم ترك مكانهم فوق الجبل، فلما رأوا انتصار المسلمين وفرار الكفار وتركهم للغنائم من ورائهم تركوا مكانهم، فانقلبت المعركة علىٰ المسلمين بعد أن كادت تنتهي لهم!

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ

لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٢).

فانظر كيف كانت مخالفة واحدة فقط منهم للرسول ﷺ وبالًا علىٰ المسلمين حتىٰ أصيب النبي ﷺ في وجهه، وقُتِلَ من الصحابة يومها قرابة السبعين، فهل يقول عاقل أن سبب ما حدث هنا هو في الإسلام، أو أوامر الرسول؟

إذن..

كيف انتقل الساخط علىٰ بعض المواقف السيئة من المسلمين الملتزمين من مجرد عتابهم (كأفراد) إلىٰ (التشكك) في الدين ذاته أو الإلحاد؟!

هذا علىٰ فرض التسليم بأنه أو هم ملتزمون فعلًا بالإسلام.. إذ - كما أوضحنا - غالب الواقعين في هذه الشبهات والمسائل هم من الملتزمين ظاهرًا دون فهم حقيقة الدين، سواء كانوا ملتزمين بحفظ القرآن دون فقه معانيه وعبره وعظاته، أو ملتزمين سمتًا (باللحية والثياب) وليس لهم من العلم الشرعي نصيب!

وهذا يذكرني بزميلٍ ملتزمٍ عملت معه فترة سألني ذات يوم: لماذا أكثر المشاكل التجارية بينه وبين العملاء هي التي بينه (وهو ملتزم) وبين عملاء (ملتزمين) مثله؟ في حين لا يكون ذلك بنفس النسبة بينه وبين غير الملتزمين؟

فسألته: هل تلتزمون فيما بينكم من اتفاقيات وتسديد بكتابته

وتسجيله **أولًا بأول** كما أمر الله في القرآن وآية الدين أم لا؟ فقال: لا.. قلت له: وماذا عن غير الملتزمين؟ قال: نقوم بالتسديد والتسجيل.

فقلت له: قد أجبتَ نفسك علىٰ سؤالك، إذ لما اتكلتم علىٰ حسن نيتكم (كملتزمين) لم تكتبوا ولم تسجلوا ما بينكم من معاملات وتسديدات - رغم أن الله الأعلم بالإنسان وبكم - أمرنا بكتابة كل شيء علىٰ قدر المستطاع، لأن الإنسان ينسىٰ بطبعه، أو تختلط عليه الأمور مع الوقت والانشغال وتداخل المعاملات. وهو الشيء الذي لم يوجد بينك وبين (غير الملتزمين) كما تسميهم، فسَلِمَتْ لك تعاملاتك المالية معهم.

والمقصود هنا أن الملتزم قد يغفل أو يجهل أو يترك بعض أمور الدين حتىٰ ولو عن غير قصد، فيتسبب ذلك في وقوع مشاكل أو مواقف سيئة أمام الآخرين، فهو في النهاية إنسان، لكن العجيب هنا أن يسحب شخص عاقل ما حدث من (شخص) أو (جماعة) ليعممها علىٰ الدين كله ويصفه بالخطأ أو النقصان دون تحليل وتمحيص، ومن العوامل التي تساعد علىٰ هذه المسألة للأسف:

- المثالية الزائدة في تخيل حال الملتزمين.
- وجود شحن عاطفي تجاه نوعية معينة من الملتزمين وتربص سقطاتهم.
- الجهل بالشرع، وظن الدين هو ما يقوم به الملتزمون ولو كان التزامهم ظاهريًا.

- ضعف الرابط الإيماني بالله والإسلام، لأن تركهم لا يكون بهذه السهولة.

٦- استعظام بعض الآراء والمواقف للعلماء والدعاة:

ما قيل في مواقف الملتزمين في المسألة السابقة يمكننا نقله هنا في هذه المسألة كذلك، فالشيخ أو الداعية مهما كان فهو **إنسان**، قد يكون فيه من **النقائص والعيوب الشخصية** ما في غيره، فهي وإن كانت **أقل** إلا أنها ليست معدومة، وقد كان من الصحابة - علىٰ عَظِيمِ قَدْرِهِم - مَن يُخطئ في اجتهاده، وكان منهم مَن يُعارض في الرأي صحابيًّا آخر أو أكثر، هذا كله مع فارق القياس بيننا وبينهم، ولكن.. في النهاية ليس لأحدٍ - كائنًا مَن كان - أن يكون **حُجة علىٰ الإسلام**، بل الإسلام **حُجة علىٰ الجميع**، فإذا أردت أن تحاكم أحدًا فحاكمه للإسلام وشرع الإسلام ولا تحاكم الإسلام به!

فالإسلام لم ينسب العصمة لبشر قط إلا مَن عصمه الله.

بل ومشاهير علماء الإسلام من المذاهب الأربعة والسلف الصالح كلهم يُحذِّرون مِن أن يتبعهم ويقلدهم أحدٌ في كل ما يصدر عنهم حتىٰ ولو كان خطأ.

ولهذا كله نجد التحذير من **زَلَّةِ العالِم** (أي خطأ العالم غير المتوقع من مثله فينخدع به الناس)، فقد روىٰ الدَّارِمِيُّ في «سننه» عن زياد بن حدير قال: قال لي عمر (أي ابن الخطاب ﵁):

«هل تعرفُ ما يهدم الإسلام؟

قال: قلتُ: لا!

قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحُكم الأئمة المضلين». (صححه الألباني).

هذا كله علىٰ فرض أنهم أحرار فيما يفعلون، والسؤال: ماذا عندما يكونون مجبورين من حاكم ظالم ونحوه؟ هل يجوز لومهم في ذلك وقتها علىٰ رأيٍ غريبٍ أو خطأ؟

إن أكثر المسلمين الملتزمين - للأسف - ينتظرون من الشيوخ والعلماء ما لو عُرض عليهم فعل عُشر مِعشاره لخافوا علىٰ أنفسهم وأهليهم وعرضهم ومالهم إلا مَن رحم الله.. أليس لهؤلاء الشيوخ والعلماء بيوت وزوجات وحرمات يخافون عليها مثلما يخاف غيرهم من الملتزمين؟ نعم هم أحق الناس بالتوكل علىٰ الله واليقين به وعدم الخوف فيه لومة لائم، لكنها في النهاية النفس البشرية وضعفها، فلن تستطيع أن تحمل الشيوخ والعلماء كلهم عليها.. خاصة وهم يعرفون أنه إذا وقع بهم ضرر فلن يجدوا أحدًا بجوارهم ممَن دفعهم إليه!

ولنتخيل مثلًا أننا حضرنا وقت الفتنة في زمن الخليفة المأمون (فتنة خلق القرآن)[1] حيث كان يُجبر العلماء علىٰ القول بأن القرآن مخلوق، حتىٰ سُجن منهم مَن سُجن وقُتل مَن قُتل ولم يثبت إلا القليل

---

(١) لمزيد تفصيل يمكن مطالعة (البداية والنهاية) لابن كثير من أحداث عام ٢١٨هـ وما بعدها.

وقتها، أما الباقون فداهنوه في باطله، ولم يتجرأوا علىٰ الصمود مثل إخوانهم. والسؤال:

هل في مثل هذا الوقت يصح الحُكم علىٰ شيخ أو داعية أو علىٰ قولٍ له أو موقفٍ هنا أو هناك، فضلًا عن أن يُتخذ ذلك ذريعة للتشكك في الدين أو الإلحاد؟

أيضًا هناك نقطة فقهية هامة ألا وهي:

تغير آراء بعض العلماء مع الوقت، إذ يظنه بعض الملتزمين **غير المتخصصين** في الفقه تلونًا ونفاقًا، في حين أنه لا يلزم ذلك دومًا (ودعونا من علماء الفرقعات الإعلامية حسب الطلب والسياسة)، فبعض العلماء بالفعل يزداد علمًا مع الوقت فيتراآىٰ له **خطأ بعض** آرائه السابقة (مثلما كان للإمام الشافعي ﵀ فقه في العراق تغير بزيادة علمه ورحلاته إلىٰ مكة ثم مصر فصار في حِلٍّ من فقهه القديم إلىٰ الجديد)[1]، أو تنبه العالم إلىٰ **بعض أخطائه،** أو إلىٰ **الأورع** في المسألة، أو **الأيسر** علىٰ الناس عند التطبيق، ونحو ذلك (مثل اختلاف آراء الإمام أحمد ﵀ في المسألة الواحدة)[2].

---

(١) بل ولم يسامح مَن يحكي عنه آراءه القديمة وهو يعلم فقال: «ليس في حلٍّ مَنْ رَوَىٰ عني القديم». انظر (البحر المحيط) للزركشي (٤/ ٥٨٤).

(٢) حيث تصل بعض آرائه في المسألة الواحدة إلىٰ رأيين أو ثلاثة، وكلها اجتهادات مقبولة بالنظر إلىٰ دليل كل منها، اللهم إلا إذا صرّح في أحدها بزيادة علم أو زيادة دليل مثل حديث ونحوه لم يكن يعرفه فعرفه، أيضًا قد يكون اختياره للأورع كما قلنا. وذلك مثل رأيه في: هل يقع طلاق السكران لزوجته أم لا؟ فكان يقول يقع،=

إذن..

علينا معرفة الحق واتباعه، ولا يضرنا مَن كان عليه أو خالفه، فكل إنسان **يعمل لنفسه بينه وبين ربه**، وأما ذنب العالم إذا أخطأ عن عمد أو ليفتن الناس عن تكبر رأي ونحوه: **فهو أكبر من ذنب غيره بالتأكيد.**

ومن العوامل التي تساعد في ظهور هذه المسألة عند الذين أصيبوا بها:

- المثالية الزائدة في تخيل حال الشيوخ والدعاة.
- الجهل بالدين، واتخاذ الشيوخ والعلماء حُجة علىٰ الإسلام لا العكس.
- الغلوّ في الطعن في كل شيخ أو داعية، وتتبع أخطائه أو سقطاته مهما صغرت.

٧- استشكالات في موت ومرض الأطفال والأبرياء:

هناك مفهوم خاطئ شائع أن الأبرياء والأطفال والضعفاء لا يجب أن يتألموا أو يلاقوا شرًّا في هذه الحياة لأنهم: (**لم يرتكبوا شيئًا**

=ثم بعد فترة اختار ألا يقع، والسبب أنه إذا قال يقع وكان مخطئًا فإنه يترتب علىٰ ذلك مأخذان، مأخذ فراقها من زوجها السكران بغير حق، ومأخذ زواجها بآخر بغير حق، في حين إذا قال لا يقع وكان مخطئًا فإنه يترتب علىٰ ذلك مأخذ واحد فقط وهو بقاؤها مع زوجها.

يستحق)، وخاصة الأطفال أو المواليد بالطبع.

والمشكلة ليست هنا فقط لكن عندما يمتد أمر التعاطف أكثر فيصل إلىٰ البحث عن لوم (جهة ما) كنوعٍ من أنواع التنفيس النفسي أو الإسقاط العاطفي للمشكلة، وبالطبع يتوجه لوم الخالق ﷻ من ضعاف العلم والإيمان لأنه (في عِلمهم) هو المفترض القادر علىٰ حمايتهم.

وهذا التفكير خاطئ - كما وصفناه - لتعارضه مع معنىٰ الابتلاء، وسوف نزيد الأمر تفصيلًا بعد لحظات عند مَن يظنون أن الله لديه (**شفقة**) و(**رقة**) مثلنا، أو في عدم تفريقهم بين معاني صفاته ﷻ مثل (**الرأفة**) و(**الرحمة**)؛ لكن الذي تكفينا معرفته الآن هو أن الحياة - في أصلها - ابتلاء كما قلنا، **فهي ليست جنة**، وما يحدث للطفل المولود أو الصغير من ألم أو معاناة **قد يحدث له في أي** ـقت من حياته **أيضًا**، فأما الضعفاء والأبرياء فقد استراحوا من عناء الدنيا وإنها - والله - لَهُمُومٌ متصلة يُسَلِّمُ بعضها لبعضًا! ومَن هذا الذي لا يحب لقاء الله من ورائها ويستريح؟ وقد مر بنا حديث النبي ﷺ عند رؤيته للجنازة حيث قال:

«**مُستريح ومُستراح منه** (أي مُستريح أو مُستراح منه)، **قالوا: يا رسول الله، ما المُستريح والمُستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب** (أي تعب) **الدنيا وأذاها إلىٰ رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**».

وأما الصغار فكأن التعاطف معهم كان بسبب صغر عمرهم لا غير - لأن الكبار يتعرضون لآلام وأمراض ولا نجد نفس رد الفعل - وهذا يمثل عدم موضوعية في التفكير إذا صحَّ، أضف إلىٰ ذلك أنه مُثَابٌ علىٰ صبره إذا كان واعيًا، وأما مَن تسبب في إيذائه فسيحمل ذنبه ويقتصه منه الله يوم القيامة. وأما إذا لم يكن واعيًا (مات مثلًا وهو جنين فيه الروح أو بعد الولادة) فعلىٰ الأقل مات في ثوانٍ معدودات، ثم يلقىٰ الله، فتكون الفتنة والابتلاء هنا يصح أن ننسبهما إلىٰ والديه - مثلًا - أكثر من نسبتهما إليه.. ولذلك جاء في «مسند أحمد» و«سنن التِّرْمِذِيّ» عن النبي ﷺ قوله:

«إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولون: نَعَم، فيقول: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فيقولون: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ (أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون)، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ».

فتأملوا وصف (قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ)؟ وهو وصفٌ لا يستشعره إلا مَن رزقه الله تعالىٰ بطفل، فلما كانت هذه المنزلة العظيمة ليست في قلبه فقط وإنما في فؤاده بأكمله كان للصبر علىٰ مصيبة موته أكبر الثواب عند الله. ثم ماذا؟

ثم يجمعه الله تعالىٰ به في الجنة إذا كان الاثنان من أهل الجنة، وبذلك كان الصبر هو سبيل للُقيا أموات الأطفال في الجنة إذا صدقت محبتهم في قلوب آبائهم وذويهم.

ومرة أخرىٰ..

قد يبدو الكلام سهلًا عند قوله، يسيرًا عند ذِكره والمرور عليه، لكن الصبر كل الصبر إذا وقع مثل ذلك لي أو لغيري، فاللهم الثبات.

وقد عانىٰ رسول الله ﷺ من موت أبيه قبل أن يره، وموت أمه وهو طفل صغير، ثم موت جده، ثم بعد الرسالة موت عمه الذي رباه، وزوجته خديجة رضي الله عنها، ثم موت عمه حمزة رضي الله عنه، والكثير من الصحابة، وكذلك موت ابنه الوحيد إبراهيم ولم يتجاوز عمره العام ونصف العام، فبكىٰ وصبر قائلًا:

«إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقِلَبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[1].

وأما العوامل التي تساعد علىٰ ظهور هذا التأثر في هذه المسألة عند بعض الملتزمين حتىٰ تفتنهم عن دينهم فسنذكرها مع النقطة القادمة للتشابه بينهما.

٨- ماذا عن الأطفال المُعاقين والمُشوَّهين؟

وهو مفهوم خاطئ آخر منتشر عند عامة الناس للأسف (من المسلمين وغير مسلمين) وهو أن الطفل المولود بإعاقة أو تشوه فإن ذلك هو من فعل الله، فيقولون أنه من الابتلاء ولكن ينسبون فعله لله (ومن هنا يتأثر بعضهم بشبهات الملاحدة في قولهم أن الله ظلم هؤلاء

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (١٢٢٠)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٤٢٧٩).

الأطفال بعدم خلقهم أسوياء مثل باقي البشر)، والحقيقة أن وقوع هذه الإعاقات والتشوهات هي بحق من إرادة الله الكونية التي تحدثنا عنها من قبل لكنها ليست من إرادته الشرعية، فمن إرادته الكونية ترك وقوع شر الأشرار ليحاسبهم الله عليه (لأن ذلك مقتضىٰ الدنيا وابتلاءاتها)، ولو منع الله تعالىٰ وقوع كل شر لما خرجت مكنونات أنفس الأشرار وأذاهم للأخيار أو الأبرياء والأطفال.. إلخ.

وبالعودة إلىٰ أصل الاستشكال نجد أن إعاقة أو تشوه الأطفال بالفعل ليست إلا من ظلم البشر (سواء كان ظلم الأم أو الأب أو مَن حولهما)، فالإعاقة والتشوه في الجنين تنتج إما عن كيماويات ضارة تعرضت لها الأم (ويمكن أن يكون بسبب تعاطيها للمخدرات أو إدمانها التدخين أو الخمر)، أو تعرضها لأعراض جانبية لبعض الأدوية سواء كان بعلمها أو دون أن تعلم، وكذلك تعرضها للحرارة الشديدة أو الإشعاعات الضارة، بل وقد ثبت أيضًا تأثر الجنين بتدخين الأب إذا كان تدخينه شرهًا بجانب الأم لفترات طويلة، فكل تلك الأسباب من ظلم البشر تؤدي إلىٰ طفرات ضارة في الحمض النووي الوراثي للجنين[1]، بل ومن رحمة الله تعالىٰ أنَّ هذه الطفرات لا تحدث

---

(١) واحد من أسوأ حالات هذا الضرر هو ما يحدث من تأثير الأم المدمنة للمخدرات والأفيون علىٰ جنينها، حيث مع تفشي الإدمان في بلد ضخم كأمريكا يطالعنا هذا الخبر الصادم عن ولادة طفل رضيع مدمن للمخدرات كل ٢٥ دقيقة! ولكم أن تتخيلوا تعرض هذا الرضيع لأعراض (انسحاب توقف المخدرات) علىٰ جسمه=

بسهولة، حيث وضع لها الله تعالىٰ ما يعالجها أولًا بأول علىٰ قدر المستطاع داخل الخلية والنواة، وهو ما يسمىٰ **بآليات تصليح الحمض النووي** DNA Repair، وبمعنىٰ آخر: لولا رحمة الله لكانت الإعاقات والتشوهات **بأعداد لا تحصىٰ** في الكائنات الحية والإنسان.

إذن..

مَن نلوم هنا؟

إننا في حياتنا العادية نرىٰ المُصمم يصمم السيارة مثلًا علىٰ أكمل وجه، ثم نراها عند الميكانيكي أو ساحة الخردة وقد تعرضت للإصابات والتشوهات والصدمات والتلف، فهل رأيتم عاقلًا يومًا ما لام مُصمم السيارة علىٰ هذه الحوادث؟!

إذن هذا النوع من المسائل يساعد علىٰ ظهوره لدىٰ فئة من الملتزمين للأسف بعض العوامل مثل:

- **المثالية الزائدة في تخيل السلامة للصغار.**
- **الجهل العلمي بأسباب حدوث الإعاقات والتشوهات.**
- **تركيز التعاطف مع الأطفال والضعاف رغم أن ابتلاءاتهم تحدث لغيرهم.**
- **عدم الفصل بين الرِّقَّة والشفقة.**

=من رعشة وألم وصراخ، لدرجة إعطائهم جرعات من المورفين كل بضع ساعات حتىٰ يتعافوا، هذا عنوان ورابط التقرير لمَن أراد الاطلاع علىٰ التفاصيل:

Every 25 Minutes an Infant is Born Positive to Opioids .
www.opiates.com/every-25-minutes-infant-positive-opioids

- عدم فهم الفَرْق بين الرأفة والرحمة.

وسوف نتناول العاملين الأخيرين ببعض التفصيل - فيما يلي - لدخولهما في استشكالات أخرىٰ أيضًا تصل إلىٰ التعاطف مع عذاب الكافرين وحتىٰ عقاب المجرمين!

٩- الفرق بين الرِّقَّة والشفقة:

أكثر المسلمين الملتزمين الذين يقعون في استشكالات مشكلة الشر ويتعاطفون بشكل مبالغ مع آلام الغير - حتىٰ لو كان مجرمًا - نجد لديهم عدم فقه للحد الفاصل بين الرقة والشفقة، وعلىٰ هذا نقول:

إن الرقة والشفقة صفَّتان تدلان علىٰ **انفعال القلب وتأثره بحدوث مكروهٍ**، سواء كان حدوثه للشخص نفسه أو لغيره، فإذا كان هذا الانفعال والتأثر **عامًّا** (أي لرؤية المكروه في أي أحد حتىٰ **ولو كان عدوك**) فإنها تسمىٰ (**رقة**)، ويمكننا أن نتخيلها مثلًا مَن كان يدفن ابنته في الجاهلية قبل الإسلام وهي حية خوف الفقر أو العار، حيث كان (**يرق**) لها رغم أنه يقتلها بيديه!

وأما **الشفقة** فتُستخدم مع الانفعال والتأثر للمكروه إذا **نزل بمَن نحبُّ أو مَن لا نريد له الألم أو العذاب أو السوء**، ولذلك فالشفقة تصاحبها رغبة **وفعل لإزالة هذا المكروه عنه** (ومن هنا يمكن وصف الأم بأنها شفيقة بولدها وليست رقيقة)، وكذلك وصف الله تعالىٰ

الذين يشفقون علىٰ أنفسهم من خشية الله (أي يخافون علىٰ أنفسهم من عذاب الله فيعملون لتلافي ذلك) فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧).

وقد ورد نفس المعنىٰ في إشفاق الملائكة من خشية الله، وكذلك الشفقة من الساعة، إذن..

الرقة والشفقة - كما قلنا - صفتان تدلان علىٰ انفعال القلب وتأثره بمكروهٍ نازل، فأما الرقة فمع أي كائن كان (**حتىٰ لو كان مع عقاب المجرم القاتل رغم أننا نريده أن يُقتل بالفعل**)، وأما **الشفقة فهي** مع مَن نحب أو مَن لا نريد وقوع الألم والعذاب له ولو كانت أنفسنا، ولذلك تصاحبها - غالبًا - **رغبة أو فعل عملي لإزالة المكروه أو** صده.. ومن هنا يمكننا الحكم علىٰ الرقة والشفقة أن كلاهما جيد كصفات إنسانية، ولكن: **عندما تأتي في مكانها المسموح به ولا تتجاوزه**، بمعنىٰ..

يجب علينا تعليم صغارنا وأطفالنا ومراهقينا وشبابنا أن **الرقة مُباحةٌ** لأنها وصف عام يدل علىٰ إنسانيتنا وتفاعلنا وانفعالنا مع أي ألمٍ يصيب أيًا من كان، سواء كان إنسانا أو حيوانا أو حتىٰ عدوا أو لحظة إيقاع العقاب علىٰ قاتل مجرم مثلما قلنا..

أما الشفقة..

فهذه هي التي يجب أن نعرف متىٰ نوصف بها ومتىٰ لا.. فالرقة للمجرم القاتل الذي يُقام عليه الحد قتلًا.. هذه الرقة - كما قلنا - هي

فطرية في الإنسان، لكنها لا يجب أن تتحول إلىٰ شفقة!

وذلك لأن الشفقة تعني: الرغبة في (منع المكروه) والألم والعذاب عنه، بل والسعي في ذلك بالفعل وتنفيذه إذا أمكن، **وهذا - هنا - ضد شرع الله تعالىٰ وضد العدل وضد الحكمة**.. وبذلك نعرف خطأ مَن يدافعون عن عقاب المجرمين في الدنيا.. أو عن عقاب الكافرين في الآخرة، رغم أن العقاب العادل لا يكون فيه ظلم للمجرم، بل قصاص يناسب جريمته.

ومن العوامل التي تساعد علىٰ تأثر بعض الملتزمين باستشكالات مشكلة الشر في هذه المسألة:

- **المثالية الزائدة وتجاهل حقيقة الدنيا والابتلاءات.**
- **استخدام الشفقة في غير موضعها، وبالتالي الرغبة في عدم عقاب المجرم.**
- **عدم استحضار حجم ونوعية الذنب أو الجريمة أو ضحاياها أو لوازمها.**
- **عدم استحضار أن الله تعالىٰ يوصف بالرأفة والرحمة لا بالرقة والشفقة.**

١٠ - الفرق بين الرأفة والرحمة:

أما «الرأفة» و«الرحمة» فبينهما من العلاقة ما يشبه ما بين «الرقة» و«الشفقة»، غير أن الله تعالىٰ يوصف بأنه «رؤوف» و«رحيم»، ولا

يوصف بأنه «رقيق» أو «شفيق».

فالرحمة: هي إحداث ما يسبب السرور والسعادة والمصلحة حتىٰ إذا كان عن طريق الألم (مثلًا الأم ترحم ابنها فتسمح للطبيب أن يجرحه في سبيل أن يشفىٰ)، وأما **الرأفة** فهي: دفع الضار والمكروه والمؤلم بحيث لا يقع في موقف معين أو يحول دون وقوعه.

يقول أبو البقاء الكَفَوِيّ: «**الرحمة هي أن يوصل إليك المَسار** (أي ما يسُرك)، **والرأفة هي أن يدفع عنك المَضار، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التخلية، والرأفة مبالغة في رحمة مخصوصة هي رفع المكروه وإزالة الضر، فذِكر الرحمة بعدها** (أي بعد الرأفة) **في القرآن مُطرد** (أي كثير حيث يصف الله نفسه بأنه رؤوف رحيم) **لتكون أعم وأشمل**»[1].

ومن هنا نلاحظ دقة التعبير القرآني في قوله تعالىٰ عن حد جلد الزانية والزاني:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٢).

فنهىٰ عن الرأفة لأنها تعني الحيلولة دون وقوع المكروه أو العذاب أو الضرر أو الألم، وهي عكس مراد عقاب الزاني، ولذلك

---

(١) ذكره في الكليات برقم (١/ ٧٤٢).

عندما يصف الله نفسه **بالرؤوف** أي: الذي يدفع عن عباده أكثر السوء، والذي يدل عباده علىٰ الوقاية من الوقوع في السوء قبل أن يقع، فإذا وقع بهم سوء كان أدعىٰ لاسمه الرحيم، فالرأفة هنا (وقاية)، والرحمة (علاج)!

نخرج من كل ما سبق بأنه:

إذا تعلم المسلم الملتزم في صغره أو مراهقته أو شبابه معاني صفات الرقة والشفقة، والرأفة والرحمة، وفرق بينها جيدًا وبيننا وبين الله تعالىٰ فيها، واستوعب وهو يحفظ القرآن كيف نهىٰ الله تعالىٰ عن **الرأفة** في مواضع (مثل جلد الزناة)، ويقابلها عدم الشفقة بالمجرمين في عقابهم؛ بالتأكيد ستنتظم نفسه لتركن إلىٰ المستوىٰ (**الطبيعي**) لهذه المشاعر عنده بلا مبالغة في الحساسية أو تقصير في تبلد المشاعر.

ومما يساعد علىٰ تأثر بعض الملتزمين باستشكالات هذه المسألة:

- فرض رؤيته الخاصة علىٰ أفعال وأحكام الله ﷻ.

- الظن بأن الله تعالىٰ يجب أن يتدخل في كل مأساة بداعي الرقة أو الشفقة.

- التركيز علىٰ نصف المشهد (الابتلاءات في الدنيا) وتجاهل الآخرة.

- كم من ابتلاء كان في حقيقته رحمة، وكم صرف الله برأفته مصائب عنا.

١١- رؤية مشاهد تعذيب المؤمنين:

إنَّ مَن تضيع منه رؤية الدنيا علىٰ أنها دار امتحان وابتلاء وإظهار: فإنه الأكثر عرضة للهزات الإيمانية كلما رأىٰ شرًّا في العالم وتساءل: أين الله من كل ذلك؟ **لماذا لا يتدخل؟**

ولن نعيد هنا كل ما ذكرناه سابقًا من آيات وأحاديث دالة علىٰ ذلك الأصل العظيم **(الابتلاء والامتحان)** الذي يتوقف علىٰ عتبته كل كفر وإلحاد مشكلة الشر.

ولكنه للتذكير فقط.

وعلىٰ هذا فإن أصل مشكلة الشر إذا شاهد الملتزم مؤمنًا يتعذب **(وخصوصًا إذا كان عذابًا وحشيًّا أو همجيًّا)** فهو نابع مما وقر في قلبه ومن تعاليمه من أن الله تعالىٰ **(مُطَّلع)** علىٰ كل شيء، وأنه **(يسمع ويبصر)** كل شيء، وأنه لا يقع شيء في هذا الكون والعالم إلا **(بإذنه)**، وأنه إذا أراد منع شيء أو منع هذا العذاب فإنه سيمنعه.

واليوم ومع انتشار الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي والتناقل السهل والمباشر لمئات المقاطع المصورة التي تجسد للمسلم **ما لم يكن يتصور وقوعه من درجات الوحشية والألم في التعذيب**؛ فإن لذلك أكبر الأثر في بزوغ تلك الأفكار الإلحادية التي لم تكن لتظهر بذات الدرجة أبدًا وهي حبيسة حروف التاريخ وكلمات الحكي والأخبار.

فتاريخ البشر والأمم قديمها وحديثها **يمتلئ بأبشع أخبار**

التعذيب وإيقاع الألم والترهيب والتهديد والإجرام، لكن أغلب هذه الأخبار مكتوب، والنادر منها مرسوم أو مصور، ولذلك لم تكن تنفعل النفس معها بنفس الدرجة التي باتت تؤثر في الذين لديهم مبالغة في الرقة والشفقة مثلما يحدث اليوم.

بل من العجيب أن البعض هو من يسعىٰ إلىٰ مثل هذه المشاهد الدموية والوحشية بنفسه ولو من باب الفضول (وقد قابلت مسلمًا اهتز إيمانه عندما شاهد العديد من الجرائم المصورة في الشبكة العميقة للإنترنت حيث لا رقابة ولا قانون)، وكأنهم يترجمون حرفيًّا الإجابة عن سؤال: مَن لجهنم؟!

إذن..

ليس من العقلانية - وخاصة إذا كان قلبك رقيقًا أو شفيقًا - أن تشاهد مناظر التعذيب والقتل الوحشي أو تطيل النظر إليها، فإن القلوب تجزع بفطرتها، فما بالك برؤية المكروه والألم في إنسانٍ عزيزٍ أو تعرفه أو يجمع بينك وبينه وحدة الدين والدم (فضلًا عن الغريب)!

فعن كعب بن مالك ﵁:

«أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد: مَنْ رَأَىٰ مَقْتَلَ حَمْزَةَ؟

فقال رجلٌ أعزل: أنا رأيتُ مقتله.

قال: فانطلق، فأرناه.

فخرج حتىٰ وقف علىٰ حمزة، فرآه قد شُقَّ بَطْنُهُ، وقد مُثِّل به (أي تم تشويه جسده)، فقال: يا رسول الله قد مُثِّل به والله.

فَكَرِهَ رسولُ الله ﷺ أن ينظر إليه، ثم وقف بين ظهري القتلىٰ فقال: أَنَا شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ، لفُّوهُم في دمائِهم، فإنه ليس جريح يُجرح إلا جاء وجُرْحُهُ يوم القيامة يدمَىٰ، لونه لون الدم، ورِيحُهُ رِيحُ المِسْكِ»[1].

والشاهد من الحديث هو كراهية رسول الله النظر إلىٰ عمه حمزة وقد مُثِّل به.

وكذلك عن عُروة قال:

«أخبرني أبي الزُّبَيْرُ ﷺ أنه لما كان يوم أُحُد أقبلت امرأة تسعىٰ حتىٰ إذا كادت أن تُشرف علىٰ القتلىٰ (أي تصل إليهم وتراهم) **قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم، فقال: «المَرأة.. المرأة».**

قال الزُّبير ﷺ: **فتوسمتُ أنها أمي صفية** (وهي عمَّة النبي وأخت حمزة ﷺ)، **فخرجتُ أسعىٰ إليها، فأدركتُها قبل أن تنتهي إلىٰ القتلَىٰ»**[2].

والشاهد أيضًا: كُره النبي أن ترىٰ عمَّته أخاها حمزة مُمَثَّلًا بجسده.

فليحمد أحدنا الله تعالىٰ الذي عافاه من شيء ابتُلِىٰ به غيره، وكم

---

(١) رواه البيهقي في «سننه» برقم (٦٧٩٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٦٧)، وقال عنه الهيثمي في «المجمع» برقم (٦/ ١١٩): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) رواه أحمد في «السنة» برقم (١٤١٨)، وصححه الألباني.

من مواقف قاسية قد تضع ضعاف الإيمان على المحكِّ فيسهل سقوطهم في وساوس الشيطان..

فالتصدر للاطلاع على كل موقف على التعميم ليس حسنًا حتى إذا كانت غايته أو نيَّته حَسَنَة، وقد قال النبي ﷺ في الجهاد نفسه - الذي هو من أعظم القربات إلى الله، ومن أسمى الأعمال والعبادات التي تعلو بها كلمته وينتشر بها دينه ويُحفظ بها أرواح المسلمين وأعراضهم -:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ.. لَا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»[1].

وعلى هذا.. فلا توجد حُجة للشخص شديد الرقة أو شفقة القلب أن يتتبع مثل هذه المشاهد للقتل أو التذبيح أو التعذيب فتفتنه عن دينه وهو يقدر ألا يراها، بل وإذا وقعت عيناه عليها عن غير قصد فليصرفها أو لا يكررها ولا يطيل النظر إليها، وليتعوذ بالله ويحمد الله الذي عافاه.

ذلك كله إذا كان يعلم من نفسه خوفًا على إيمانه منها.. أما الإنسان المتزن:

فيعلم أن الله تعالى يعد للكافرين عدًا، وأنه كما جاء عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه:

«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، قال: ثم قرأ:

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» برقم (٣٢٨٢).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود:١٠٢).

وماذا عن الوقاية من هذه الأفكار؟

تتمثل الوقاية في تدبر القرآن، وفهمه، والعيش مع آياته ومعانيه كما قلنا، فمثلًا المسلم الملتزم الذي في ثورة غضبه وسخطه العاطفي يسأل: **أين الله من هذا العذاب للمؤمنين؟**

فنقول له: **بل أين أنت من كلام الله في قرآنه الذي قرأته مئات المرات؟ أما قابلت مثل تلك المآسي فيه للمؤمنين وتحت سمع الله تعالىٰ وبصره؟**

ألم تقرأ قصة **أصحاب الأخدود** الذين حفر لهم ملكهم الظالم الكافر بالله أخدودًا في الأرض، وملأه نارًا ثم **أقعدهم فيه ليحترقوا تحت سمع الله تعالىٰ وبصره؟**

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (البروج:٤ - ٨).

هذا: ولو شاء الله لحفظهم بمعجزةٍ من عنده، أو بتصريف من تصريفات القدر، بل: هم أنفسهم **لم يثنهم هذا العذاب عن الإيمان أو دفعهم للتراجع.**

إذن..

لو كانت مثل هذه المآسي سببًا - بالفعل - لترك الإيمان بالله

والتشكيك في وجوده لكانت استوقفتك وصدتك عن الدين من قبل، لكنها لم تفعل (لأنها في الحقيقة لا تقدح في وجود الله)، إنما الذي استجد فقط هو رؤيتك لها رأي العين فلم تتحملها نفسك.

ومن العوامل المساعدة للتأثر بهذه المسألة:

- المثالية الزائدة في استبعاد وقوع الشر للأبرياء في دنيا الابتلاء.
- الرقة والشفقة الزائدة.
- الإقدام علىٰ مشاهدة الجرائم الدامية والوحشية.
- نسيان الحكمة من الحياة الدنيا والابتلاء خاصة للمؤمنين والصالحين.
- الذهول عن قصص الأنبياء وأتباعهم في القرآن وما لاقوه.

١٢- هل كل مَن لم يدخل الإسلام في النار؟

ليس المسلم كائنًا متقوقعًا علىٰ نفسه في الحياة، لاسيما في العصور الحديثة حيث تقاربت البلدان مع سهولة السفر وسهولة الاختلاط بغير المسلمين سواء في بلادنا أو بلادهم، كذلك نحن مأمورون بمعاملة غير المسلمين معاملة حسنة يسودها البر والقسط (أي العدل)، ماداموا ليسوا محاربين لنا ولا محتلين لديارنا وأرضنا، يقول ﷻ:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨).

ومع هذا الحال قد يُفتتن بعض الملتزمين بشيئين، **الأول**: العدد الهائل لغير المسلمين، فيستعظم أن يكون كل أولئكم في النار؟ **الثاني**: أخلاق بعض غير المسلمين الحَسَنَة والتي يرىٰ في دخولهم النار ظلمًا لهم.

والرد علىٰ كلٍّ منهما كالتالي:

*** أما بالنسبة لاستعظام عدد الداخلين في النار:**

فلا يمثل عند الله تعالىٰ أي وزن ولو دخل الناس كلهم النار، فالله تعالىٰ شاء أن يخلق خلقًا مختارين لهم حرية إرادة، وعلىٰ ذلك سيحاسبهم ولو آمنوا جميعًا أو كفروا جميعًا، فقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم في «صحيحه»:

«يَا عِبَادِي إِنَّكُم لَن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، ولَن تَبلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يا عبادي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُم وإِنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا علىٰ أتقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ منكم ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شَيئًا.

يا عبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا علىٰ أفجرِ قلبِ واحِدٍ منكم ما نَقَصَ مِن مُلْكِي شَيئًا».

وقد أخبرنا ﷻ في قرآنه أنه لن يعذب أحدًا إلا بعد أن يأته رسولٌ منه، حتىٰ الذين سيلقون بحُجَجهم يوم القيامة (**مثل الطفل، والمجنون، والأصم، والهرم**) سيمتحنهم الله يوم القيامة - كما ذكرناه من قبل - بإرسال رسولٍ لهم، يقول تعالىٰ:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء:١٥).

إذن.. لن يدخل أحدٌ النار إلا وعليه حُجة من الله.

والمقصود هنا أن يأتيه أمر الله أو رسالته ثم **يُعرِض عنها أو يجحدها** أو يتكبر، وبذلك فإن مَن لم تصله رسالات الله أو الإسلام، أو وصله منقوصًا أو مشوهًا - كما يفعل **أكثر الإعلام الغربي اليوم** - فلا نحكم علىٰ شخصه وعينه بجنة ولا نار **حتىٰ يمتحنه الله تعالىٰ** فهو أعلم به. وتسري عليه أحكام الكافرين في الدنيا شرعًا لكي تتحدد معاملاتنا معه (مثل مسائل الزواج، والميراث، وغيرهما).

*** وأما عن رؤية الظلم في دخول غير المسلمين أصحاب الأخلاق النار:**

فهذا خلل في مفهوم (**العدل الإلهي**) لدىٰ مَن يزعم أنه مسلم (ملتزم)، **فمن جهة شرط دخول الجنة**: فإن مَن يدخل النار لم يأت الله تعالىٰ **بما طلب منه** ألا وهو الإيمان به ربًّا خالقًا وإلهًا مُطاعًا، تخيل أنك اشترطت لدخول مكان ما شيئًا معينًا **في مقدور الجميع الإتيان به** لكن بعض الناس تكبروا عنه وأتوا بكل شيء ما عدا هذا الذي اشترطته أنت!

بل تخيلوا شخصًا حسن الخلق مع الناس كلهم لكنه **لا يعترف بوجود أبيه وأمه** اللذين أحسنا إليه! فماذا أفاده حُسن خلقه هنا وهو مُضيِّع للأصل؟

وأما من جهة العلم: فالله تعالىٰ أعلم منا بمكنونات كل نفس

وهل تستحق دخول النار أم لا (حتىٰ إنَّ من المسلمين مَن سيدخلون النار لقضاء ما عليهم من حقوق وذنوب لم تتجاوزها حسناتهم، ثم يخرجون منها إلىٰ الجنة أو بسبب إيمانهم)، وقد تكرر التعبير القرآني لتذكيرنا بالفارق بين علم الله وعلمنا في أكثر من موضع مثل قوله سبحانه:

- ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١٦).
- ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٣٢).
- ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٦).
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (النحل:٧٤).
- ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (النور:١٩).

وهنا ملحظ هام قلَّما يتوقف معه أحد وهو:

ليس بالضرورة عدم ظهور أخلاق سيئة من شخص غير مسلم أن تكون هذه هي حقيقته بالفعل، فقد يكون **مُضمرًا للشر في قلبه وعقله ولم تتحين له الفرصة لإظهاره**، فقد يكون حُسن خلقه لكسب حُسن السيرة بين الناس لا أكثر ولا أقل (رياء)، أو يكون مُداراةً أو نفاقًا، أو يكون جُبنًا وخوفًا من أن يُظهر حقيقته بين مَن هم أقوىٰ منه، وبالطبع لا نقول إن كل الكفار أو الملاحدة أو غير المسلمين عمومًا كذلك ولكن...

مَن يضمن لك أنهم لو امتلكوا القوة والسلطة والبطش لم يفعلوها؟ خاصة وهم بعيدون كل البُعد عن الوحي الديني الصحيح؟

ألم يرفضوا رسالة الله بعد أن عقلوها؟ **(نتحدث هنا عن الصِّنف الذي رفض الإيمان بجحود).**

أليس الله هو مصدر الخير؟ فهل مثل تلك الأنفس تمثل الخير إذا جحدته؟

إذن.. لا تدري..

فالنفس الإنسانية معقدة جدًّا للأسف ومتراكبة **وعميقة بعمق الكون!**

والله تعالىٰ كما يقول العلماء: «**يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مُجمع عليه عند أئمة السُّنَّة والجماعة**»[1].

وكم من مسلمين عاشوا في سلامٍ وبِرٍّ بجوار **أهل الذمة** من الكافرين – النصارىٰ أو اليهود – لقرون؛ حافظين لحقوقهم، عادلين في تعاملاتهم، حتىٰ إذا ما دخل **المستعمر الأجنبي الكافر** انضم إليه هؤلاء **عونًا** علىٰ جيرانهم المسلمين! **ويدًا للبطش بهم وخيانتهم!** وبالطبع لا نعمم هذا التصرف أو الغدر والخيانة (فليس كل كافر هو سيء في الأصل وإلا ما كان منهم مَن يقبل الحق ورسالة الله ويتحول إليها) لكنه بيان **لخداع المظاهر..**

فأين الوجوه المُبتسمة؟ وأين الجيرة، وحقوق المساكنة،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، سورة العنكبوت، الآية (٣)، وقد ذكر ذلك النووي في شرحه علىٰ صحيح مسلم، وابن تيمية في فتاويه، وابن القيم في نونيته، وغير ذلك كثير.

والتعايش لقرون من الزمن؟ وأين مَن كنت لا ترىٰ منهم إلا كل مظاهر البِرِّ والسلام؟!

كلها تلاشت وتبخرت في سويعات.

العجيب أنَّه في إحدىٰ التجارب الأمريكية، قامت البحرية بتمويل اختبار أكاديمي لمعرفة **أسباب الصراعات التي تقع في السجون لديها بين المسجونين وحراسهم**، وبالفعل قام الدكتور **فيليب زيمباردو** Philip Zimbardo من جامعة ستانفورد بالإشراف علىٰ تجربة من تصميمه عام ١٩٧١م، حيث تم فيها تأجير متطوعين وتقسيم الأدوار بينهم (**مسجونين وحراس**) مقابل ١٥ دولارًا في اليوم (تعادل ٧٥ دولارًا تقريبًا في زمننا هذا)، حيث تم إعطاء **الضوء الأخضر بالكامل** للحراس ليفعلوا أي شيء مع المسجونين **بعيدًا عن أية مساءلة** (وهو وضع يقارب ما يحدث غالبًا في الجيش والسجون والمعتقلات التي تغيب فيها مسؤولية المراقبة والحساب).

وكانت المفاجأة.. سرعان ما تحولت شخصيات الحراس إلىٰ **السادية والتلذذ بتعذيب المسجونين وإهانتهم والسخرية منهم بمرور الوقت**؛ رغم أن منهم مَن هم زملاؤهم بالفعل في العالم الخارجي قبل هذه التجربة!

التجربة معروفة وشهيرة باسم **«تجربة سجن ستانفورد»**[1] Stanford prison experiment، وقد بلغت الإهانات والتجاوزات أن

---

(١) يمكن مطالعة القصة كاملة من الموقع التالي: www.prisonexp.org

المسجونين كانوا يصرخون مطالبين بإيقاف التجربة (بعض هذه المقاطع مسجلة ومنشورة في الإنترنت واليوتيوب)، وهكذا خرجت التجربة عن السيطرة ليتم إيقافها بالفعل بعد ٦ أيام فقط (من ١٤ إلىٰ ٢٠ أغسطس ١٩٧١م).

ومع قضايا انتهاكات سجن (أبو غريب) بعد الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م والتشكيك في صِدْق التُّهَم الموجَّهَة إلىٰ بعض الجنود الذين تم تعيينهم حراسًا ثم قاموا بعمليات تعذيب وممارسات سادية في حق المسجونين لدرجة تصويرهم معهم أثناء ذلك، تم استدعاء الدكتور فيليب زيمباردو إلىٰ المشهد الإعلامي من جديد ليشهد بأنه حسب تجربته فإن ذلك صحيح (أي إمكانية تحول جنود أو أشخاص ليقوموا بأفعال تعذيب مَشِينة ضد ما كانت عليه شخصياتهم من قبل).

والشاهد - حتىٰ لا نطيل أكثر من ذلك - أنَّ هناك عدة عوامل تساعد علىٰ تقبُّل مثل تلك الشبهات في مسألة دخول غير المسلمين النار، منها:

- المثالية الزائدة في تصور نهاية سعيدة للجميع حتىٰ الظالمين.
- الجهل بعدل الله تعالىٰ وسوء الظن به.
- الجهل بشرط دخول الجنة والنجاة من النار وهو الإيمان والتوحيد.
- الشفقة والرقة الزائدة التي تتعاطف مع مَن جحدوا الحق إذ جاءهم.

١٣- عذاب النار أبديٌّ، والكفر في الدنيا محدود!

شبهة أخرىٰ قريبة من المسألة السابقة أو مرتبطة بها وهي الاعتراض علىٰ أن يكونَ عذابُ النار **أبديًّا**، في حين أن ذنب الكفر في الدنيا كان **محدودًا**، وهنا يمكننا الرد علىٰ المتأثرين بهذا الفكر العاطفي بأكثر من نقطة منها:

أولًا: ذنب الكفر هو في حق الله تعالىٰ العظيم، وقد أنذر الكافرين به بهذا العذاب وحذَّرهم منه، ورغم ذلك وقعوا فيه، فمَن نلوم؟ يقول ﷻ:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (آل عمران:٢٨).

ويقول:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ (الزمر:١٦).

فإذا كنت مؤمنًا بالله ومؤمنًا بحقيقة **ما حذَّرَنَا منه** فلماذا كفرتَ وعرَّضتَ نفسك له ثم الآن **تسأل وتستنكر وتعترض**؟ أما إذا كنتَ لا تؤمن بوجود الله - كما تزعم - فلماذا تشغل نفسك بجدالٍ عن عذاب النار الذي **لا تؤمن بوجوده**؟

ثانيًا: هذا الذي مات علىٰ الكفر أو الإلحاد في دنياه المعدودة المحدودة هل مات وكان في نيته أن يؤمن؟ أم مات وفي نيته الاستمرار علىٰ كفره أو إلحاده مهما عاش إلىٰ الأبد؟ فإذا كان في نيته أن يؤمن صدقًا وعزمًا ففي قلبه خير لن يُضيعه الله **(ولعله أشبه بالحديث**

الصحيح عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم مات وهو في طريق توبته، فطوىٰ الله له الأرض وتقبَّله وغفر له)، وأما إذا لم يكن في نيته الإيمان جحودًا مهما عاش إلىٰ الأبد فهل ظلمه اللهُ إذ صار عذابه أبديًا علىٰ جُرمه الأبديّ؟

ثالثًا: مَنْ قال مِن العقلاء أنَّ العقاب يجب أن يتساوىٰ مع الجريمة من حيث الوقت؟! هل القاتل أو السارق أو المغتصب يتم عقابهم **لدقائق فقط** مثلما قتل أو سرق أو اغتصب **في دقائق**؟ أم أنَّ الصوابَ **هو مناسبة العقاب للجريمة**؟

والسؤال: هل هناك جريمة هي أعظم من الكفر أو الشِرك أو إنكار وجود الخالق سبحانه؟!

أنت يمكن أن تسيء إلىٰ طفل وقد لا يهتم أحد، أو تسيء إلىٰ زميلك فتستوجب العقاب، أو تسيء إلىٰ مديرك، أو المحافظ، أو الرئيس، وفي كل مرة **العقاب يتضاعف** لتضاعف مكانة مَن أجرمتِ في حقه، والله تعالىٰ لا يناله منا الضرر لكن يناله منا الأذىٰ[1]؛ ولذلك

---

(١) ليس بالضرورة أن كل أذىٰ يتسبب في الضرر، فأنا يمكن أن أتأذىٰ من رؤية منظر قبيح في الطريق، أو شم رائحة سيئة في الشارع، لكن لا المنظر القبيح ولا الرائحة السيئة سببا لي ضررًا علىٰ الحقيقة، ومن هنا نجد دقة التعبير القرآني عندما يقول تعالىٰ في الأذىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٥٧). ويقول في الضرر: ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ (آل عمران: ١٧٦). وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح المتفق عليه قوله تعالىٰ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

قال تعالىٰ:

﴿ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (الأنعام:٢٧ - ٢٨)، ويقول العليم سبحانه:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:٩٩ - ١٠٠).

وهكذا نرىٰ تهافت هذه الشبهة إذا عرضناها علىٰ العقل والمنطق والقرآن، ومما يساعد علىٰ وجود مكان لها في قلب المسلم الملتزم:

- المثالية الزائدة التي تغض الطرف عن قدر الجريمة وتستعظم قدر العقاب.

- الرقة والشفقة الزائدة علىٰ الكافرين من عذاب النار.

- فقدان بوصلة القياس الصحيح في مسألة الجريمة والعقاب.

- عدم استحضار أهمية الإيمان بالله أعظم شيء في الوجود.

- تناقض الاعتراض علىٰ شيء يُفترض أن الملحد لا يؤمن به أصلًا!

١٤ - لماذا خلق الله الكافر وهو يعلم أنه لن يؤمن؟

أحيانًا قد يشعر المسلم أو المؤمن بشفقة علىٰ الكافر فيتساءل هو أو يسأله غيره: لماذا خلقه الله وهو يعلم أنه لن يؤمن؟ وكأنه بذلك

يشير بطريقة غير مباشرة إلىٰ ظلم الله له؛ فنقول:

الظلم هو أن تتخيل أن هذا الشخص (ليس في إمكانه) الإيمان لكن الله خلقه رغم ذلك، ساعتئذ سنقول لك فعلًا هذه صورة من صور الظلم، تمامًا كمَن يقطع يد شخص ثم يأمره بالتصفيق وسيعذبه إذا لم يصفق، أما أن يكون في مقدور الإنسان الإيمان لكنه يمتنع بإرادته وتقصيره أو جحوده: فهذا هنا هو المستحق للعقاب ولا ظلم. خصوصًا والله تعالىٰ خلق خلقه المُختارين كلهم للجنة في الأصل، للنعيم الأبدي، أي خلقهم للخير وليس للشر.

تخيل طالبًا بمقدوره أن يذاكر وينجح (وضع خطًا تحت كلمة: في مقدوره)، ثم أنت أدخلته المدرسة ليتعلم ويصير أفضل ويتخرج.. إلخ، والسؤال: هل يقول عاقل هنا أنك (ظلمته)؟

الإجابة بالطبع: لا.. فالظلم إذا كان هذا الطالب لا يمكنه الدراسة أو الاستيعاب ثم أنت أرغمته علىٰ الدراسة ثم عاقبته علىٰ رسوبه وفشله، أما إذا كنت تعلم أنَّ في مقدوره النجاح فأنت لم تفعل معه إلا الخير ابتداءً، لكنه من رفض الخير واختار الشر لنفسه أو لغيره، فلما لم يجد حُجة لتبرير ذلك عاد بالسبب إلىٰ الذي أحسن إليه ابتداء فخلقه/ أو أدخله المدرسة.. إلخ.

إذن..

المنطق كل المنطق ليس مع إدانة (المُحسِن) وإنما مع لوم (المُقصِّر) الذي يستطيع ألا يكون مُقصرًا، لوم (العاصي) الذي يستطيع

ألا يكون عاصيًا، لوم (الجاحد) الذي يمكن ألا يكون جاحدًا.

﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (التوبة: ٧٠).

والسؤال: كيف بمَن يؤمن **بعدل الله** أن يتوقع أنَّ اللهَ يظلم أحدًا؟

اللهم إلا **الجَبرية** ومَن لَفَّ لفَّهم ودار **في فَلَكِهِم** للأسف.

وقبل أن نذكر العوامل المساعدة علىٰ التأثر بهذه الشبهة أو المسألة دعونا نرفق بها مسألة أخرىٰ شبيهة ومن نفس الرحم الذي يمكن أن يُنجبها.

١٥ - لماذا يمد الله الكافرين في كفرهم؟

وهذه شبهة أخرىٰ قد تطرأ للشخص الملتزم بغير علم للأسف وإلا فلو كان يتدبر القرآن خير تدبر لعلم أن الله تعالىٰ لا يُحابي أحدًا، وأنَّ ما يفعله مع الكافرين **يفعل مثله تمامًا مع المؤمنين** ألا وهو:

تيسير طريق كل منهما فيما اختاره بنفسه لنفسه بحريته وإرادته **لا أكثر ولا أقل!** والشاهد: **أن الجزاء من جنس العمل.**

فكما قال في المؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد: ١٧).

حيث زادهم هداية في نفس طريق الهداية الذي **مشوا فيه بالفعل**، فإنه قال أيضًا في الذين جاءتهم رسالات الله **ففهموها** ثم تكبروا وجحدوا:

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ

حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (آل عمران:٨٦).

وهذا يعني أنه ليس كل غير مسلم يمده الله تعالىٰ في كفره؛ وإنما الذين جاءهم الحق وقامت حُجته عليهم فكفروا عن علم يقول الله تعالىٰ فيهم:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ (البقرة:١٠).

وقال سبحانه:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (الحشر:١٩).

وقال سبحانه أيضًا:

﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ (الأنفال:٢٣).

ومن هنا يمكننا فهم أفضل لقوله ﷻ:

﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ (المدثر:٣١).

فما من إنسان إلا واهتدىٰ بهداية الله له ابتداءً (أي توفير أسبابها) لقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴾ (الليل:١٢).

وكذلك ثباته علىٰ الهداية وزيادتها هو بتوفيق الله ودعاؤه له.

وفي المقابل: ما من إضلال إلا وبمشيئة الله وعدله، ولو شاء ألا

يضل الناس جميعًا لفعل، ولكن ساعتئذ لن يكون لإيمانهم قيمة، ولانتفت عنهم حرية الإرادة وحقيقة الاختبار كما ذكرنا بالتفصيل من قبل وبالآيات الدالة عليه.

ومن العوامل المُعينة علىٰ ظهور هذه الشبهات لدىٰ بعض الملتزمين:

- المثالية الزائدة في إحسان الظن بمَن كفر عن علم واختيار حر وإرادة.

- الرقة والشفقة الزائدة علىٰ الكافرين ومن عذاب النار.

- عدم استحضار معنىٰ عدل الله تعالىٰ والثقة الإيمانية الحقيقية فيه.

- قلة العلم الشرعي وقلة تدبر القرآن وآياته والتفكر فيها.

- عدم التفكر في فائدة الدعاء سواء من المؤمن بالثبات وزيادة إيمانه وهداه أو من العاصي أو الكافر لأن يهديه الله إلىٰ الحق.

١٦- حد الردة هل هو جبرٌ علىٰ الإيمان؟

شبهة أخرىٰ قد تصيب بعض الملتزمين ويظنون فيها **ظلمًا** آخر للذين يرتدون عن الإسلام أو جبرًا لهم عليه، ألا وهي شبهة حد الردة.

والحقيقة - بعيدًا عن ندرة تنفيذ **هذا الحد أصلًا** علىٰ مدار أكثر من ١٤٠٠ عام وإلىٰ اليوم، وبعيدًا عن التأصيل الشرعي لثبوتية حد الردة في القرآن والسُّنَّة (وهو عند المسلمين ثابت بالنصوص والأفعال

منذ الصحابة إلىٰ قُبيل عصر الانهزام النفسي والحضاري للمسلمين اليوم) - سوف نتناول الجزء **العقلي** فقط من المسألة لنرىٰ:

هل فعلًا يتناقض حد الردة مع **حكمة الله وعدله**؟

هل حد الردة أداة بالفعل **لجبر غير المسلمين علىٰ الإسلام**؟

وسأذكر هنا بعض النقاط للتفكر هي:

أولًا: مِن أسرع وأسهل طرق إظهار تناقض الشبهات بيان تعارض جوانبها مع بعضها البعض، مثلًا.. عندما يقول لك أحدهم أن الإسلامَ دين شهواني لا يرىٰ في المرأة إلا فتنة جسدها فتسأله: ولماذا **أوجب الحجاب** علىٰ النساء إذن؟ ولماذا لم يفتح الباب أمام الزنا والدعارة؟ بل ربط أي علاقة فيه **بالزواج**؟ هنا أنت ضربت **أصل الشبهة** تمامًا.

نفس الشيء سنطبقه مع حد الردة والزعم بأنه تم وضعه لـ(تكثير) عدد المسلمين مثلًا ومنع ردة أحدهم، وأيضًا لـ (إجبار) الناس علىٰ الإسلام فنسأل: لماذا قال الله تعالىٰ:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ولماذا لم تجبر الفتوحات الإسلامية البلدان التي دخلتها وتمكنت منها علىٰ أن تدخل جميعها الإسلام بحد السيف؟ فها هي الشام والعراق ومصر وكل ما حولها شرقًا من الصين إلىٰ إفريقيا والأندلس غربًا: لم يُسجل لنا التاريخ ولا المؤرخون أي (إجبار) مثل هذا علىٰ أهل تلك البلاد منذ دخلها الإسلام فاتحًا في القرن الأول

الهجري وإلىٰ اليوم (والواقع الحالي للبلدان العربية خير مثال).

يقول المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون Gustave Le Bon في كتابه الشهير (حضارة العرب) La Civilisation des Arabes:

«وسيرىٰ القارئ - حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم - أن القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبينَ أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغةً لهم؛ فذلك لِما رَأَوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثلَه من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارىٰ عربَ الأندلس فضَّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم علىٰ ترك الإسلام.

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها»[1].

بل العكس..

عندما وقع موقفٌ فيه إجبار لغير المسلمين - كما حدث من إحدىٰ الفرق الضالة عن الإسلام (وهم الرافضة العبيديون الباطنيون في مصر والذين تسمُّوا زورًا بالفاطميين) - فقد عدّ علماء المسلمين والقضاة ذلك الفعل خارجًا عن الإسلام، وهذا مثال من القرن الرابع

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون، ترجمة عادل زُعَيْتَر (ص١٣٤) طبعة مؤسسة هنداوي ٢٠١٣م.

الهجري عندما (أجبروا) بعض أهل مصر (**مسلمين ويهود ونصارىٰ علىٰ حد سواء**) علىٰ اتباع عقيدتهم الضالة.

يصف ذلك آرثر **ستانلي تريتون** A. S. Tritton - الأستاذ بجامعة لندن - في كتابه (**أهل الذمة في الإسلام**) Caliphs and their Non-Muslim Subjects بعد أن ذكر أكثر من حادثة تاريخية من أيام الصحابة والخلفاء في إقامة حد الردة علىٰ مَن دخلوا الإسلام **باختيارهم ثم ارتدوا عنه**، ليوضح لنا أن الأمر يختلف عن **مَن لم يدخل الإسلام باختياره**، حيث ذكر عودة عدد من اليهود والنصارىٰ إلىٰ دينهم بعد إجبارهم في مصر: دون أن يُنظر إليهم علىٰ أنهم مرتدون أو مستحقون لحد الردة (وخصوصًا في عهد الخليفة **الظاهر** رحمه الله سنة ٤١٨ هـ).

وكذلك ذكر الدكتور **تريتون** واقعة اليهودي **موسىٰ بن ميمون** عندما فَرَّ من الأندلس إلىٰ مصر فرجع إلىٰ يهوديته، ولم يعتبره القاضي عبد الرحمن البيساني مرتدًّا، بل قال: «**رجل يُكرَه علىٰ الإسلام، لا يصح إسلامه شرعًا**»! فعلَّق عليها الدكتور تريتون قائلًا: «**وهذه عبارة تنطوي علىٰ التسامح الجميل**»[1].

فالإسلام لو كان يبحث عن (تكثير) أعداد أتباعه بهذه الطريقة أو (الإجبار) علىٰ الدخول فيه لنقل إلينا المؤرخون من غير المسلمين

---

(١) انظر: «أهل الذمة في الإسلام» تأليف: دكتور أ. س. ترتون، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، (ص٢١٤ - ٢١٥)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

وغير العرب مئات بل آلاف الوقائع في ذلك: وهو ما لم يحدث.

ثانيًا: ما لا يتم إبرازه إلىٰ الآن هو أن **الإسلام ليس دينًا فقط**، إنه ليس منهجًا **علمانيًّا** يفصل الدين عن الحياة وإنما: هو **دينٌ ودولة**، دينٌ ونظام حكم، دينٌ ونظام كامل من المُعاملات علىٰ مستوىٰ الفرد والأسرة **والمجتمع**، فهو من هذه الجهة مثله مثل أي نظام حُكم يَعرفه العالم منذ آلاف السنين وإلىٰ اليوم، **والسؤال**: هل رأيتم عاقلًا يعترض علىٰ نظام حُكم يحمي نفسه ومجتمعه بقوانين؟

هل رأيتم عاقلاً يعترض علىٰ نظام حُكم له (**خطوطه الحمراء**) اجتماعيًا أو دينيًا أو سياسيًا؟

وبينما الإسلام يواجه المُرتدين بالحوار والحُجج **بأكاذيبهم** فإن أكثرهم يتهرب من الرد أو المناظرة (يريدون فقط حرية نشر جهالاتهم وأكاذيبهم علىٰ الناس لأغراض سنذكرها بعد قليل) ولكن بالنظر إلىٰ أرقىٰ دول العالم الغربي (من المفترض) نجدها تقوم **بما لا يقاس معه حد الردة ولا غيره** ودون أي اعتراض! ففي أغلب تلك البلدان مثلًا يتم إيقاف واعتقال (**وربما قتل**) كل مَن يثير **الفتنة والقلاقل** في المجتمع، أو ينادي **بعكس ما ينتهجه المجتمع** وحكومته من اتجاهات فكريَّة عامة، ولا يتم الالتفات وقتها إلىٰ الشعارات الرنانة أو الجوفاء عن **حرية التعبير** أو **حرية الإنسان**!

فها هي **فرنسا** بمجرد تعرضها لحوادث ما تصفه بـ (الإرهاب) تعلن **حالة الطوارئ**، ومعها هذا الخبر من نوفمبر ٢٠١٥م من قناة

فرانس ٢٤[1]:

«فرنسا ستخالف الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان بسبب حالة الطوارئ».

فيكفي وصف أي فكر أو نشاط بـ (**الإرهاب**) أو وقوع (**أحداث العنف**) للخروج عن أي بروتوكولات لحقوق الإنسان عالمية كانت أو محلية **لحماية المجتمع**، وها هي رئيسة وزراء بريطانيا تيريزا ماي تصرح بأنها:

«ستمزق قوانين حقوق الإنسان في بلادها من أجل محاربة الإرهاب»[2].

May: I'll rip up human rights laws that impede new terror legislation

وقبل أن يذهب تفكير أحدهم بعيداً مع كلمة (**الإرهاب**) التي ذكرتها، فإن الأمر سيان لديهم حتىٰ لو قتلت (**الأبرياء**) أي المدنيين والعُزل! حيث لمَّا تم سؤالها إذا كانت ستمتنع عن استخدام القنبلة النووية لقتل مئة **ألف من الأبرياء**؟ فأجابت بأنها لن تمتنع، لأن هذه الأسلحة جُعلت ليعرف أعدائهم أنهم سيستخدمونها[3].

---

(١) رابط مختصر: goo.gl/DDshG3 ويمكن البحث بالعنوان في حال تغير الرابط.

(٢) العنوان الإنجليزي من الجارديان، والعربي من سكاي نيوز العربية: goo.gl/9vFxPc.

(٣) الرابط من موقع الإندبندنت البريطانية بتاريخ ٢٠١٦م وبه مقطع فيديو كلامها:
www.independent.co.uk/news/uk/politics/theresa-may-trident-debate-nuclear-bomb-yes-live-latest-news-a7143386.html

وهناك دول أوروبية أخرىٰ تحظر حظرًا تامًّا التعرض للعائلة المالكة بالسخرية أو التنقص (في حين يبيحون ذلك علىٰ نبي الإسلام بدعوىٰ حرية التعبير)! وها هي أمريكا تحظر أي نشاط رسمي لنشر الفكر الشيوعي والاشتراكي المعادي للرأسمالية (رغم أنه فكر من الأفكار أو مُعتقد من المعتقدات).

بل وبالعودة إلىٰ فرنسا (بلد الحريات والقوانين) يُمنع منعًا باتًّا التشكيك (مجرد التشكيك) في الهولوكوست اليهودي Holocaust، أو التشكيك في أعداد اليهود فيه والتي يبتزون بها العالم وأوروبا إلىٰ اليوم![1] وكذلك تهمة (معاداة السامية) Anti semitism جاهزة ومعلبة لمَن يمشي عكس التيار وينتقد اليهود في صغير أو كبير[2].

إذن موضوع تقديس الحريات هذا لا نجده إلا في بلاد الإسلام عندما يوجهون لها شبهات مثل حد الردة، إذ العالم الغربي يصنع (صنم) الحريات من العجوة حتىٰ إذا جاع كان أول مَن يأكله ولا يبالي.

وهذا يفسر كلامي في أول هذه النقطة عن أن مثل هذه الشبهات

---

(١) ومن ضحايا ذلك المشهورين سواء بالحبس أو حظر كتبهم أو دفع الغرامات أو إلغاء الدرجات والألقاب العلمية: المفكر والمؤرخ (روجيه جارودي)، المؤرخ (هنري روكيه)، السويسري (رينيه لويس بيركلاز)، البلجيكي (سيغفريد فيربيكيه)، البريطاني (ديفيد ايرفينغ)، الألماني (إرنست ذوندل)، حيث حوكموا بما يسمىٰ بقوانين إنكار الهولوكوست Laws against Holocaust denial.

(٢) مثل السابقة، وتسمىٰ قوانين معاداة السامية Global Anti-Semitism Law.

(أي حد الردة) لم يكن لها وزن قبل عصر (الانهزامية النفسية) الذي نعيشه اليوم، فالمجتمع (القويّ) الذي يرفض أي فتن أو قلاقل داخله لا يحتاج لتبرير ما يحكم به علىٰ مَن يراهم يشقون الصف بأفكار مرفوضة بداخله.

وهذه الصين تصنع ما بدا لها من اشتراكية وإلحاد واضطهاد للمسلمين والمؤمنين.. أمريكا تصنع ما بدا لها ولو خالفت الأمم المتحدة بأكملها وكل المواثيق (وما إعلانها القدس عاصمةً لإسرائيل في ديسمبر ٢٠١٧م منا ببعيد)! وهكذا أي دولة قوية في العالم قديمًا أو حديثًا كما قلنا، وعليه: لماذا لا يحق للدولة الإسلامية ذات الأغلبية المُسلمة ألا تقبل بوجود المرتدين بها؟

أشخاص جاهلون لا يملكون إلا تكرار شبهات تم الإجابة عنها مئات المرات من قبل: ينخرون في جسد المجتمع المسلم بين عوامِّه وبُسطائه وأطفاله ومراهقيه وشبابه ممَن ليس لديهم علم بالرد علىٰ الشبهات، في حين يتهربون من أي حوار أو مناظرة جادة أو مع متخصص يفضح جهلهم أو عمالتهم بأجر؟!

بل..

نجد في الإسلام أنه لا يُحكم بقتل المرتد مباشرة، بل يجلس معه أولًا بعض أهل العلم من المختصين ليحاورونه ويردون شبهاته ويجيبون عليها، سواء طالت مدة ذلك أو قصرت (ولم يأت نص شرعي يحددها بثلاثة أيام فقط كما يشيع البعض)، بل تطول مهما

طالت إذا رأىٰ ذلك ولي الأمر أو القاضي أو العلماء المُخصصون للحوار معه؛ فالإسلام دين صلاح وإصلاح لا يتشوف للقتل ولا يتسرَّع فيه.

ثالثًا: هذا الخوف من الردة يمنع غير المسلم من **الاستخفاف** بالدخول في الإسلام وهو يعلم **العواقب**، وإلا تخيلوا مكر **أهل الكتاب** من اليهود والنصارىٰ وغيظ قلوبهم عندما يعلن أحدهم اليوم **دخوله** الإسلام، ثم يعلن **ردته غدًا** ليشيع الأكاذيب والشبهات عنه وأنه وجده كذا وكذا.. هذه النية الخبيثة المُبيَّتة لصد المؤمنين قد فضحها الله تعالىٰ في قُرآنه إذ يقول:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢).

وقد قابلت بنفسي عمليًّا من هذا الصنف منذ قرابة العام (في ١٤٣٨)، حيث أتلقىٰ طلبات صداقة علىٰ **الفيسبوك** يوميًّا من أناس وشباب لا أعرفهم فلا أرفض منها إلا ما كان واضح **الانحلال الأخلاقي** في صورته الشخصية (البروفايل) أو صفحته، أما غير ذلك من نصارىٰ وملاحدة ومتشككين وغيرهم فأقبله عسىٰ أن يجعلني الله **سببًا** في هدايته، وفي أحد الأيام قبلتُ صداقة شاب نصراني من صعيد مصر، أخبرني أنه يفكر في الإسلام، وأنه يعاني من مظاهر **الشرك** في النصرانية من تماثيل وصور في الكنائس ودعاء غير الله.. إلخ، ودار بيننا حوار سريع عرَّفته فيه بمبادئ التوحيد في الإسلام وما عليه فعله

إذا أسلم وهكذا.. فغاب قليلًا، ثم عاد معلنا **إسلامه** (وكان حوار علىٰ البريد الخاص بيني وبينه)، فحمدتُ الله وهنأته، ثم غاب قليلًا (وكأنه توقع أن أنشرَ الخبرَ علىٰ صفحتي والمجموعات كما يفعل بعض الإخوة ليُفرح المؤمنين)، لكني لم أفعل، فأنا لا أعرفه أصلًا! فعاد بعد قليل وأخبرني أنه يريد **نشر** خبر إسلامه، فقلتُ له: لا تتعجل وادرس الإسلام جيدًا قبل الدخول فيه، اسألني ما شئتَ عنه، فأخبرَني أنه مقتنع تمام الاقتناع، فقلت له إذن: **فلتنشر خبر إسلامك بنفسك إذا أردت** (يعني علىٰ حسابه الخاص)، فقال: أنه **يريدني أنا أن أنشره**، فقلت له في صراحة ووضوح: كيف أنشره **وأنا لا أعرفك أصلًا** إلا هذا اليوم منذ ساعات؟! ولماذا اخترتني أنا؟

فقال لي أنه رأىٰ (البروفايل) الخاص بي وظهر في صورتي أني (**شيخ**)، وأني لو أعلنت إسلامه سيكون الوقع مختلفًا عمّا إذا أعلنه هو، فأخبرته أني لو كنت مكانه **لما اهتممت بموضوع إعلان إسلامي** بقدر ما اهتممت أولًا بزيادة التعرف علىٰ الإسلام وكيفية تزكية نفسي.

وهكذا دار حوار غريب علىٰ هذا المنوال (ولم يكن يخالجني شك آنذاك أنه مدلس يريد فتنة المسلمين ويظنني مبتدئًا يخدعه)، بل لاحظتُ أن نبرة حواره اشتدت، وبدأ يستفزني في الكلام حتىٰ **أرد عليه بطريقة غير لائقة**، فلم أزد إلا تجاهلًا له خاصة أنَّ ورائي ما ورائي من أعمال ومشاغل، ولله الحمد.

ثم فوجئتُ به وقد دخل حسابي **ليشتم الإسلام** وأنه دين كذا

وكذا، وتغير حاله وكلامه ١٨٠ درجة كما يقال، ولم أرد عليه أيضًا، لكني اكتفيتُ بجملةٍ واحدةٍ في النهاية وهي:

«أرأيت لماذا لم أعلن إسلامك»؟!

فاختفىٰ بعدها وأغلق حسابه في الفيسبوك.

رابعًا: أنا باعتباري مسلم أحمد الله تعالىٰ أن جعل أمر الردة له هذا السياج من الرهبة الدينية والمجتمعية، وإلا فتخيلوا مئات المراهقين والشباب الذين هداهم الله تعالىٰ علىٰ يدي ويد إخواني من المحاورين والدعاة: وقد أعلن كل منهم إلحاده أو ردته أو تنصره مع أول شبهة تخدعه؟!

ألا تعلمون أن أكثر البشر إذا (**أعلنوا**) مواقفهم أمام الناس ألزمتهم بعد ذلك ولربما (استحيوا) أن يتراجعوا عنها أو يعلنوا (**خطأهم**) إلا مَن رحم الله؟!

أمَّا وهذه الشكوك طي نفسه في الخفاء فنحن نحاوره فيها حوار الرؤوف بأخيه أو بأخته، ونرفق به حتىٰ يرىٰ الحق بإذن الله، **فلا تضره بعد ذلك** تلك الفترة من حياته حيث لم يعرف الناس بها. بل وأكثرهم يصبح مسلمًا عن علم ويقين أقوىٰ مما كان عليه من قبل.

فالذي يريد أن يرتد أو يُلحد وهو باقٍ بين أظهر المسلمين ومجتمعهم **فليخفي ذلك تحسبًا للوشيج المجتمعي الذي ينتمي إليه**، وإلا فليخرج منهم. فوالله ما رأيت مرتدًا متشككًا جاهلًا أو مغرورًا إلا وهو ينشر ما عنده من ضلالات علىٰ مَن حوله من زملاء أو حتىٰ أهل

وأقارب، يظن المسكين بذلك أنه (ينورهم) مثلما تنور!

ومعلوم أنه ما أسهل طرح الشبهات في جملة واحدة، وما أحوج الرد لعلم ولصفحات! تخيلوا مثلًا شخصًا يقول: لا حاجة لوضع حديد التسليح في السقف الخرساني والكمرات! فهذه الجملة الصغيرة التي يمكن أن يقولها أي جاهل تتطلب لبيان خطئها رد شخص متخصص قد يصل إلىٰ صفحة أو صفحتين؛ فتخيلوا لو تركت الدولة لأمثال هذا الجاهل الباب مفتوحًا ليتكلموا بغير علم في الطب والتجارة والطقس.. إلخ ألن يسببوا بلبلة وفتنة وتخبطًا للناس؟

والسؤال:

هل توصف الدولة بعد ذلك بالتعسف أو التضييق علىٰ حرية الرأي أو التعبير إن أسكتتهم أو حبستهم أو حتىٰ طردتهم لتخليص المجتمع منهم؟

فإذا كان هذا في الأمور الدنيوية فما بالنا في أمر الدين الذي هو أهم شيء في الحياة عمومًا وعند المسلمين خصوصًا؟

بقي شيءٌ أخيرٌ في هذه النقطة هو:

كما رأينا منذ قليل أن إطلاق الشبهات لا يتطلب إلا سطرًا واحدًا من الجهل، وأما الرد عليها فيحتاج تخصصًا لكل نوع منها، ومما يُساء استخدامه للأسف هو تعمد بعض الجهات الإعلامية تصدير شيخ (شرعي) للرد علىٰ شبهات (علمية) لملحد في الفيزياء أو الأحياء، أو تصدير دكتور (علمي) للرد علىٰ شبهات (شرعية) لملحد في القرآن

والسنة والفقه، والله المستعان[1].

ومما يساعد علىٰ وصول هذه الشبهات للشخص الملتزم في هذه المسألة:

- **المثالية الزائدة في تصور حال المرتدين من صدق وعلم.**
- **الرقة والشفقة الزائدة علىٰ الكافرين.**
- **اهتزاز العدل الإلهي في عين المسلم وتصوره صدور الظلم من الله.**
- **الشك في حدود الدين الثابتة شرعًا (وفي السُّنَّة والأحاديث خصوصًا).**
- **قلة الخبرة بأحوال المرتدين وخطورتهم علىٰ العامة والبسطاء.**

١٧- توهم الدموية والوحشية في الإسلام:

يظل المسلم الملتزم هانئًا بدينه وهو يرىٰ فيه الدين **المثالي** إلىٰ أن يصدمه أحدهم باتهاماته عن **دموية ووحشية الإسلام**، خاصة عندما يتخذ بعض الجرائم الفردية أو لبعض **الجماعات** دليلًا علىٰ اتهاماته، ساعتئذ يبدأ بعض المسلمين الملتزمين **في التشكك** في صحة الدين، في

(١) وأشهد أني طيلة ٨ سنوات لم أر إلا أشخاصًا معدودين علىٰ أصابع اليد ممَن جمعوا بين العلم الطبيعي والعلم الشرعي، فهم أندر من الكبريت الأحمر، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه وتخصصه فلزمه ولم يُحرج نفسه ويشوه صورة الإسلام في شخصه بكلام هزيل ليس في مجاله.

حين لو كان لديهم أقل قدر من العلم الشرعي أو العلم بسيرة النبي ﷺ لتساقطت أمثال هذه الشبهات أو ربما لم تجد لها مكانًا في قلبه وعقله من الأصل[1].

تمامًا مثلما تعرف الأخلاق العالية لأخيك أو صديقك وقد عاشرته طيلة حياته ثم يأتيك أحد الجهال أو النكرات ليطعن أمامك في أخلاق أخيك أو صديقك، فهل ستعيره أدنىٰ انتباه أصلًا؟ هذا هو حال صاحب العلم بدينه وسيرة نبيه ولم يكتف بالالتزام البسيط فقط.

ولعلي هنا سأمارس نفس القاعدة التي حدثتكم عنها منذ قليل وهي كشف تناقض الادعاءات مع ما هو معلوم من الدين في الأصل.. لن أحدثكم عن أحاديث ضعيفة أو مُنكرة أو موضوعة مكذوبة تطعن في النبي وصحابته، بل سأحدثكم عن بعض مظاهر الرحمة في الإسلام وتعاليم النبي حتىٰ مع الحيوانات التي يستخف بها كثير من البشر.

فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر: جاء النهي عن القتل بالتعذيب، أو نيل الحقوق بالتعذيب، بل وجاء النهي عن تعذيب الحيوانات لمجرد

(١) ذكرني ذلك بعشرات الحوارات والمناظرات التي خُضتها أو دعِيتُ إليها مع شباب متشكك في الإسلام بعد قراءته لبعض شبهات النصارىٰ والملاحدة، فلما بدأتُ الحوار وأخذت أنفي كل شبهة فيها عن الإسلام بحقائق ثابتة وأحاديث صحيحة من الدين سرعان ما ينقلب الحوار أو المناظرة إلىٰ درس ديني في سيرة النبي عندما يكتشف الجميع أن الشاب - أو الفتاة - لم تكن تعرف من الإسلام وحال النبي وأخلاقه شيئًا أصلًا! وهذا ما جنيناه من التقصير في التعليم الديني في البيت والمسجد والمدرسة وقنوات التلفاز الرسمية للأسف.

اللهو واللعب، وكذلك النهي عن **قتل ما لا يوجد ضرورة لقتله! فقد مر ابن عمر** ﵄ فرأى فتيانًا **نصبوا طيرًا يرمونه**، فقال: «إن رسول الله ﷺ **لعن مَن اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا**». (أي هدفًا للتصويب عليه لمجرد اللعب بالرمي بالنبال وغيرها)[1].

كما مرّ النبي ﷺ على حمارٍ قد **وُسِمَ في وجهه** (أي تم حرقه في وجهه بعلامة لتمييزه) - كما في «صحيح مسلم» - فقال: «**لعن الله الذي وَسَمَهُ**».

أيضًا روى البخاري ومسلم عنه ﷺ: **نهيه عن أن تُصبر البهائم** (أي يتم حبسها حتى تموت). ولعلنا هنا نذكر الحديث الصحيح الشهير المتفق عليه وهو قول النبي ﷺ:

«**عُذِّبَت امرأةٌ في هِرَّة** (أي قطة) **سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسَقَتْهَا إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**».

وكذلك في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) الذي سنذكره الآن هو أمثلة قليلة فقط من الأحاديث التي تتعرض للقتل والتعذيب، حيث تم استبعاد الأحاديث الكثيرة الأخرى عن رحمة الإسلام عمومًا ورحمة الرسول ﷺ بالبشر والحيوانات، وهذا الحديث والأحاديث التي تليه منقولة من كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي ﵀ - باب النهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد - (ص٢٨٠).

«بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منه ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرىٰ من العطش (لأنه لا حيلة له في بلوغ الماء مثل الإنسان)، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه (أي الذي يلبسه في قدمه) ثم أمسكه بفيه (أي بفمه)، ثم رَقَىٰ (أي تسلق البئر) فسقىٰ الكلب، فشكر الله له، فغفر له (أي غفر الله للرجل بصنيعه هذا)، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر».

وقد روىٰ أبو داود في «سننه» (وصححه الألباني) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

«كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة (وهي طائر صغير) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرةُ فجعلت تفرِش (أي ترفرف بشدة حولهم)، فجاء النَّبي ﷺ فقال: مَنْ فَجَعَ هذه بوَلَدِهَا؟ رُدُّوا ولدها إليها، ورأىٰ قَرْيَةَ نَمْلٍ قد حرقناها، فقال: مَن حرَّق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنَّه لا ينبغي أن يُعَذِّبَ بالنَّار إلَّا ربُّ النَّار».

وصدق الله العظيم الذي وصف رحمة رسوله بالعالمين جميعًا قائلًا:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

فإذا كان ذلك في الحيوانات، فما بالنا بالبشر؟

روىٰ الإمام مسلم في صحيحه عن هشام بن حكيم بن حِزَامٍ ﷺ

أنه مر بالشام علىٰ أُنَاسٍ من **الأنباط** (أي الفلاحين من عَجَمِ هذه المنطقة غير العرب)، وقد أُقِيمُوا في الشمس **وصُبَّ الزيتُ علىٰ رؤوسهم** (أي لكي يغلي في حرارة الشمس فيحرق رؤوسهم كنوع من التعذيب)، فقال: ما هذا؟ قيل: يُعذبون في الخراج (وفي رواية: حُبسوا في الجزية). فقال هشام: «**أشهد لسمعت رَسُول اللهِ ﷺ يقول: إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**» فدخل علىٰ الأمير فحدثه، فأمر بهم فخلوا (أي خلوا سبيلهم).

بل وحتىٰ في المعركة والقتال التي يستغل **ظروفها** أكثر الناس فلا يلتزمون فيها بالأخلاق والقيم، انظروا لهذا الحديث العظيم كما في «صحيح مسلم»:

«كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر (أي عيَّن) **أميرًا علىٰ جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال:**

اغزوا باسم الله، في سبيل الله (أي الدافع ابتداءً هو سبيل الله، وليس الدافع المال ولا المطامع الدنيوية)، **قاتلوا مَن كفر بالله** (أي ويحاربكم، أو يمنع دعوة الله من دخول بلاده)، **اغزوا ولا تغُلّوا** (أي لا تأخذوا من الغنائم في الخفاء والسر)، **ولا تغدروا** (أي لا تغدروا بمَن استأمنكم)، **ولا تمثِّلوا** (أي لا تشوهوا الجثث والقتلىٰ)، **ولا تقتُلوا وليدًا** (إذ لا يد له في الحرب)».

وكذلك روىٰ أبو داود في «سننه» (وصححه الألباني) عن رباح بن ربيع قال:

«كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأىٰ الناس مجتمعين علىٰ شيءٍ، فبعث رجلًا فقال: انظر علام اجتمع هؤلاء؟! فجاء، فقال: علىٰ امرأة قتيل (أي مقتولة)، فقال: ما كانت هذه لتقاتل (أي هذه أضعف من أن تشارك في قتال) قال: وعلىٰ المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلًا فقال: قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عَسِيفًا (وهو الأجير الذي يعمل في الأرض ولا دخل له بالقتال)».

بل وحتىٰ كيفية القتل نفسها قد تدخَّل فيها الإسلام ولم يتركها لوحشية العقول المجرمة التي تقتل بأبشع الطرق والوسائل (مثل القتل حرقًا أو الإبادة الجماعية من تجويع ونحوه، ومثل الأسلحة البيولوجية والكيماوية والعنقودية والنووية فتهلك الحرث والنسل)[1]!

حيث أمر النبيُّ المسلمينَ أن يُحسِنوا القتل (أي بالقتل السريع الذي لا تعذيب فيه ولا إطالة ألم)، والأمر نفسه في ذبح الحيوانات

---

(١) يكفي أن ٧ أشخاص فقط من مجرمي المادية والإلحاد قتلوا في قرن واحد قرابة ١٢٠ مليون إنسان بأبشع الطرق والإبادات الجماعية، هذا غير المُصابين والمهجرين والمفقودين! وهم: جوزيف ستالين - ماو تسي تونج - أدولف هتلر - شيانغ كاي شيك - فلاديمير لينين - هيديكي توجو - بول بوت، وذلك كما وثقه تشارلز فيليبس Charles Philips وآلان أكسيلرود Alan Axelrod في موسوعتهما التاريخية الكبيرة من ٣ أجزاء في ٢٠٠٤م بعنوان (إنسيكلوبيديا الحرب Encyclopedia of war):

Encyclopedia of war-3 volume of set by charles philips and Alan Axelrod, 2004.

والتي - بالمناسبة - ظهر فيها أن نسبة الحروب لأسباب دينية لا تتجاوز ٧٪ من حروب العالم، وليس كما يشيع الملاحدة واللادينيون لتشويه صورة الدين.

لأكلها، فقال كما في «صحيح مسلم»:

«**إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحسانَ علىٰ كلِّ شيءٍ** (أي فعله علىٰ أحسن وجه وأكمله)، **فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذَبَحْتُم فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أحدُكم شفرته** (يجعلها حادة لسرعة القتل)، **وَلْيُرِحْ ذبيحَته**».

وهي نظرة عملية إسلامية لواقع الحياة وضرورة القتال فيها لحفظ الدين والمال والعِرض، وكذلك ضرورة الأكل مما خلقه الله لنا من الأنعام، بعيدًا عن النظرات المثالية الخيالية التي لا تستقيم مع الحقيقة وواقع الحياة[1].

والشاهد: أنه إذا كان هذا هو حال الإسلام مع الحيوانات وفي الحروب فهل لنا أن نتخيل (ولو مجرد التخيل) عكس ذلك؟

وفي المقابل:

يقترب عدد المسلمين في العالم اليوم من ٢ مليار مسلم (والمليار ألف مليون)، وهو ما يقارب رُبع سكان العالم، فإذا كان الإسلام دين عنف ودموية ووحشية وإرهاب بالفعل فهل كنا سنرىٰ

---

(١) مثل مَن يقلدون النباتيين في دعواهم أنهم لن يأكلوا أي لحم حيوان بمزاعم الشفقة والرأفة، وقد قابلتُ أحدهم يومًا فقلت له: ولكنَّ حِزامَكَ وحِذاءَك ومحفظتك من جلود حيوانات مذبوحة! وكذلك أغلب الأدوية التي تتناولها! فلم يستطع الرد. فزدته من الشِّعْرِ بيتًا فقلت له: ولماذا التفريق بين الحيوان والنبات؟ هل لأن النبات لا صوت له؟ وما يدريك أنه لا يتألم وأنت تأكله وتقطّعه بأنيابك وأسنانك؟ فإن كنتَ صادقًا في دعواك فلتَمُتْ جوعا ولا تعذبهم بمنطِقِكَ، أو دَعْكَ من هذه المثالية الجوفاء وكُلْ مما خلقه الله لك في الأصل.

العالم كما نراه اليوم؟

بل، إذا نظرت في أكثر الدول والبلدان **المُعتدَىٰ عليها** والمزروعة **الحروب فيها** لتدور عجلة بيع السلاح وسرقة النفط والتحكم الإقليمي والتغيير الديموغرافي لرأيتها دولًا وبلادًا **إسلامية**، من بورما لكشمير لأفغانستان للعراق وسوريا وفلسطين واليمن وأفريقيا الوسطىٰ، ومِن قَبلها البوسنة والهرسك وغيرها الكثير. فما هو موقف الإعلام **الرسمي** العالمي واليهودي من ذلك؟

إنه **إعلام** يقيم الدنيا إذا مات بضعة أشخاص علىٰ يد مسلم، ولا يستنكر موت مئات الأبرياء والعُزَّل والأطفال يوميًّا في أي من تلك البلدان أو تهجيرهم ونهب بيوتهم وممتلكاتهم.. وكأنهم ليسوا بشرًا.

فهذا هو **العامل الأساسي** في بلورة مثل هذه الشبهات لتمر علىٰ بعض المسلمين الملتزمين للأسف وإلا:

فوفقًا **لمكتب التحقيقات الفيدرالية** FBI في إحصائياته الرسمية عن الهجمات الإرهابية منذ عام ١٩٨٠م إلىٰ عام ٢٠٠٥م وُجد أن ٩٤٪ مِن تلك الهجمات لم يقم بها مسلمون![1]

Terrorism 2002-2005 - U.S. Department of Justice - Federal Bureau of Investigation

وقد علق موقع الإحصائيات العالمي جلوبال ريسيرش عن هذه الإحصائية بأنها أوضحت **المبالغات الرهيبة** في وصم الإسلام والمسلمين بالإرهاب رغم أن أكثر من ٩٠٪ من الهجمات الإرهابية

---

(١) الرابط: www.fbi.gov/stats-services/publications/terrorism-2002-2005

في أمريكا هي لغير المسلمين[1]:

Non-Muslims Carried Out More than 90% of All Terrorist Attacks in America

والأمر كذلك في **أوروبا** التي لم تتحضر في عصورها الوسطىٰ الهمجية والدموية إلا علىٰ يد الإسلام، فهذه دراسة أوروبية توضح أن كل الإرهابيين مسلمين ما عدا.. ٩٩.٦٪ منهم! وهو عنوان ساخر يوضح أن نسبة الإرهاب الإسلامي من الإرهاب الأوروبي هي (٠.٤٪) فقط! فقارنوا ذلك بالتهويل والتشويه **الإعلامي** للأسف، هذا عنوان خبر الدراسة من ٢٠١٠م[2]:

Europol Report: All Terrorists are Muslims...Except the 99.6% that Aren't

هذا علىٰ المستوىٰ الحكومي والإحصائيات والدراسات، فأما علىٰ أرض الواقع فحدِّث ولا حرج، في أمريكا سنويًّا آلاف حوادث ضرب وقتل الزوجات والعشيقات والاغتصاب وإطلاق النار والتي شملت حتىٰ طلبة المدارس والجامعات، والجميع يعترف أن **أهدأ** الأحياء هي التي يعيش فيها المسلمون، ويعترفون أن **أفضل الأخلاق** هي أخلاق المسلمين خاصة وقت الأزمات!

بالطبع المجال لن يتسع لذكر عشرات أو مئات المواقف في

---

(١) الرابط:

www.globalresearch.ca/non-muslims-carried-out-more-than-90-of-all-terrorist-attacks-in-america/5333619

(٢) الرابط من أرشيف النت:

web.archive.org/web/20100201055528/www.loonwatch.com/2010/01/terroris/m-in-europe

ذلك، لكن مَن يبحث بجدٍّ وصدق سيجد الكثير علىٰ الإنترنت اليوم في الأخبار والصور والمرئيات (الفيديوهات)، سواء كانت لأفراد من المسلمين شغلوا الرأي العام العالمي مثل المسلم الكندي الذي أعطىٰ حذاءه في المواصلات لرجل فقير لا يرتدي حذاءً[1] **ورفض المسلم الظهور أمام الإعلام أو معرفة اسمه!**

أو مثل المسلم الأمريكي الأسود ابن **علي ميلر** الذي وجد عراكًا بين مراهقين سود في الشارع فأعطاهم نصيحة صادقة تناقلتها وسائل الإعلام العالمية[2].

أو علىٰ المستوىٰ الجماعي كما اعترف الممثل الأمريكي الكوميدي بيل **كوسبي** بتعمد تشويه الإعلام الأمريكي للمسلمين رغم أن المفترض الاقتداء بالمسلمين في تعاملهم مع الأطفال وتربيتهم وتعاملهم مع نسائهم، وذلك في كلمة قلبت عليه الساسة والإعلاميين في أمريكا وتم تلفيق عدة قضايا تحرش له بعدها[3]!

أو ما وقع مؤخرًا من موقف مشرِّف لمسلمي هيوستن تكساس الأمريكية عندما فتح المسلمون ٤ مساجد لإيواء المتضررين من إعصار هارفي سنة ٢٠١٧م، وكذلك توفير قرابة ٥٠ طبيبًا، في حين ظهر التناقض مع أحد أشهر القساوسة والكنائس الغنية التي تلعب

---

(١) الرابط: www.youtube.com/watch?v=XpvhXn22P2I

(٢) الرابط: www.youtube.com/watch?v=KfTZwvJGmjc

(٣) الرابط: www.youtube.com/watch?v=ldnRWaa9Els

الموسيقىٰ داخل كنائسها ولم تساعد المتضررين بشيء"[1].

ونفس ما قيل من أمثلة في أمريكا وكندا يوجد في جميع بلدان العالم، فالإسلام هو دين الأخلاق والمروءة مع الجميع، حتىٰ أن إحدىٰ الناجيات من حريق برج غرينفيل بلندن تتعجب لماذا يركز الإعلام علىٰ بعض حوادث المسلمين ولا يُبرز للناس جهودهم مثل إنقاذهم للناس في البرج وقت الحريق؟[2]

وفي الصين تعجبت القنوات هناك من شهامة شابين سوريين في مساعدتهما لرجل عجوز في عبوره بين السيارات وإعانته في طريقه لدرجة أنهما حملاه حملًا![3]

ونختم بمثال علىٰ صعيد الأعمال الخيرية والإنفاق فيها حيث أثبت استطلاع عام ٢٠١٣م أن المسلمين في بريطانيا هم الأكثر نفقة في أعمال الخير من النصارىٰ واليهود والملحدين[4]:

Muslims 'Give Most To Charity', Ahead Of Christians, Jews And Atheists, Poll Finds

نخلص من ذلك كله إلىٰ أن المسلم الملتزم الذي يتأثر بمثل هذه الشبهات في تلك المسألة يكون ذلك عن طريق:

- الجهل بأخلاق ورحمة الإسلام التي لم تتوقف علىٰ التنظير

---

(١) الرابط: www.youtube.com/watch?v=RBb_j3CRblk

(٢) الرابط: www.youtube.com/watch?v=zoVwOj9XtYo

(٣) الرابط: www.youtube.com/watch?v=U6kZsyToR40

(٤) الرابط:
www.huffingtonpost.co.uk/2013/07/21/muslims-give-most_n_3630830.html

وإنما التفعيل.

- الجهل بالمكر الإعلامي عالميًّا ومحليًّا لتشويه الإسلام والمسلمين.

- التركيز على الأمثلة السيئة، وعدم الالتفات إلى أضعاف أضعافها الحسن.

- سوء الظن بالإسلام ونبي الإسلام، وعدم قراءة سيرته وأخلاقه[1].

١٨- التصور المغلوط للدعاء:

في بعض الأحيان يستغل أصحاب الشبهات حاجة المحتاج في الدعاء الذي يتأخر جوابه ليشككوه في الدين حتى وإن كان ملتزمًا، حيث إنه مع الجهل بالحكمة من الدعاء وفقهه قد تجد هذه الشبهات طريقها إلى قلب أحدهم في لحظات الضعف أو لحظات التعلق الشديد بالإجابة.

وبادئ ذي بدء نقول: إن الدعاء عبادة في حد ذاته، عبادة يعلن فيها المسلم إيمانه بأنه لا يملك تصريف الأمور ومقاديرها إلا الواحد الأحد سبحانه، لا صنم ولا نجم ولا حجر ولا شجر ولا إنسان إلا الله، لذلك جاء في الحديث الصحيح في «مسند أحمد» و«سنن

---

(١) من الكتب البسيطة في لغتها والمساعدة على ذلك، كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي. وكتاب (الرحيق المختوم) لصفي الرحمن المُبَارَكْفُورِيّ رحمهما الله.

أبي داود» وغيرهما (وصححه الألباني):

«الدعاء هو العبادة».

فهو من أدلّ دلالات التوحيد كما قلنا، فلا يتوجه فيه المسلم إلىٰ القبور ولا الأموات ولا الأضرحة، ولكن يجعل حاجته لله وهو علىٰ يقين بأن ما سيختاره له الله خير له في الدنيا أو الآخرة إذ:

كم مِن دعاءٍ وكم من مطلب طلبه أحدنا **وكان فيه شر له**، وكم من شيء تمنىٰ أحدنا ابتعاده وفواته **وكان فيه خير له**، فالله يعلم ونحن لا نعلم.

ولكن ها هنا عدة نقاط يجب توضيحها، هي:

أولًا: الدعاء ليس زرًّا سحريًّا وهبه الله للمؤمنين دون غيرهم، وإلا لأعلن الكفار إيمانهم ولو كذبًا **طلبًا للمنفعة**، بل هو عبادة في حد ذاته كما أوضحنا منذ لحظات.

ثانيًا: رغم وعد الله تعالىٰ **بإجابة الدعاء** إلا أن ذلك يتم فهمه في **سياق المعنىٰ الشرعي** له **واستثناءاته المنطقية**، مثال ذلك قوله تعالىٰ عن ريح قوم عاد:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٤ - ٢٥).

فقوله: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ ﴾ هل يفهم منه عاقل أن المقصود هنا (كل

شيء) علىٰ الأرض مثلًا؟ الجبال والأنهار والبلاد الأخرىٰ البعيدة عن أرض قوم عاد والناس الآخرين الذين ليسوا بالأحقاف؟ هل يفهم عاقل أن قوله: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يشمل تدمير الملائكة والجن والنار والجنة مثلًا؟ أم أن هناك سياق شرعي ومنطقي لهذا التعبير نعرف منه أنه يخص أرض المذكورين في تلك الآيات بالعذاب؟

وكذلك الله يُصرِّف مقادير مليارات البشر في نفس اللحظة، ولو كانت إجابة دعاء المؤمنين هي إجابة حتمية فورية لكان ذلك من المستحيل الذي لا يتحقق، تمامًا مثلما يدعو اثنان صالحان أن يزوجهما الله مثلًا بنفس المرأة الصالحة، فهل يقسمها الله تعالىٰ بينهما بالنصف؟! فإذا كان ذلك متعذرًا بين اثنين فقط، فهل نتخيل الأمر علىٰ شكل أوسع يدخل فيه باقي المؤمنين ثم غيرهم من بقية البشر؟

ثالثًا: من آداب الدعاء أن يدعو الإنسان الله فيما جرت به الأسباب وسُنة الله في كونه، وألا (يتواكل) علىٰ الله والدعاء، وإنما يفعل ما في مقدوره من الأسباب وهو (يتوكل) عليه ويدعوه بالتوفيق والإجابة.

رابعًا: الله تعالىٰ وعد بالإجابة في قوله:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠).

لكنها إجابة وفق مشيئته هو وتقديره للأمور واختياره لعباده، فقد تكون الإجابة تالية للدعاء مباشرة، أو قد تتأخر عنه لأيام أو سنوات،

أو لا تقع ولكن يبدل الله المؤمن **خيرًا منها** في الدنيا أو يكتب له **أجرها** من الدعاء والحسنات في الآخرة.

خامسًا: هناك أوقات مُستحبة للدعاء وكذلك أماكن مُستحبة، فليتعاهدها المسلم، وأيضًا هناك مصارف عن الإجابة مثل المطعم الحرام، والمشرب الحرام، والملبس الحرام، والمسكن الحرام فليتجنبها المسلم.

وفي النهاية:

هناك حِكم قائمة بذاتها من تأخر الإجابة، سأذكر بعضها في عجالة مثل:

اختبار اليقين بالله.. فكم من مؤمن اهتز يقينه بتأخر الإجابة.

القرب من الله.. فكم من بعيد عن الله ألهته الحياة فقربته حاجته ودعاؤه.

كسر المتكبرين.. وهم الصنف الذي أنساه النعيم وعلو المكانة حاجته وانكساره إلىٰ الله. فليست كل الأشياء تُشترىٰ بالمال أو المنزلة إلا إن يسرها الله.

التغيير للأفضل.. وهي حكمة دقيقة تقع لكثير من المؤمنين الذين تأخرت إجابة دعائهم، إذ لو كان آتاهم الله ما طلبوا في وقته لما حصَّلوا الكثير مما حصَّلوه من العلم أو الصبر أو الاحتساب أو الرضا أو التبصر في أحوال الناس وحقيقة مكانتهم منه أو منزلته عندهم في ابتلائه.

درجات **أعلىٰ**.. وهي فائدة أخروية قليل مَن ينتبهون إليها، وهي المنزلة العالية لأهل البلاء حتىٰ إن أهل العافية يحسدونهم عليها في الآخرة! فقد جاء في «سنن التِّرْمِذِيّ» (وصححه الألباني) قول النبي ﷺ:

«يَوَدُّ أهلُ العافية يوم القيامة حين يُعطَىٰ أهلُ البلاء الثواب، لو أنَّ جلودَهم كانت قرضت بالمقاريض».

بل وهناك أناس لهم منازل عالية عند الله بإيمانهم، لكنهم أضعف في الدنيا من أن يعملوا بما يستحقها من الصالحات، فيبتليهم الله تعالىٰ بمختلف الابتلاءات من مرض إلىٰ زوج سيء أو زوجة إلىٰ متاعب في العمل وغير ذلك ليرفعهم إلىٰ درجاتهم **بصبرهم واحتسابهم**! يقول ﷺ - كما في «سنن أبي داود» (وصححه الألباني) -:

«إنَّ العَبْدَ إذا سَبقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ مَنْزِلَةٌ لم يبلغْهَا بعَمَلِهِ ابتَلَاهُ اللهُ في جَسَدِهِ أَوْ في مَالِهِ أَوْ في وَلَدِهِ، ثُمَّ صبّره علىٰ ذلك، حتىٰ يبلغه المَنْزِلَةَ الَّتِي سَبقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ تعَالَىٰ».

إذن..

يا كل مَن طال بلاؤه وتأخر الفَرَج إنك لا تعلم ما أنت فيه من الخير، ولا تعلم ما سيقودك إليه البلاءُ من مكاسب، فقد تخرج في النهاية بشخصية **أقوىٰ**، أو **أعلم**، أو حتىٰ **أكثر حكمة** بكثير مما كنت عليه.. والدنيا دار ابتلاء، ولو نظرت إلىٰ كثيرين غيرك ربما هان عليك ابتلاؤك وحمدت الله.

ويساعد علىٰ نموّ هذه الشبهات عند بعض الملتزمين للأسف:

- **المثالية الزائدة في تصور الاستجابة الحتمية للدعاء.**
- **الجهل الشرعي بماهية الدعاء وحكمته وفقهه.**
- **العجلة المذمومة علىٰ أمور الدنيا الفانية وتحققها.**
- **قلة الصبر علىٰ أنواع الابتلاء.**
- **الرقة والشفقة الزائدة علىٰ أحوال المُبتلين ورؤية دعائهم.**

١٩- حال العبيد في الإسلام:

من الأمور (العاطفية) التي يلعب فيها الجهل الشرعي دورًا كذلك في فتنة الملتزمين واهتزاز إيمانهم فجأة الشبهات عن العبيد **وإلصاقها بالإسلام**، حيث نجد المتلقي أبعد ما يكون عن فقه الرِّق (بكسر الراء أي العبيد) في الإسلام رغم قراءته للقرآن مرارًا وتكرارًا، فتفجؤه وتصدمه **الشبهات المكذوبة** وكأنه يقرأ عن العبيد في الإسلام لأول مرة.

العجيب هنا أنَّ كل الصور المذمومة التي يشوهون بها الرق في الإسلام يستمدونها من **تاريخ الأمم القديمة** من الرومان إلىٰ الفراعنة وغيرهم، بل وإلىٰ عهد قريب في أوروبا وأمريكا عندما كانوا **يخطفون** الأفارقة وسكان القارة الأصليين (في أستراليا) ويشحنونهم إلىٰ بلادهم للعمل بالسُّخرة في أسوأ ظلم **اجتماعي** في العصر الحديث، حتىٰ إنه كان يموت قُرب ثلثهم في رحلة البحر نفسها من سوء المعيشة

والمعاملة، فإذا وصلوا إلىٰ سادتهم فهم كلأٌ مستباح جنسيًّا وجسديًّا بلا أدنىٰ حقوق، وهو نفس ما كان قبل الإسلام.

وعلىٰ هذا..

فعندما يتم نقل هذه الشبهات إلىٰ مسلم تنتقل معها عشرات الصور والمقاطع الفيلمية والسينمائية عن معاناة العبيد وظلمهم واستباحتهم.. والسؤال:

هل هذا كان حال العبيد بالفعل في الإسلام؟

دعونا نستخدم نفس طريقتنا الفعالة لهدم الشبهة من الأساس ببيان عكس مقصودها وعكس حقيقتها في الإسلام إذ..

أولًا: العبودية Slavery (عبودية القويّ للضعيف والمنتصر للمهزوم والسيد بالولادة للعبد بالولادة) موجودة قبل الإسلام، وبعده، ولم يأت بها الإسلام ابتداءً، فهي مستمرة باستمرار الصراع البشري بمختلف أشكاله سواء كانت حروبًا أو حتىٰ **أنظمة عمل وسياسة** (وبيننا اليوم في القرن الحادي والعشرين صورٌ من العبودية والاسترقاق لا تنال عُشر معشار تسليط الضوء الإعلامي الذي علىٰ شبهات العبودية في الإسلام فقط لأنها لا تحمل اسم العبودية صراحة).

فما فعله الإسلام هو **إبطال جميع حالاتها** (والتي تزيد عن ٢٠ حالة خاصة إغارة قوم علىٰ قوم أو خطفهم والتي يتحول فيها الأحرار إلىٰ عبيد بين ليلة وضحاها)، ليقتصر حالة الرق والعبودية علىٰ واحدة فقط وهي حرب المسلمين لغير المسلمين، بل وجعل لهم حقوقًا مع

ذلك كما سنرىٰ الآن، **والسؤال: هل الدين الذي يقلل من حالات العبودية يصح وصفه بأنه دين استعباد الناس؟**

ثانيًا: فتح الإسلام أبوابًا عديدة لإعطاء العبيد حرياتهم، وذلك بصورة تركها **نسبية متقطعة** ليست مرة واحدة لأسباب سياسية وعسكرية واجتماعية (لأن العبيد يحتاجون للدمج التدريجي في المجتمع وتغيير نظرة المجتمع إليهم من أنهم مجرد أشياء تُمتلك وتُستباح إلىٰ أنهم بشر)[1]، كذلك لا ننسىٰ أن أصل العبيد بعد الحروب هو أنهم **أعداء**، ومن الخطر تركهم مرة واحدة أو تحولهم كلهم إلىٰ أحرار بدون عمل، مما قد يضطر الرجال للسرقة والتعدي وأن تقع النساء في الدعارة والزنا، هذا فضلًا عن حاجة المسلمين لهم أحيانًا ليبادلوا بهم أسراهم عند الكافرين.

وأما أبواب العتق فمنها ما جعله الله في يد السادة، ومنها ما جعله

---

(١) وهذا الدمج التدريجي في المجتمع وتغيير المفاهيم يوضح لنا بجلاء أكبر فارق بين ما فعله الإسلام عندما رفع عبدًا حبشيًّا مثل بلال أو مولًىٰ أسودَ مثل أُسامة بن زيد بين المسلمين، وبين ما فعله بعد ذلك بأكثر من ألف عام إبراهام لينكولن Abraham Lincoln في ١٨٦٠م عندما أصدر أمرًا بِعتق العبيد في حين أنه هو نفسه كان ينظر للسود (أو النجرو) بعنصرية تامة وتفضيلٍ مقيتٍ للجنس الأبيض الذي ينتمي إليه ومَنع اختلاطهم بالبيض! وهو ما ترك آثاره إلىٰ اليوم في المجتمع الأمريكي المتحضر من اضطهاد واستخفاف بالسود نراه خاصة من تعديات الشرطة وغيرها، في حين صار في الإسلام من العبيد والموالي صحابة وفقهاء وتابعين وأمراء وخلفاء كما سنرىٰ بعد قليل!

في يد العبد نفسه أو الأمة (والأمة هي المرأة في الرِّق، وتطلق أحيانًا علىٰ الفتاة الصغيرة، ومثلها كلمة غلام).

فأما أبواب العتق التي في يد المسلمين: فقد رغَّب الله في عتق رقبة العبيد، وجعلها من أكبر القربات قائلًا - وهو يعدد الأفعال التي يتغلب بها المسلم علىٰ عقبة نوازع نفسه المادية في طريق الخير -:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد:١١ - ١٧).

بل ويزداد الأجر والترغيب إذا كان العبد أو الأمة قد أسلما في الرق مما رأياه من أخلاق ومعاملة المسلمين ودينهم من توحيد وعبادة وآداب، فقد روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ (أي بكل عضو) مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، حَتَّىٰ إِنَّه لَيُعتِقُ بِاليَدِ اليَدَ، وَبِالرِّجْلِ الرِّجْلَ، وَبِالفَرْجِ الفَرْجَ».

كذلك جعل الله عتق الرقبة من كفارات الحنث في اليمين، وكفارة قتل المؤمن بالخطأ، أو المعاهد بالخطأ، وكذلك كفارة الظِّهَار (أي قول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي فيمتنع عن معاشرتها).

وزاد رسول الله ﷺ كفارةً رابعة هي الإفطار بالجماع العمد في رمضان.

وأما باب العتق الذي جعله الإسلام في يد العبد نفسه أو الأمة،

فهو ما شرعه له الله تعالىٰ من اتفاقه علىٰ (**مكاتبة**) سيده علىٰ جُعْلٍ معين يدفعه إليه (سواء كان مالا أو ثمرا ونحوهما) في مقابل عتق رقبته إذا أنجزه، ومعلوم أنه لا يتيسر له ذلك إلا إذا كان **يستطيع التحصل علىٰ هذا الجُعل بعملٍ أو معرفةٍ بالناس** (وهو ما يُطمئن المجتمع أنه إذا تحرر سينفق علىٰ نفسه ولن يسرق أو يُفسد)، حيث يتركه سيده في وقته الذي يحتاجه لتحصيل ذلك. **بل الأعجب**: أن جعل الله تعالىٰ مساعدة العبد في (مكاتبته) أو حتىٰ أدائها عنه بالكلية، هو **مصرف من مصارف الزكاة الثمانية** التي تدفع في الإسلام! يقول سبحانه (ولاحظوا قوله ﷻ **وفي الرقاب**، أي في عتق الرقاب):

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (التوبة: ٦٠).

فالرقاب هنا تشمل دفع (**المكاتبة**)، وشراء عبيد وعتقهم، وكذلك فداء مسلم من أسر أو خطف، **والسؤال**:

<u>أي دين هذا الذي يحثُّ علىٰ عتق رقاب العبيد، بل ويجعل من مصارف الزكاة مصرفًا مخصصًا لذلك؟ ثم يصفه أحد بأنه دين استعباد الناس؟!</u>

ثالثًا: أعطىٰ الإسلام للعبيد **حقوقًا** لم يكن يعرفها العرب ولا غيرهم من الأمم، بل ولا نجدها اليوم في أكثر دول العالم تقدمًا مع عمالها أو أسراها أو سجنائها ومعتقليها، ولو عرفها المسلم الملتزم ما

كانت تنطلي عليه أي من هذه الشبهات للأسف مثل:

- حق احترام النفس في التعامل حتىٰ في النداء، حيث يروي البخاري في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ قوله:

«لَا يَقُلْ أَحَدُكُم: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّيءْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ سَيِّدِي، مَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، وَفَتَاتِي، وَغُلَامِي». رغم أن (رَبِّي) هنا بمعنىٰ المالك، مثل رب العمل.

- عدم الاعتداء عليه بالضرب، ففي «صحيح مسلم» وغيره عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال:

«كنتُ أَضْرِبُ غلامًا لي (أي عبدًا له) **فسمعتُ مِنْ خَلْفِي صَوتًا يقول: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ.. اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ.. للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ.. فَإِذَا هُوَ النبي ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعالىٰ، فقال له: أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَعَتْكَ النَّارُ»**.

- حق الطعام والكسوة مثل سيده تمامًا بتمام، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ قوله:

«لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ العَمَلِ مَا لَا يُطِيقُ».

وحتىٰ لا يبقىٰ الكلام نظريًّا بغير تطبيق، فانظروا إلىٰ هذا الموقف التالي حيث دخل بعض الناس علىٰ أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، فوجدوه يرتدي بُردًا (وهو نوع من الرداء القيم) وعلىٰ غلامه (أي عبده) مثله! فقالوا له مستنكرين في عجب: يا أبا ذر.. لو أخذتَ بُرد غلامك إلىٰ بُردك فكانت حُلَّة (أي حُلة كاملة) ثم كسوته ثوبًا غيره؟

فقال لهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِخْوَانُكُم جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُل، وَلْيَكْسُهُ مِمَّا يَلْبَس، وَلَا يُكَلِّفْهُ مَا يَغْلِبُهُ (أي ما لا يستطيعه من الأعمال)، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ (أي ليساعده فيها)»[1].

- حق تزويج العبد أو الأمة إذا طلب أحدهما من سيدهم ذلك، وسيأتي بعض الحديث عن ذلك في المسألة التالية عن مِلك اليمين في الإسلام وحقوقهن وما لهن.

- إذا ترك الميت من ضمن ما ترك لورثته عبدًا يقتسمون عبوديته بينهم فأعتق أحدهم نصيبه منه لزم الباقين عتقه كذلك.

ولولا خوف الإطالة لبسطتُ القولَ في وصف الحال العملي للعبيد أو الرقيق في الإسلام، وما أثمرت عنه تلك التشريعات الحكيمة التي أعطت حقوقًا لم تشهدها البشرية من قبل ولا من بعد للعبيد والموالي (المقصود بالمولىٰ هنا المعتوق الذي لم يفارق سيده وأهل سيده وظل ينتسب إليهم ويواليهم أو يخدمهم)، لكني أُفسح المجال للمسألة التالية المرتبطة بهذه المسألة ألا وهي:

٢٠- حال مِلك اليمين في الإسلام:

إذ نفس ما قيل من شبهات (تستدرّ عاطفة الملتزمين) في الرقيق عمومًا (العبيد)، نجده يتكرر بنفس أدواته من التأثير النفسي في مسألة

---

(١) رواه أبو داود في «سننه»، وصححه الألباني، وله شاهد في البخاري ومسلم.

السبي وملك اليمين (من الإناث) في الإسلام (ومِلْك اليمين أو السَّرِيَّة هي الأمة التي يعاشرها سيدها معاشرة الأزواج بموافقتها، ولها حقوق سنذكرها بعد قليل)، ولكن يزيد هذه المرة عدد كبير من الصور المرسومة من الحقبة الاستعمارية الأوروبية لنساء عاريات لتشجيع الرجال الأوروبيين للتطوع في الجيوش كأنه حال أولئك النسوة في داخل البيوت والقصور[1]، وكذلك صور حقيقية لفتيات أو نساء عاريات لنفس الغرض الاستعماري لكن تم أخذها في استوديوهات دعارة خاصة في أوروبا، وكذلك بتصوير خاص في بيوت دعارة في بعض البلاد العربية[2].

---

(١) وقد كان هناك تقريرًا أكثر من رائع من معهد ORIAS من جامعة كاليفورنيا بيركلي في محاضرات الفترة من ٢٥ إلى ٢٩ يوليو ٢٠١١م، ذكر فيها حقيقة هذه الرسومات لتأصيل هذا المفهوم عند الغربيين، بل ذكر تسللها في الأفلام السينمائية الغربية كذلك، ثم عَرَضَ الوجهَ الحقيقي للمكانة العليا للنساء في تلك البلاد الآسيوية والإسلامية، وكيف أنهن وصلن في الكثير من الأحيان للحكم أو مشورة الحكم، هذا رابط تنزيل التعليق PDF على المحاضرات للدكتورة ليزلي آن وودهاوس:

orias.berkeley.edu/sites/default/files/2011-woodhouse-summary.pdf

وهو بعنوان:

Absent Voices: Experience of common life in world history
Comparative Harems: Women, Sex and Family Structures from the Middle East to South & Southeast Asia - Dr. Leslie Ann Woodhouse

(٢) وقد سجل حالات كثيرة من هذا العبث الأخلاقي أحد الكتاب الجزائريين (رغم علمانيته) إلا أنه لم يَرْضَ بانتشار هذه الصورة المكذوبة على نساء بلاده، وهو الكاتب مالك علولا Malek Alloula، وذلك في كتابه الذي كتبه باللغة الفرنسية:=

والملفت للنظر هنا **التناقض الشاسع** بين ما تدعو إليه الصور وبين ما هو معلوم من إسلام لمن لديه أدنىٰ ذرة تفكير، لدرجة أن في إحدىٰ الصور رجل عجوز بلحية بيضاء يجلس للوضوء وتصب له الماء فتاة عارية صغيرة أمامه وملابسها علىٰ الأرض كأنها وضعتها للتو للتصوير!

فهل كان المسلمون **يصورون نساءهم عرايا**؟ وبأي مستند من الدين يتم تفسير مثل هذا الفعل إذا صَحَّ؟ تناقض في تناقض.

لكن دعونا قبل أن نذكر بعض **الحقائق الشرعية الغائبة** مثلما فعلنا في تبيان حال العبيد عمومًا في الإسلام أن نأخذ جولة لاستعراض بعض أحوال النساء **المهزومات في الحروب** (بل الواقعات حتىٰ في **الكوارث** عمومًا) وكيف يتصرف معهن **غير المسلمين** من أدعياء **المدنية الحديثة وحقوق الإنسان**، ولاحظوا أننا لن نتكلم عن آلاف السنين التي مضت ولا الإسلام من ١٤٠٠ عام بل سنذكر أمثلة من عصرنا الحديث للأسف!

- ففي شهر مارس ٢٠١٥م صدر كتاب بعنوان (**عندما جاء الجنود**) When The Soldiers Came للكاتبة الألمانية **مريام جيبارت** Miriam Gebhardt، قدمت فيه **بالأدلة** أرقامًا مذهلة عن أكبر **جرائم**

=(حريم المستعمرات)، وقد تمت ترجمته إلىٰ الإنجليزية باسم The Colonial Harem من ترجمة Myrna Godzich, Wlad Godzich، وقدمت له Barbara Harlow، لكن بالكتاب صور عارية كمثال علىٰ هذا الغش فوجب التنبيه.

اغتصاب وقعت في التاريخ إبَّان الحرب العالمية الثانية للنساء الألمانيات (٨٦٠ **ألف حالة اغتصاب فردي وجماعي لنساء وفتيات وعجائز**)، حيث نفت الفكرة السابقة وهي أن الجنود السوفييت فقط هم الذين اغتصبوا الألمانيات، فقد قام **الأمريكان والفرنسيون والبريطانيون** باغتصابهن كذلك![1] ويا ليت الأمر اقتصر علىٰ نساء ألمانيا المهزومة من الحلفاء! بل قام الأمريكان باغتصاب **فرنسيات أيضًا** (رغم أن فرنسا من حلفاء أمريكا في نفس الحرب)! وكذلك اعتدوا جنسيًّا علىٰ **رجال وأطفال**، فأين عظمة الإسلام من كل هذا؟

- وقد تعمَّدْتُ ذكر مثال واحد فقط يجمع أكثر دول الغرب (**المتحضر**) في حروبهم (ولو أردت الزيادة لزدت)، ولم أذكر مآسي المسلمين في مثل **البوسنة والهرسك** من الاغتصاب الجماعي إلىٰ حد الموت، أو الاغتصاب في **السجون والمعتقلات**، وكذلك الاتجار بالنساء والفتيات وبيعهن في وقت الحروب في آسيا وأفريقيا.

- فالمرأة حالها حال **الضعف** مهما زايدت صاحبات (**حقوق المرأة ومساواتها بالرجل**)، وهذا الضعف يتجسم في حال الحروب والكوارث للأسف، وبغير **رسالة هادية** من الله الحق لن تجد شرعًا ولا قانونًا ولا ميثاقًا **يحميها** ولا حتىٰ تحت مظلة **الخدمات الإنسانية**

---

(١) هذا عنوان أحد المواقع التي علقت علىٰ الكتاب: Allies raped almost 1m Germans: academic الرابط:

www.thelocal.de/20150305/book-world-war-ii-allied-soldiers-raped-nearly-1mil-germans

والجمعيات الأممية! تخيلوا؟!

- ولن أطيل في ذلك أيضًا تمسكًا بما وعدت به في المقدمة من عدم التطويل، حيث سأكتفي بخبرين حديثين فقط **لوضع النقاط على الحروف** ممَن يطعنون في طهارة الإسلام واحترامه للمرأة حتى في العبودية والرِّق (كما سنرى بعد لحظات) في حين يتناسون أصل الشرور البشرية من دون الإسلام!

- ففي منتصف شهر فبراير ٢٠١٨م (وقت اللمسات الأخيرة لكتابي هذا) طالعتنا الصحف العالمية بفضيحة كبرى عن تورط موظفين وكوادر في إغاثات الأمم المتحدة UN في **٦٠ ألف حالة اغتصاب** في **١٠ سنوات فقط!** (مرة أخرى ١٠ سنوات فقط)[1].

- الصادم أن تلك الفضيحة الكبرى تتزامن مع تفاصيل أخرى لواحدة من أشهر مؤسسات الإغاثة البريطانية «أوكسفام» Oxfam والتي تتلقى دعمًا سنويًا من الحكومة بمقدار ٤٤ مليون دولار، وتجمع قرابة ١٩ جمعية خيرية تحت مظلتها، وتتلخص الفضيحة في أن مؤسسة Oxfam عندما شاركت عام ٢٠١٠م في إغاثة المنكوبين في **زلزال هاييتي** الشهير وقتها استغل العاملون **الظروف السيئة لنساء هاييتي** والمعاناة التي يعشن فيها **فاستغلوهن جنسيًا** سواء لأنفسهم أو

---

(١) عنوان الخبر من موقع التايمز البريطانية: Charity sex scandal: UN staff responsible for 60,000 rapes in a decade، الرابط:
www.thetimes.co.uk/edition/news/un-staff-responsible-for-60-000-rapes-in-a-decade-c627rx239

بتوظيفهم في الدعارة مقابل المال![1] بل وحتىٰ **الأطفال والقاصرين** تم تشغيلهم **كعمّال جنسيين** Sex workers، والصدمة الأكبر كانت في تعليق أحد العاملين في المؤسسة بأن مثل تلك الممارسات **شيء متكرر في الأماكن المنكوبة**. ولمطالعة تفاصيل الخبر بالعربية وروابط أخرىٰ لتهم كثيرة من هذا النوع **للإغاثات الإنسانية وقوات حفظ السلام**.. إلخ يمكنكم البحث بعناوين:

(التايمز: عاملون في الأمم المتحدة «مسؤولون عن ٦٠ ألف حالة اغتصاب خلال عقد»)، وهو منشور في الـ BBC العربية، وفي نهايته روابط المواضيع الأخرىٰ الشبيهة وذات الصلة.

وبعد.. أرىٰ أن هذه المقدمة تكفي تمامًا لبيان الفرق الشاسع بين هذا وبين ما ستعرفونه الآن من عظمة الإسلام ونقائه، حيث يتم في شبهات اليوم تعمد استبدال الملحدين وصف **ملك اليمين والتسري** بوصف **الاغتصاب** لترك الأثر النفسي المطلوب لزعزعة إيمان الملتزمين، والسؤال:

نريد حديثًا واحدًا أو حتىٰ رواية تاريخية واحدة **(حتىٰ ولو ضعيفة السند أو موضوعة أو مكذوبة)** فيها أن مسلمًا أو صحابيًّا أجبر

---

(١) عنوان الخبر من الواشنطن بوست:

Oxfam crisis spreads as Haiti suggests aid workers exploited children for sex

الرابط:

www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/2018/02/11/oxfam-could-lose-funding-over-allegations-that-it-exploited-disaster-victims-for-sex/?utm_term=.9c6da2bc6c92

أمة علىٰ معاشرته كملك يمين أو سرية، ولن يجدوا (**هل تتخيلون هذا**)؟

ووالله سنذكر الآن من الكلام ما يجعل أي عاقل في العالم يقول: لو وقعت حرب، وسقطنا وسقطت نساؤنا في يد العدو، **فأتمنىٰ أن يكون عدوي المسلمين!**

- فأُولىٰ المفاجآت هنا أنه إذا وقع **رجل وزوجته** في العبودية أو الرِّق فلا يُفرَّق بينهما، وإنما يبقيان معًا (وكذلك أبناؤهما إن وُجدوا)، فهل هذا حال المغتصبين؟!

- وثاني المفاجآت هو أنه ليس كل النساء اللاتي **يقعن في العبودية أو الرِّق يصرن مِلْك يمين أو سريات** (فمنهن الكبيرة في السن، وغير المشتهاة، وغير ذلك)، فالأصل في الرِّق هو **العمل والخدمة** (وهكذا كانت مكانته الاجتماعية في الإسلام)، ولا تكون المرأة ملك يمين أو سرية إلا **برضاها**، فمَن لا تريد **فعلام سيتم إجبارها؟!**

- وأما الأعجب من ذلك فهو اشتراط الإسلام علىٰ المملوكة التي كانت **متزوجة** ألا يعاشرها سيدها إلا بعد أن **يستبرئها** (أي ينتظران مرور حيضة أو حيضتين للتأكد من أنها ليست حاملًا)، أما إذا كانت **حاملًا** بالفعل فلا يمسها **إلا بعد أن تضع حملها** وتلد، وذلك لما رواه أبو داود في «سننه» (وصححه الألباني) عن النبي ﷺ قال:

«لا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِه (أي يجامع امرأة حاملًا من غيره)، **وَلَا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ**

الآخِرِ أَنْ يَقَعَ عَلَىٰ امرَأَةٍ مِنَ السَّبْيِ حَتَّىٰ يَسْتَبْرِئَهَا».

والسؤال: هل هذا هو حال المغتصبين الذين يهجمون على النساء مستغلين ضعفهن وموت عوائلهن أو هروبهم؟! هل هذا حال مَن تقودهم الشهوات فتعميهم؟ بل هل علمتم أمة من الأمم وضعت شروطًا مثل هذه تحترم آدمية المرأة حتىٰ في العبودية والرِّق مثل الإسلام؟

- وبدلًا من أن تظل عائلات بأكملها في العبودية والرِّق جيلًا بعد جيل كما كان الحال في أمم غير الإسلام، فإن ملك اليمين أو السرية التي تلد من سيدها يكون ولدها حرًّا وتصيرُ هي **(أم ولد)** حرَّة بعد موت سيدها إن لم يعتقها قبل ذلك. ولو تزوج حرٌّ بأمة فله أن يشترط علىٰ سيدها إن ولدت أن يكون أبناؤه منها **أحرارًا**.

- وأما الحِكَم من إباحة ملك اليمين والتسري فهي كثيرة وليست واحدة، منها **إعفاف النساء** اللاتي يحتجن إلىٰ ذلك، ومنها فتح باب **المودة والألفة والاختلاط والعتق**، ومنها فتح الباب أيضًا للتعرف أكثر علىٰ **الإسلام** والانخراط في **المجتمع المسلم** رجاء إسلام غير المُسلمة، ومنها إعفاف الرجال والشباب **المسلمين** إذا كان في بيت أحدهم نساء من الحروب أو لا يستطيعون الزواج أن تنضبط العلاقة بينهم **بعلاقة شرعية معروفة ولها ضوابط** أحلها الله في كتابه ورسوله في سنته، ولا تكون علاقة **همجية** يتحكم فيها كل مَن هب ودب في المرأة **لضعفها** حتىٰ يجامعها هو وأبناؤه وأصدقاؤه فإذا حبلت لا تدري من

أيهم ولدت!

- ولا يجوز في المجتمع المسلم لأحد كائنًا مَنْ كان (حتىٰ غير المسلم) أن يستعمل الإماء في الدعارة والبغاء والزنا، وحتىٰ إذا **أكرهها** علىٰ ذلك فإنه ليس عليها شيء من الذنب (قارنوا ذلك بما يُعرف اليوم من تجارة **الرقيق الأبيض** White slavery أو **العبودية الجنسية** Sexual slavery في آسيا وأوروبا وأمريكا وإسرائيل وغيرها لتشغيل الفتيات والشابات والنساء **المخطوفات والفقيرات والهاربات من البيوت والحروب** في الدعارة **بالتهديد والإجبار والإكراه** وتواطؤ بعض الحكومات والموظفين الحكوميين للأسف مع **تُجَّارِهِم**، وغَضّ الطرف عنهم مقابل نصيب من المال وغيره)؛ يقول تعالىٰ:

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٣٣).

والسؤال:

هل هذا هو حال المسلمين المتعطشين للجنس واغتصاب النساء (السبي أو ملك اليمين أو السريات)؟!

- وللسيد أن يزوج أمته لمَن يراه كفأ **مَرضِيًّا** سواء كان عبدًا أو حرًّا لقوله ﷻ:

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور:٣٢).

وقد جعل الله تعالىٰ زواج المسلم من **الأمة المُسلمة** أفضل من زواجه من حرة **مشركة** فقال عز من قائل:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ ﴾ (البقرة:٢٢١).

وقال أيضًا:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ ﴾ (النساء:٢٥).

- بل ذهب الإسلام أبعد من ذلك فراعىٰ **نفسية وحاجات المرأة** التي تحصل علىٰ حريتها في حين بقي زوجها في العبودية والرِّق، حيث نظر بعين الاعتبار **لاحتمال ضررها** ورغبتها في أن تنفصل عنه، فالإسلام يبيح لها هذا، فها هي بَرِيرَة كانت أمة وزوجها **مغيث** عبدًا، ثم هي سعت في مكاتبة مالكيها واستعانت في أداء المكاتبة بأمنا **عائشة** ﵂ حتىٰ أعتقت نفسها، ثم أرادت الانفصال عن زوجها العبد، فكلَّم **مُغيثٌ** النبيَّ ليشفعَ له عندها، فسألت النبي ﷺ - كما في «صحيح البخاري» فقالت: «**يا رسول الله تأمرني**»؟ يعني هل هو أمر من الدين عليّ طاعته؟ فقال: «**إنما أنا أشفع**»، فقالت: «**لا حاجة لي فيه**».

فهل تتخيلون امرأة حديثة عهد بالحرية لم تكد تتنسم نسماتها بعد ثم يكلمها نبي الأمة (**أعظم إنسان منزلة في بلدها ومجتمعها ودينها**) ليشفع عندها (ولا يأمرها ولا ينهرها) **فترفض شفاعته**؟!

هل هناك تجسيد أكثر من ذلك لما يقره الإسلام من حقوق ورعاية للمرأة؟! وإذا كان هذا حال العبيد من النساء فما بالنا بحال المُسلمة الحرة أُمًّا أو أُختًا أو ابنةً أو زوجة[1]؟!

- ومن موقف بريرة السابق أيضًا تتبين لنا حُكْمٌ آخر **هامٌّ** وهو أن زواجَ الأمةِ والعبدِ **لا ينفسخ بمجرد عتق أحد الزوجين**، فالزواج باقٍ علىٰ أصله بين الأزواج في الرق وحتىٰ بعد العتق؛ إلا أن يحدث بينهما كما حدث لبريرة من تخيير وليس جبرًا من أحد غيرهما.

- وفي عدم الجبر علىٰ طلاق زوجين في الرِّق روىٰ ابن ماجه في «سننه» (وحسنه الألباني) أن رجلًا أتىٰ النبي ﷺ فقال:

«يا رسول الله إن سيدي زوَّجَني أمته، وهو يريد أن يفرِّق بيني وبينها، قال: فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال: يا أيها الناس ما بال أحدكم زوَّج عبده أمته ثم يريد أن يفرق بينهما؟! إنما الطلاق لمَن أخذ بالساق».

---

(١) للإحاطة فقط: لا تُجْبَر مسلمة - في الإسلام - علىٰ الزواج، فلا يصح زواجها إلا باستئذانها، وكذلك إذا تزوجت صغيرة أو مجبورة فلما كبرت رأت الانفصال فلها طلب ذلك من القاضي المسلم، وأيضًا إذا تزوجت ثم رأت أنها تتضرر ببقائها مع زوجها فلها طلب الخُلع منه وترد عليه ماله أو صَدَاقه. فهل هذا حال دِين يكبِتْ المرأة أم يحترمها ويحترم كينونتها؟!

- وأما بالنسبة للشبهات الشهيرة في حجاب الأمة وعورتها فسأختصر الكلام فيه على المفيد، وسأذكر ثلاثة مواطن للشبهات في تلك المسألة.

الشبهة الأولى:

في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «**إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ أَوْ أَجِيرَهُ فَلَا يَنْظُرُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ عَوْرَتِهِ، فَإِنَّ مَا تَحْتَ السُّرَّةِ إِلَىٰ الرُّكْبَةِ عَوْرَةٌ**»، والحديث ضعفه الشيخ الألباني[1]. ولكن دعونا نفترض صحته كما فعل بعض العلماء لعدم ظهور ضعفه لديهم ولنسأل: كيف فهموا هذا الحديث؟ والإجابة: فريق فهم أن السيد لا ينظر لعورة العبد ولا الأمة والتي هي من السُّرَّة إلىٰ الركبة، وقاسوا المعنىٰ علىٰ ذلك مما قد يتبدىٰ من المرأة أثناء عملها ومهنتها في البيت ونحوه مما لا تستطيع ستره غالبًا، كما نلاحظ نحن في أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا وبناتنا، ولم يفهموا منه أن الإماء في الإسلام كن يَسِرْنَ في الطرقات عاريات الصدور! فهذا فهم سقيم لا يقره الدين فضلًا عن عاقل ولم يذكر أحد مشاهدته لا عربي ولا مؤرخ أجنبي واحد، تمامًا كما لا نفهم من قولنا أن عورة الرجل من سُرته إلىٰ ركبته أن الرجال في الإسلام كانوا يسيرون هكذا في الطرقات! وأما الفريق الآخر ففهم العكس (وهو الأصح) أي أن النهي عن النظر هو إلىٰ عورة السيد وليس عورة العبد أو الأمة! ويؤكد ذلك الفهم رواية أخرىٰ أوضح،

---

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الجزء الثاني (ص٤٥٥).

وهي عن النَّضْرِ بن شُمَيلٍ قال: أنبأنا أبو حمزة الصيرفي – وهو سوار بن داود – به بلفظ:

«**إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَبْدَهُ أَمَتَهُ أَوْ أَجِيرَهُ فَلَا تَنْظُرِ الأَمَةُ إِلَىٰ شَيءٍ مِنْ عَوْرَتِهِ، فَإِنَّ مَا تَحتَ السُّرَّةِ إِلَىٰ الرُّكْبَةِ مِنَ العَوْرَةِ**». أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ، وعنه البيهقي، ويقول الشيخ الألباني رحمة الله في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» تعليقًا عليها: «... **فهذه الرواية – علىٰ خلاف الروايات السابقة فإنها صريحة في أنَّ المنهي عنه النظر إنما هي الأمة، وأنَّ ضمير «عورته» راجع إلىٰ «أحدكم» والمقصود به السيد**».

الشبهة الثانية:

وهي أن المُسلمة الحرة مأمورة بالحجاب وتغطية رأسها وشعرها أما الأمة فغير مأمورة بذلك، وهذا الرأي مستمد من تفاسير القرآن لآيات الحجاب في سورتي النور والأحزاب، وكذلك من فِعل أمير المؤمنين عمر الفاروق ﷺ، ولكي نفهم هذا الوضع ونغلق باب التدليس في شبهته يجب إلقاء الضوء علىٰ **الفهم الديني والمجتمعي له،** فمن جهة العمل والمهنة في البيوت وخارجها فهذا الأمر يُعد من **التخفيف** علىٰ الإماء، تمامًا كما تجد أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا وبناتنا مشقة من العمل مع الحفاظ علىٰ حجابها طيلة الوقت، ومن جهة أخرىٰ فإن هذا التمييز يتماشىٰ مع قلة التزام الإماء بأخلاقيات الإسلام خاصة غير المسلمات أو من البلدان الأخرىٰ إذ يتجرأ الفساق علىٰ التعرض لهنَّ، فلو كن يتحجبن مثل المسلمات الأحرار فسيصيب

التعرض المسلمات العفيفات أيضا، وهذا من الفساد والإفساد، وذاك سبب نهي عمر ﷺ الإماء عن الحجاب مثل الحرة.

والسؤال: **ماذا لو كانت الأمة جميلة؟! هل يُعقل أن الإسلام** الذي أمر بحجاب المرأة وأمر الرجال بغض البصر فقال تعالىٰ:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (النور: ٣٠).

يأتي بما يهدم كل ذلك؟! والصواب: أنه إذا كانت الأمة غير جميلة أو مشتهاة - كغالب نساء أهل العمل والمهنة والابتذال - فهذه التي لا جُناح عليها إذا تخففت من حجابها، أما إذا كانت جميلة تفتن النظر فلا والله، وقد تعجب **ابن القيم** ﷺ من هذا التناقض قائلًا وهو يشير إلىٰ تخفيف الله الحجاب عن كبيرات السِّنِّ غير المشتهاة في سورة النور: «**وأما تحريم النظر إلىٰ العجوز الحُرَّة الشوهاء القبيحة وإباحته إلىٰ الأمة البارعة الجمال فكذب علىٰ الشارع، فأين حَرَّمَ اللهُ هذا وأباح هذا؟ والله سبحانه إنما قال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ لم يطلق الله ورسوله للأعين النَّظَر إلىٰ الإماء البارعات الجَمَال، وإذا خَشِيَ الفتنة بالنظر إلىٰ الأمة حرُم عليه بلا ريب**»[1].

الشبهة الثالثة:

وهي شبهة أن ابن عمر ﷺ كان يتحسس بيديه جسم الجارية

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، الجزء الثاني، فصل ٥: حكم النظر إلىٰ الحُرَّة وإلىٰ الأَمَة.

قبل شرائها، وأن البعض أجاز ذلك طالما كان بنية الشراء فقط للتأكد من صحة وسلامة الجارية أو لو كانت للتسري.

ونقول قبل أن نورد الأثر إن مَن يعلم حياة ابن عمر ﵄ واستقامته وتشربه من النبي ﷺ حياءه وأخلاقه لن يتقبل مثل هذا الخبر تقبّل الجاهل بابن عمر! بل الذي يعلم غَيرة عمر الفاروق ﵁ يجد عوائق عن قبول هذا الخبر كذلك، حيث روىٰ **البيهقي** بسنده عن **ابن نمير** عن **عبيد الله بن عمر** عن **نافع** عن **ابن عمر** أنه كان إذا اشترىٰ جارية كشف عن ساقها، ووضع يده بين ثدييها وعلىٰ عجزها، وكأنه كان يضعها عليها من وراء الثوب. وهذا الخبر فات الشيخ **الألباني** ﵀ عندما صححه أن **ابن نمير** لم يعاصر **عبيدالله بن عمر** بل ولد بعد موته بقرابة ١٣ أو ١٥ سنة تقريبًا، **فابن نمير** وُلد بعد سنة ١٦٠هـ[1]، في حين مات **عبيدالله بن عمر** سنة ١٤٥ أو ١٤٧هـ[2]، وهذا معناه أن سند الخبر **مقطوع** لا يصلح للاحتجاج، وحتىٰ روايات الخبر الأخرىٰ كلها فلا تسلم من جرح، ولن أتتبعها واحدة واحدة لأن مجال ذلك ليس هنا ولا هذا الكتاب[3].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، الطبقة الثانية عشرة، ابن نمير.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، الطبقة الخامسة، عبيد الله بن عمر.

(٣) العجيب أن هذه عادة النخاسين «تجار العبيد» في الأمم قبل وبعد الإسلام، يعرضون بعض العبيد والإماء عرايا إلا ما يستر العورة المغلظة والكل ينظر، وإلىٰ وقتٍ قريبٍ كانت تُدَارُ مثل هذه الأسواق في مناطق نائية حتىٰ في المملكة السعودية قُرب سواحل إفريقيا، حيث يتواجد مختصون في استغلال فقر بعض=

إذن.. بتساقط أشهر شبهات الإماء وملك اليمين في الإسلام، وبدخول المسلمين بالفعل مع غيرهم من بلاد العالم في أكثر من اتفاقية وحلف **يمنع الرِّق والعبودية** ولو رسميًّا علىٰ الأقل فإنه يتبين لنا التناقض الواسع بين ما ينسجونه من **أكاذيب** عن الإسلام وبين **واقع المسلمين قديمًا وحديثًا**.

ودعوني هنا أختم بذكر أمثلة قليلة من أسماء بعض المشاهير الذين كانوا عبيدًا أو أبناء ملك يمين أو موالي لتنظروا إلىٰ أي مدىٰ أثمرت هذه التشريعات الإسلامية دمجًا حقيقيًّا وقبولًا عمليًّا لهم في وسط المجتمع.

فمن الصحابة:

بلال بن رباح – سلمان الفارسي – زيد بن حارثة، وابنه أسامة بن زيد – سالم مولىٰ أبي حذيفة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن العلماء والتابعين:

الحسن البصري - عطاء بن أبي رباح - نافع مولىٰ ابن عمر - مكحول - يزيد بن حبيب.

=الأفارقة أو سرقة أطفالهم وشبابهم منهم لبيعهم، وقد تتبع أحد الأفلام الوثائقية الغربية البحث عن أحد تلك الأسواق حتىٰ عثر عليه وصوَّر بعض مقاطع مرئية (فيديو) منه، فقام بعض الملاحدة باستقطاع هذا الجزء لإظهاره كأنه تجارة رسمية معترف بها في السعودية، في حين أن أولئك التجار يستخفون بها مثل استخفاء دور الدعارة والبغاء.

ومن الأمراء:

موسىٰ بن نصير - أبو المهاجر دينار - يزيد بن أبي مسلم - محمد بن يزيد.

ومن الخلفاء:

المأمون ابن هارون الرشيد وأمه «مراجل» - المعتصم بالله ابن هارون الرشيد وأمه «ماردة» - المتوكل وأمه «شجاع» - المكتفي بالله وأمه «جيجك خاتون» - المقتدر بالله وأمه «شغب» - الناصر لدين الله وأمه «زمردة» - المستنصر بالله الظاهر وأمه «تورك خاتون» - المستعين بالله ابن المتوكل وأمه «باي خاتون».

ومن كل ما سبق في نقطة العبيد عمومًا وملك اليمين خصوصًا يتبين لنا أن شبهات مشكلة الشر في تلك المسألة يساعد علىٰ وجودها:

- المثالية الزائدة التي تتخطىٰ واقع الحروب ومآسيها.

- الجهل الشرعي والتاريخي بفقه الرق وحقوقهم وأحوالهم في الإسلام.

- الظن من (كثرة الشبهات عن الإسلام) أنه هو الذي أتىٰ بالرق.

- قياس واقع تاريخي إسلامي بواقع أسود ودامٍ للعبيد في الإعلام والتاريخ.

- المسارعة في الميل لتصديق الشبهات رغم تناقضها مع عفة وطهارة الإسلام.

٢١- المُسلمة ومواقف الشك:

علىٰ عكس المسألتين السابقتين اللتين فصلت فيهما وشبهاتهما لقلة المتكلمين فيهما وكثرة الجهل بهما فإني سأختصر هنا في مشكلات المرأة مع مشكلة الشر، فمن جهة: تعد قضايا المرأة المُسلمة من أكثر القضايا المثارة والمتناولة في العصر الحديث للطعن في الإسلام، مما جعل الردود علىٰ تلك الشبهات كثيرة يسهل الوصول إليه حتىٰ لغير المختصين، فما بالنا بالملتزمين والملتزمات؟ ومن جهة أخرىٰ: فإنَّ أكثر المواقف التي قد تؤثر في مسلمة ملتزمة لتشككها في الدين يمكن إدراجها تحت ما سبق من الـ ٢٠ مسألة التي ذكرناها إلىٰ الآن وما سيأتي كذلك، فهي مسائل مشتركة لا تنحصر في الرجال دون النساء، بدايةً من الابتلاء بزوج ظالم أو أسرة قاسية أو مرض وغيره، ومرورًا بالرقة والشفقة الزائدة والدعاء وهكذا..

لذلك سأقتصر هنا علىٰ ذكر بعض المفاتيح التي استفدتها عمليًّا من حالات حاورتها بالفعل لمسلمات كن ملتزمات وتشككن في الدين بسبب بعض المسائل:

أولًا: الصدمة في القدوة عندما تتعرض المُسلمة الملتزمة لظلم من مسلم أو مسلمين تفترض فيهم العلم والصلاح والالتزام، وهنا وجب التنبيه علىٰ قضية خطأ التعميم كما أشرنا من قبل.

ثانيًا: هناك بعض القضايا الفقهية الخلافية التي يتمسك فيها بعض المجتهدين أو المقلدة برأي معين ويصورونه علىٰ أنه الحق

المطلق وما دونه **باطل مطلق**، فيغلقون بابًا أو أبوابًا كانت تسع اختلاف أحوال المرأة أو النساء باختلاف **ظروفهن ومجتمعاتهن**. وهذه النقطة يحلها تعلم المُسلمة الملتزمة للعلم الشرعي الحقيقي وأصوله فتستطيع ساعتئذ التفريق بين ما يسع الخلاف مما لا يسع.

ثالثًا: قد تنتاب المُسلمة الملتزمة بعض أوقات الضعف الإيماني عند النظر لنساء أخريات **غير ملتزمات** يظهرن بصورة الحياة السعيدة **والمثالية**، وهذا يحله ثلاثة أشياء من وجهة نظري:

١- استحضار حقيقة الإيمان بالثواب الأخروي يوم القيامة للمتقين والصالحين فما عند الله خير وأبقىٰ.

٢- إذا كان سبب نظرة الملتزمة لنفسها بالنقص هو ابتلاء فيها أو في أحد أهلها (مثلًا تأخر زواجها أو سوء أخلاق زوجها أو عدم إنجابها أو إصابة ابن لها بعاهة أو تخلف عقلي ونحوه مما يسبب لها ألمًا نفسيًّا وسط الأخريات)، فلتنظر حولها إلىٰ مَن أَصِبْنَ بمثل مُصابِها أو أكبر وصَبَرْنَ ولم يعتزلنَ الناس رغم أنَّ منهن مَنْ قد تكون أقل منها التزاما وعِلمًا واحتسابًا وصبرًا، أيضًا استحضار بعض حِكم الابتلاء، وبعض حِكم تأخر إجابة الدعاء التي أشرنا إليها منذ قليل، فضلًا عن استحضار أحوال الصالحات وابتلائهن مثل آسية امرأة فرعون ومريم عليهما السلام ونحوه.

٣- أن تكون علىٰ يقينٍ أنه ما من امرأة في العالم (أو رجل) تخلو حياتها من ابتلاء أو ما يعكر صفوها؛ فالله تعالىٰ لم يخلق الدنيا علىٰ

أنها جنة كما قلنا، بل وحياة غير المسلمين وغير الملتزمين في ذلك أكثر ضيقًا وبؤسًا في حقيقتها مما يظهرون به في الإعلام والصور ومواقع التواصل والشاشات، فإذا كان ذلك كذلك فكيف الحال مع اللاتي ارتضين حياة التفسخ الأخلاقي والتحرر من قيود الدين والقيم والحشمة؟ والإحصائيات اليوم - ولله الحمد - في كل مكان يسهل الوصول إليها عبر الإنترنت لتعطي الوجه الآخر الذي لا يظهره دعاة التفسخ والشهوات في بلادنا، فكلما تم تشويه مجتمعاتنا الإسلامية لتقترب من المجتمعات الغربية كلما انتشرت فينا أمراضهم التي لا يُظهرها الإعلام وتعاني منها النساء قبل الرجال بأضعاف مضاعفة(١).

رابعًا: اختلاف أحوال المرأة في الماضي عن الحاضر يجعل بعض تعبيرات المفسرين والفقهاء في كتبهم أقرب ما تكون للانتقاص من المرأة، مثل جمعها مع الطفل والسفيه في عبارات واحدة، فهذا وإن كان لا يصح بمفهومه ولا يُعمم على العلماء كلهم (وفيهم مَن أوضح رجاحة عقل المرأة لاسيما إذا تخصصت في مجال تجيده مثل

---

(١) علىٰ سبيل التنوع وفي حين تذهب معظم الإحصاءات لبيان مآسي النساء في أمريكا، فأكتفي بخبر واحد من أوروبا وما أعلنته «وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية» عام ٢٠١٤م بعنوان: (العنف ضد المرأة كل يوم وفي كل مكان Violence against Women: every day and everywhere) ترصد فيه الاعتداءات الجسدية والجنسية علىٰ النساء بدءًا من سن ١٥ سنة، الرابط:
fra.europa.eu/en/press-release/2014/violence-against-women-every-day-and-everywhere

التجارة)[1]، إلا أنه يتأكد في عصرنا الحالي مع اتساع رقعة التعليم والاطلاع علىٰ مختلف العلوم والمعلومات بسهولة ولو ببضعة نقرات علىٰ لوحة المفاتيح والإنترنت، بل ولا نجد غضاضة من وصف كلام مفسِّرٍ ما أو فقيه أنه مُتحامل علىٰ المرأة أو خطأ، فليس هناك عالمٌ معصوم، وإذا كان العلماء يُخطئون في مسائل أكبر من ذلك فيكون من العناد عدم الاعتراف بخطأ مَن أخطأ منهم ها هنا.

خامسًا: وجوب التفريق بين بعض الممارسات المجتمعية الخاطئة والعادات والتقاليد التي لا يرتضيها الإسلام وبين الشرع الإسلامي قرآنًا وسُنة، إذ **الخلط بينهما** يعمل علىٰ إلصاق تلك الممارسات بالإسلام في حين أنها من مُفرزات بعض المجتمعات (ولعل أشهرها ما يتعلق بمسائل ظلم المُسلمة في **ميراثها** سواء بانتقاصها فيه أو عدم إعطائه لها بالكلية أو إعطاؤه لها مع عضلها عن الزواج من خارج العائلة، إلىٰ آخر هذه الصور الظالمة للأسف). فوجب التفريق الذي يعتمد علىٰ تعلم المُسلمة دينها، ثم تعلم كيف

---

(١) مثل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله - في مسألة شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وتوضيحهما المقصود بذلك أنه في حالات معينة وليس في كل الحالات، فالمرأة في رواية الأحاديث تعد راويًا واحدًا مثلها مثل الرجل، وهو نوع من أنواع الشهادة، وكذلك يرتضي القاضي شهادة المرأة الواحدة في أمور النساء لأنهن أخبر بها مثل البكارة والرضاعة والحيض ونحوه، فطالما كان مع المرأة قرينة تعزز شهادتها الواحدة فإن القاضي يأخذ بها حتىٰ ولو في مجال التجارة إذا انتفىٰ جهلُها به وبالمعاملات المالية التي تبتعد عنها أكثر النساء.

تدافع عن حقوقها بالاتصال بالحاكم أو القاضي إذا لم يفلح الحوار والنُّصح مع الأهل.

سادسًا: بعض مشاكل المرأة اليوم (ومنهن الملتزمات) ترجع إلىٰ إسقاط الفروق بينها وبين الرجل، سواء كانت فروقا في طريقة **التفكير** وخبرة الاحتكاك بالناس والحياة أو حتىٰ **فروقا جسدية** وغريزية **فطرية**، وهذا يصنع العديد من التجارب السيئة في حياتها سواء كان داخل البيت أو خارجه، في حين شرع الله ورسوله - **الأرحم بها من نفسها** - قد وضع أهم تلك الفروق أمامها وأمام الرجل ليتم التعامل علىٰ أساسها في الحياة، ومن هنا فكما أن أفضل النساء هن اللاتي يعاملن الرجال علىٰ أنهم رجال مختلفون عنهن نجد أن أفضل الرجال هم الذين يعاملون النساء **علىٰ أنهن نساء** ولسن رجالًا مثلهم، فيراعون الرقة في مشاعرهن وعاطفتهن الجياشة، ويتجاوزون عن بعض الأخطاء والنسيان أو قلة الانتباه التي تعاني منها بعض النساء أو الزوجات لأعذار تلازمهن أحيانًا لا يد لهن فيها؛ فلا ينظرون لهن علىٰ أنه عن قصد أو تجاهل منهن أو تفريط ونحوه، وهي نفسها ذات الأسباب التي تخلق المشاكل بين الرجال والنساء في بلادنا الإسلامية أو خارجها، وهي في الخارج **أكبر وأفدح** لعدم وجود ضوابط دينية وإرشادات للتعامل مثل التي في ديننا، ولذلك كلما ازددنا بُعدًا عن الإسلام كلما ازددنا قربًا من مشاكل الغرب.

سابعًا، وأخيرًا: علىٰ المُسلمة الملتزمة أن تضع لنفسها **أهدافًا**

متعددة في الحياة، ولا تحصر حياتها واهتماماتها في شيء واحد فقط، لأنها إذا أصيبت في ذلك الشيء فستعاني - غالبًا - من الضياع النفسي، وعدم الاستقرار الذهني للأسف (مثل التي يتعرض زواجها لتأخير أو فشل أو طلاق أو موت... إلخ)، فلتجعل لها **أهدافًا** بينها وبين الله، وبينها وبين نفسها، ولتجعل لها **أهدافًا** قصيرة المدىٰ أو مرحلية، وأهدافًا أخرىٰ طويلة المدىٰ،.. وهكذا.

وأكتفي بهذا القدر في تلك المسألة لعدم الإطالة، لأن ما يمكن إضافته بعد ذلك يمكن إدراجه في غيره كما أشرت.

ويُعَدّ من أشهر العوامل المساعدة علىٰ تأثر الملتزمة بهذه المسائل:

- **المثالية الزائدة في توقع حياة بلا مشاكل أو منغِّصات.**
- **قلة العلم الشرعي بحقوقها ودينها.**
- **التعميم المتسرع فيما تتعرض له من ظُلمٍ علىٰ الإسلام ككل.**
- **الانسياق خلف بعض دعاوىٰ المساواة مع الرجل فيما لا يجوز.**
- **لحظات الضعف النفسي التي تزيد من التأثر بالشبهات عن أي وقت.**

٢٢- يأس بعض الأخيار:

عندما يغيب عن المسلم الملتزم أن رأس ماله في عمل الخير هم بقية الناس من حوله، سواء كانوا ملتزمين أو غير ملتزمين أو كفارًا،

فإنه قد تمر عليه لحظات يستوحش فيها الطريق ومتاعبه، **ييأس** من بعض أخطاء ومواقف الملتزمين السيئة معه، **يألم** لحال غير الملتزمين غير المستجيبين له، **يفجع** من انصراف قلب الكفار عن الحق وكثرتهم، فكل ذلك بدلًا من أن يُنظر إليه علىٰ أنه فرصٌ لـ (تكثير) أوجه كسب الخير والدعوة والعمل، يُنظر إليه علىٰ أنه طريق نهاية الأمل وانهيار الإرادة عن مواصلة الكفاح!

وسبحان الله العظيم، لن يكون إلا ما كتبه الله من مجريات الأمور والقَدَر، فلن تتحمل وحدك ضلال الضالين، كما أنك لن تتحمل وحدك هداية المهتدين، فإنما أنت سبب في هذا أو ذاك، فانظر ماذا ستقدم ليحاسبك الله عليه؟

فالتاجر الماهر يسعد إذا كثرت زبائنه وكثر احتياجهم إليه، كيف لا وهم رأس ماله لا غيرهم، وأما ضعيف النفس فيسأم أو يمل (بل وربما يهرب) إذا كثرت زبائنه، بل ربما ترك العمل كله!

ولقد تفطن علماء وصالحو الأمة لمثل هذه الحالة النفسية التي قد تعتري بعض الملتزمين (بل وبعض الدعاة والعلماء أنفسهم أحيانًا)، فكتبوا فيها ما كتبوا، وساروا في تلمس مفاتيح الخروج منها علىٰ نهج رسول الله ﷺ وصحابته.

فإذا كان ذلك كذلك فاعلم أن أول آفة هي:

العجلة..

فاستعجال الثمر يقطع عزيمة المسلم ويوهنها، واستعجال الثمر

قد يكون كناية عن الضعف، أو حتىٰ الرياء والعياذ بالله.

ودعونا نرجع إلىٰ نفس الحديث الذي ذكرناه من قبل لكننا نذكره هنا كاملًا مع التركيز علىٰ آخره، ففي «صحيح البخاري» عن خَبَّاب بن الأَرَتّ ﵁ قال:

«شكونا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بُردة له في ظل الكعبة (وذلك وقت اضطهاد قريش لهم في سنوات الدعوة الأولىٰ بمكة)، **قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟**

قال: كان الرجل فيمَن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيُشَقُّ باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشَّطُ بأمشاط الحديدِ ما دون لحمه من عَظْمٍ أو عَصَبٍ وما يصده ذلك عن دينه.

والله ليتمنَّ هذا الأمر (أي يتم الله دعوة الإسلام) **حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب علىٰ غنمه.. ولكنكم تستعجلون».**

العجيب هنا أننا نرىٰ مع العجلة تقصيرًا عند بعض أهل الحق، في حين نجد في أهل الباطل مَن لا يكلّ ولا يمل من العمل لنشر باطله! وصدق الفاروق عمر فيما اشتُهر عنه عندما قال:

«اللهم إني أعوذ بك من جَلَدِ الفاجر (أي صبره ومثابرته) **وعجز الثقة»!**

ولعل الآفة الثانية هي كما قلنا:

قلة المُهتدين...

إنه الوحشة من العمل والنفور منه لكثرة ما يرىٰ من **الضالين** وقلة ما يرىٰ من **المهتدين**، ولو أنَّ المسلمَ الملتزم أو العالم أو الداعية استوعب أصل دعوته لعلم أنه يعمل **لنفسه أولًا** قبل أن يعمل لهداية غيره، إنه يُزكِّي عن **إيمانه** عندما يدعو غيره للإيمان، ويُزكي عن **علمه** عندما يُعلِّم غيره، وهكذا، وفي النهاية إذا **أدىٰ ما عليه** فلن يضره ضلال البشر ولو ضلوا جميعًا، فهذه ليست مهمته (لستَ عليهم بمسيطر)، يقول ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:١٠٥).

فالمسلم **يَعذُر** نفسه أمام الله إذا أدىٰ ما عليه من النُّصح والبِشارة والنذارة للناس (أي يصنع بذلك لنفسه **العذر** أمام الله أنه فعل ما عليه وما يستطيعه) تمامًا مثل الذين نصحوا الذين اعتدوا في السبت من اليهود فقال لهم الناس:

- ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ۙ ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ ﴾ (الأعراف:١٦٤)، فماذا كان الرد؟

- ﴿ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٤).

العجيب أنَّ **خِيرَةَ دُعَاةِ البشرية أنفسهم** - وهم الأنبياء - لم يتوقفوا لقلة المهتدين أو المتبعين لهم، فقد جاء في جزء من حديث **عرض الأمم** الشهير في «صحيح البخاري» قول النبي ﷺ:

«عُرضت عليَّ الأممُ، فجعل يمرُّ النبيُّ معه الرجل، والنبيُّ معه الرجلان، والنبي معه الرَّهْطُ، والنبيُّ ليس معه أحد»!

ولاحظوا قوله «الأمم» ثم يذكر النفر والنفرين واللا أحد!

بل كيف الأمر وقد ذكر رسول الله ﷺ ما سيلاقيه خيرة المسلمين من صعوبات وسط الآخرين ووسط الفتن؟! أليس هو القائل ﷺ كما عند الترمذي (وصححه الألباني):

«يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَىٰ دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَىٰ الجَمْرِ».

ولذلك ينقل ابن القيم رحمه الله عن السلف الصالح قولهم:

«عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين»، فيعلق علىٰ ذلك قائلًا:

«وكلما استوحشتَ في تفردك فانظر إلىٰ الرفيق السابق، واحرص علىٰ اللحاق بهم، وغُضّ الطَّرْفَ عمّن سواهم، فإنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متىٰ التفت إليهم أخذوك وعاقوك»[1].

فقلة المهتدين هكذا تضرب ضربتين في عمق النفس وهما: ضربة انشغال النفس بهم وتأثيرهم عليها حتىٰ تضلّ، وضربة الرِّقَّة والشفقة عليهم والمُفْضِيَة إلىٰ التسخط علىٰ الأقدار واليأس (وكأنه مُلزَمٌ بأن يهدي الناس)، والله يقول:

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٢١/١) (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت).

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص:٥٦).

ومن هنا يمكن أن نذكر بعض العوامل التي تؤثر في هذه المسألة مثل:

- **المثالية الزائدة في تصور أن كل مَن تبين له الحق (يجب) أن يهتدي.**

- **الرِّقَّة والشفقة الزائدة علىٰ الضالين وغير المهتدين.**

- **استعجال رؤية ثمرات العمل والدعوة، والإصابة باليأس عند تأخرها.**

- **أكثر البشر شفقة عليهم هو رسول الله ﷺ**، ورغم ذلك قال له ﷻ:

- ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٣)، وقال أيضًا:

- ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨).

٢٣- التأثر بتأخر المسلمين وصراعاتهم:

يظل الإيمان منبعًا للغذاء الروحي للإنسان لا ينضب، لكن مع التفاتة البعض بعين **الجهل** إلىٰ واقع الأمة الأليم اليوم فإن قَصْرَهَا في **الشقِّ المَادِّيِّ** يؤثر علىٰ هذا البعض حتىٰ وإن كانوا **ملتزمين ظاهرًا**؛

حيث النظرة المثالية هنا تقتضي عندهم أن يكون **النجاح والتوافق دومًا حليفًا للمسلمين ومرتبطًا بهم علىٰ الدوام مهما وقع**، ومن ثَمَّ بمجرد تَلَقِّيهم وانتباههم للشبهات الطاعنة في ذلك (والتي بات وصولها لأي أحد متيسرًا اليوم مع وسائل التواصل والإعلام) يبدأ **ضعيف العلم** منهم في التأثر بها للأسف.

والموضوع يطول ويطول، لكني سأحاول الإشارة إلىٰ أهم ما قابلته فيه:

أولًا: التأثر بافتراق المسلمين إلىٰ فِرق يطعن بعضها في بعض سواء علىٰ المستوىٰ **التنظيري** العلمي الشرعي، أو علىٰ مستوىٰ **الصراعات** المسلحة والحروب، وللوقوف علىٰ أسباب ذلك نقول باختصار: ليس كل مَن يُعلن الشهادتين صار مسلمًا، فهناك **منافقون** يسعون لهدم وتحريف الإسلام كما فعلوا مع اليهودية والنصرانية من قبل، والله تعالىٰ يذكر إحدىٰ علاماتهم قائلًا:

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ (المنافقون: ١).

فكما دخل المنافق **بولس** في النصرانية فحرَّفَ عقيدة التوحيد وزعم ألوهية **عيسىٰ** عليه السلام والثالوث وغيَّر وبدَّل فهناك بين المسلمين مثل ذلك كثير، فالإسلام ليس دينًا **سحريًا** وإنما هو امتحان مثله مثل كل ما يمتحن به الله البشر، فكما **يدخل** فيه أناسٌ **يخرج** منه آخرون، وهذا الكلام منذ عهد رسول الله نفسه ﷺ، وانظروا وصف الله تعالىٰ

للمنافقين في عدة آيات من سورة التوبة لتعرفوا موقفهم من الجهاد سواء قعدوا أو خرجوا (يعني يمكن أن يخرجوا كذلك في الجهاد لمزيد الخداع)! ثم يختم قوله فيهم قائلًا:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ (التوبة: ٥٤).

فإذا كان ذلك كذلك فلم يستبعد المسلم الملتزم نشأة عشرات الفرق الضالة في الإسلام منذ عهد النبي وصحابته وإلىٰ اليوم[1]؟!

لكن الفرق الوحيد بيننا وبين الأمم السابقة من يهود ونصارىٰ هو أن ذلك التشرذم والتفرق لفِرق كثيرة جدًّا قد نجح في القضاء علىٰ أصل رسالاتهم وإخفائه وطمس التوحيد الخالص لله، أما الإسلام - الدين الخاتم والباقي إلىٰ يوم القيامة - فلا.

ثانيًا: إذا فهمنا النقطة السابقة علمنا يقينًا أن هناك ثوابت في الدين لا يمكن لأحد أن يهدمها مهما فعل، وأن كل مَن يخالفها فقد خالف

---

(١) وهو مصداق حديث النبي ﷺ عن افتراق اليهود إلىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وافتراق النصارىٰ إلىٰ ثنتين وسبعين فرقة، وافتراق أمته إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، هي ما عليه وأصحابه، أو الجماعة التي تتبع أصول الإسلام التي لا خلاف فيها من القرآن والسُّنَّة، والحديث بمجموع رواياته عن الصحابة وألفاظها صححه جمعٌ من أهل العلم، فقد صححه الحاكم (١/ ١٢٨)، وحسنه ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٦٣)، وصححه ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٤٥)، والشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٤٣٠)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٩٩).

حقيقـة الإسـلام وأصـله، وعلـىٰ رأسـها القـرآن كـلام الله والسُّنَّة والأحاديث الشارحة والمفصلة للقرآن. فكل الفرق التي ضلت عن الإسلام لها قدرها ونصيبها من الضلال في القرآن والسُّنَّة قلَّ أو كثر، ولقد أرشدنا ﷻ إلىٰ ما يقينا التفرق والتشرذم لمَن يريد فقال سبحانه:

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وقال:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ ﴾ (آل عمران:١٠٣).

ثالثًا: كنا أشرنا من قبل إلىٰ أنه ليس مجرد الدعاء أو كونك مسلمًا يعني امتلاكك زرًّا سحريًّا يقيك من الابتلاءات، وإلا لأعلن الكفار إيمانهم ولو في الظاهر لينضموا إلىٰ هذه (**الحصانة الكونية**) التي تجعلهم في الدنيا يعيشون في نعيمٍ وجنة! والحاصل أن الابتلاء هو أصل في هذه الدنيا يُمتحن به الإيمان، ثم مِن هذا الامتحان والتمحيص المتواصل جيلًا من بعد جيل وقرنًا من بعد قرن يظهر ثبات مَن ثبت من المسلمين علىٰ اليقين، وتظهر صفات الصالحين من بين أحلك المواقف وأثقلها علىٰ النفس. وعلىٰ هذا شاءت حكمة الله تعالىٰ أن تقع مختلف الفتن والبلايا للمسلمين سواء من عدوهم أو بينهم وبين أنفسهم من اختلاف الآراء والاجتهادات، وظهور بعض الأطماع لدىٰ ضعيفي الإيمان ومحبي السُّلطة وغيرها، لكن لن يستأصل عدوٌّ شأفتهم مهما فعل.

رابعًا: أما بالنسبة للتأخر الحضاري والعلمي خصوصًا فذلك يرجع لعدة عوامل ليس منها الإسلام نفسه أو الالتزام الديني بل العكس، ففي أوج الحضارة الإسلامية كانت الأمة تعلو بدينها وأخلاقها وأوامر ربها لعمارة الأرض والتدبر في الكون، ورغم أن أفرادها ليسوا معصومين من الخطأ (فقد كان هناك خطاة في وقت النبي نفسه ﷺ)، إلا أنها لم تتأثر ببعض النزاعات الداخلية وبقيت متماسكة في عمومها عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، إلىٰ أن تسلل مَن تسلل من المنافقين والفرق الضالة إلىٰ المُلك والوزارات، فخان مَن خان وباع مَن باع (وما سقوط الخلافة العباسية في بغداد من ذلك ببعيد)، ثم توالىٰ الوَهَنُ علىٰ الأمة مع تكالب الأعداء من الخارج وأعوانهم من الفِرَق الضالة من الداخل، فصار التضييق يتم علىٰ العِلم مع التردي العسكري والحروب المستمرة التي مضت لقرون شرقًا وغربًا. وصار الحالُ إلىٰ نسيان فضل مئات علماء المسلمين الذين وضعوا الأسس الحديثة للعلم التجريبي كما نعرفه اليوم، في الكيمياء والأحياء والطبيعة (الفيزياء) والجبر والهندسة والفلك والطب والصيدلة، بل وحتىٰ في علوم التشفير والتسيير الذاتي[1].

---

(١) لمطالعة الكثير من هذه الاكتشافات والإنجازات وبالصور لعلماء المسلمين يمكن الدخول علىٰ موقع (ألف وواحد اختراع)، رابط النسخة العربية:
www.1001inventions.com/arabic

رابط النسخة الإنجليزية:

www.1001inventions.com

وإلىٰ اليوم، ورغم نبوغ مئات العقول الإسلامية خارج بلدانها في أرقىٰ جامعات العالم حينما توافر لهم **أقل قدر من الاهتمام والدعم**، إلا أنه نادرًا ما يوليهم الإعلام **المُسَيَّسُ اهتمامه إمعانًا في غرس** الانهزامية النفسية عند شباب المسلمين وعوامهم! وإذا فعل يكون **مُضطرًّا** خاصةً مع التواصل العالمي اليوم وعدم خفاء الأخبار، أو لحفظ بعض ماء الوجه لكي يُظهر بعض التحضر والتقدم بين المواطنين، لكن تبقىٰ علامات الاستفهام الكثيرة **عمَّن يتعمد عرقلة** البحث العلمي في بلاد المسلمين وجامعاتهم؟ **وعمَّن يتعمد قلة** الإنفاق عليه مقارنة بالمشاريع الأخرىٰ الإعلامية والترفيهية والرياضية الموجهة؟

والخلاصة أنَّ سُنَّةَ التدافع تقتضي وجود هذا الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، **وعدم ثبات الأحوال** بين الغلبة والتبعية، وبين القوة والضعف، لكن العجيب أنَّ أمة الإسلام لم تفقد أبدًا بريقَ **الحقِّ** الذي معها في اجتذاب الباحثين عنه إليها، مهما بلغت ظروفها من الوهن!

ومما يساعد في تأثير هذه الشبهات في هذه المسألة عند الملتزمين:

- **المثالية الزائدة في تنزيه أهل الحق أن تقع بينهم تناوشات وخلافات.**

- **المثالية الزائدة في أن ينال أهلُ الباطل من أهل الحق**[1].

---

(١) لعلنا نستحضر هنا مخالفة الرُّماة لأمر رسول الله ﷺ في غزوة أُحد فانقلبت الغزوة من نصرٍ تامٍّ للمسلمين إلىٰ استشهاد ٧٠ صحابيًا منهم عم النبي ﷺ =

- الجهل الشرعي بفقه الاختلاف وحكمته.

- الجهل التاريخي بعظمة المسلمين الحضارية في كل المجالات.

- الجهل بمئات القدوات العلمية والحضارية الإسلامية في عالمنا اليوم.

٢٤- استعظام الذنوب:

وهي صورة غريبة من مستنقع مشكلة الشرّ، يكون فيها الصراع داخليا أو (نفسيا/ نفسيا) - إذا صح التعبير - حيث يكره فيها الإنسانُ الملتزم نفسَه ويكره الدِّينَ بسبب وقوعه في بعض المعاصي، أو الاستمرار في بعضها، فيبدأ الأمر أولًا بالاستنكار، ثم بمحاولة الإقلاع، ثم يتحول الفشل عند هذا الصنف إلىٰ يأس وإحباط، ثم ينتهي بإسقاط ذلك الفشل والإحباط علىٰ سببٍ آخر وهو عدم منع الله له من الوقع في هذه المعاصي، فصار اللهُ تعالىٰ هو المُلام وحاشاه!

والحقيقة أنَّ رسول الله ﷺ قد أوضح لنا أن ضعفنا أمام الذنوب هو شيء طبيعيٌّ فينا، ولا يعارض خلق الله تعالىٰ لنا مُختارين ابتداءً، لأن المُختارَ يُتوقع صدور الخطأ منه بداهة، وهذا نفس ما

=حمزة ﷺ أجمعين، وإصابة النبي ﷺ نفسه في وجهه الشريف، كل ذلك وقع لمخالفة أمرٍ واحدٍ فقط لرسول الله ﷺ، فماذا نتوقع عندما تترك أمته عشرات من أوامره وتفعل العشرات من نواهيه؟ فالتدافع هو سُنَّة الله بين أهل الحق وأهل الباطل: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد: ٤).

ذكرناه من قبل في الباب الأول من هذا الكتاب، فالله تعالىٰ عنده الملائكة بالفعل (وهي مخلوقات لا تَعصي)، ولو شاء خَلْقَ مثلِها لَخَلَقَ ألف ألف مخلوق وزيادة، لكنه أرادنا **مُختارين** تمامًا علىٰ الهيئة التي نحن عليها، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ** (وهو قسمٌ بالله تعالىٰ) **لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

ورُوِيَ أيضًا عن خالد بن زيد ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

إذن..

العبرة ليست في وقوع الذنب، فكلنا مُعرضٌ لذلك، ولا معصوم إلا مَن عصمه الله، ولا يصح أن يكون ذلك الوقوع سببًا ليتسخط مسلم ملتزم علىٰ ضعفه ولا علىٰ الدين ولا علىٰ أقدار الله، **بل العِبْرَة كل العِبْرَة** فيمَن يتذكر الله عند الذنب فيتركه، أو يندم بعده فيستغفر ويتوب، يقول الله ﷻ:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:١٣٥).

فمهما كان الذنب الذي يقع فيه الإنسان فإنَّ الله تعالىٰ قادر علىٰ

أن يغفره طالما لم يكفر أو يُشرك به؛ يقول تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٨).

وعلىٰ هذا نرىٰ رسول الله ﷺ يُفصِّلُ لنا في المسألة عمليًّا قائلًا - فيما روىٰ البخاري ومسلم في «صحيحيهما» -:

«إنَّ عبدًا أصاب ذنبًا فقال: يا رب إني أذنبتُ ذنبًا فاغفره لي، فقال ربه: عَلِمَ عبدي أن له ربًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به (أي يعاقبه به إذا أراد ولا يُمهله)**، فغفر له.**

ثم مكث ما شاء الله (أي مرَّ الوقت)**، ثم أصاب ذنبًا آخرَ فقال: يا رب إني أذنبتُ ذنبًا آخر فاغفره لي، فقال ربه: علِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له.**

ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا آخر فقال: يا رب إني أذنبت ذنبًا آخر فاغفره لي، فقال ربه: علِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به.. غفرتُ لعبدي، فليعمل ما شاء».

أي مهما صدر منه فسأغفره له طالما ندم وتاب توبةً نصوحًا (وهي التي ينوي فيها عدم العودة للذنب حتىٰ لو غلبته نفسه أو شهوته بعدها)، واعترف بقدرتي عليه إذا شئتُ أن آخذه بذنبه ولا أمهله.

ولذلك...

نجد معنًىٰ آخر عجيبًا وهو أنَّ النبي ﷺ لم يُسقط محبة الله ورسوله من قلوب المُذنبين المسلمين! بمعنىٰ أنه لا تعارض، نعم

الإيمان يزيد وينقص، ويكون للوقوع في الذنوب أثر، لكن لا ينبغي أن يكونَ **الوُقوعُ في الذنب** سببًا في إسقاط إيمان المسلم، أو القدح في محبته لله ورسوله، فما أكثر مَن تغلِبُهُم أجسادهم علىٰ الشهوات والمعاصي حتىٰ لو كانوا مُحبِّين لله ورسوله!

فإذا استشعر المسلم الملتزم تلك المعاني:

فوالله **لَتَوَاضَعَ للناس جميعًا** حتىٰ للمذنبين من المسلمين، فلم يحتقرهم، بل يدعو لهم ولنفسه بالهداية، ولرأف المسلم الملتزم بنفسه إذا وقع في الذنب يومًا، ولم يبالغ أو يغلو في التسخط الذي ذكرناه؛ فقد روىٰ البخاري في «صحيحه» عن عمر ﷺ:

«**أنَّ رجلًا علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقب حِمَارًا، وكان يُضْحِك رسولَ الله ﷺ** (أي مِنْ محبته له كان يُضحكه بالطُّرَفِ والمواقف)، **وكان النبي ﷺ قد جَلَدَهُ في الشراب** (أي جلده لشربه الخمر، ولم تمنعه محبته له من تعزيره بالجلد)، **فأُتِيَ به يومًا فأَمَرَ به فجُلِدَ، فقال رجلٌ من القوم: اللهم العنه، ما أكثرَ ما يؤتَىٰ به، فقال النبي ﷺ: لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ - مَا عَلِمْتُ - إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

أي ما علمتُ عنه إلا أنه يحب الله ورسوله.

فإذا كان هذا حال رجل يشرب الخمر أكثر من مرة فما بال المسلم الملتزم عند الوقوع في بعض الهنات أو الذنوب؟

ومما يعمل علىٰ تأثير هذه الحالة في تلك المسألة عند بعض الملتزمين:

- المثالية الزائدة في تصور المَنَعَة الذاتية عن الذنوب أو تكرارها.

- الشدة علىٰ النفس والغُلُوُّ في ذلك قد ينقلب إلىٰ العكس عند الوقوع في ذنب.

- اليأس والقنوط من رحمة الله تعالىٰ، وهو نوع من أنواع الكفر، للأسف.

- قلة العلم الشرعي وفقه النفس، وعدم الاطلاع علىٰ الكتب المختصة في ذلك مثل كتب تزكية النفس والتعامل معها.

٢٥- القسوة والحدود:

وهي من الأبواب الحديثة التي يستغلها الملاحدة وغيرهم لتشكيك الملتزمين في رحمة الله تعالىٰ، وبالتالي للتشكيك في الإسلام، ولن نطيل في الوقوف عندها إذ يكفي فيها النظر إلىٰ حكمتين فقط ليتضح لنا مدىٰ رحمة الله فيها، وذلك بعكس ما يزعمه المرجِفُونَ والمخادعون.

الحكمة الأولىٰ:

وهي راحة نفس المظلوم أو أهله.. فكلُّ مَن يتحدث عن عدم إيقاع العقاب البدني بالمجرمين إنما يتحدث ببرود مَن لم يتعرض للجريمة أو أحد أحبابه، وكما ورد في المثل العامي: «مَن يده في الماء ليس كمَن يده في النار»، وهو واقعٌ لا يلتفت إليه المخدوعون بهذه الشبهات والشعارات الإنسانية الزائفة للأسف! ألا وهو أهمية العدل

في العقاب، وتناسبه مع الجريمة، وأهمية القصاص للضحية أو أهلها بأحكام تشفي القلب والغليل[1]، فتمنعهم من الانتقام أو أخذ القصاص بأنفسهم إذا رأوا عدم تناسب العقاب مع الجُرم.

فكل معترض علىٰ قتل القاتل أو صَلب المُرِّوع للناس بالسلاح، أو قَطْع يد السارق، أو جَلْد الزاني غير المُحصَن (أي غير المتزوج)، أو رجم الزاني المُحصَن (أي المتزوج) حتىٰ الموت سيدرك خطأه إذا فكر بمنطق الضحايا لتلك الجرائم أو أهليهم من زوجٍ أو زوجة وأبناء أو أب وأم؛ أو حتىٰ فكر بمنطق حماية المجتمع ككل (لأن المجتمع الذي يعرف سُرَّاقُهُ أنه سيتم قطع أيديهم سيتعظوا، لأنه يمكن تعويض كل شيء إلا عضوًا فقده الجسم).

والعجيب هنا اكتشاف أن أغلب المعترضين مِنْ دُعاة الإنسانية هم مجرد تابعين للغرب، فالغرب نفسه إذا اعتمد طُرُقًا في العقاب مهما كانت (مثل القتل بالكرسي الكهربائي أو القتل بالسُّمِّ،... إلخ)، فإنهم سيقبلونها، ولو اعترض الغرب علىٰ قتل معين سيعترضون عليه! والحقيقة أنه ليس أصدق من الرأي العام في قَبول العقاب المناسب للمجرمين، نلاحظ ذلك في القبول الشعبي لأقصىٰ العقوبة علىٰ الجرائم التي تتبدىٰ فيها الوحشية والإجرام بشكل مستفز، مثل بعض السفاحين وبعض مغتصبي وقاتلي البنات الصغار[2].

---

(١) «الغليل» هنا بمعنىٰ الغَيْظ والحِقْد الذي يملأ قلب الضحية المظلومة.

(٢) مثل الجريمة التي وقعت مؤخرًا من اختطاف الطفلة الباكستانية زينب الأنصاري (٧=

الحكمة الثانية:

وهي أن الله الذي خلق الإنسان هو أعلم بما يزجره عن الحرام والإجرام، وهو الأعلم بأن **العقاب المؤلم الواحد على الجريمة الواحدة على مرأى ومسمع من الناس**: كفيل بمنع **مئات الجرائم** فيما بعد في باقي المجتمع.

ووالله إن كل مَن عاش في بلد كان يُطبق فيه شرع الله تعالى ليعلم أن الناس عاشوا فيه لقرون لم يسمعوا عن إقامة حد السرقة إلا **مرات معدودات!** فالشاهد يُخبر الغائب، والأجيال تتناقل إقامة الحد والنكال بصاحبه فتنزجر:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٨).

بل ولا يجب أن تأخذ المسلمين **رأفة** في تلك العقوبات ولا في **مشاهدتها**، بل الرحمة كل الرحمة في إيقاع العقاب بالظالم أو المجرم أو المُخرب للمجتمع والأخلاق والأعراض، وإلا **فليضع أحدُنا نفسه** مكان الأب الذي زني أحدهم بابنته أو الأخ الذي زنى أحدهم بأخته:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:٢).

أو **يضع أحدُنا نفسه** مكان الزوج الذي زنت زوجته ولوثت

=سنوات) يوم ٤ يناير ٢٠١٨م ثم اغتصابها وقتلها بمدينة «قصور» بولاية «البنجاب».

فراشه ليعلم كم هو رحيمٌ حدُّ الرجم بقلبه في عقاب الزانية أو الزاني المُحصَن (أي المتزوج).

حفظ الله الجميع...

فبتلك الحدود التي يشمئز منها البعض يقع الخوف من العقاب في النفوس الضعيفة، فترتدع، وتحجز أنفسها عن الحرام، حتىٰ إن أحدهم كان يترك في السعودية محله مفتوحًا (ولو كان يبيع فيه الذهب) وهو لا يخشىٰ عليه السرقة!

هذه ليست قصصًا خيالية، بل سمعتها من أشخاص نصارىٰ (فلبينيين) وليسوا مسلمين! نصارىٰ عاشوا في السعودية ٣٠ عامًا ويشتكون اليوم من قلة تطبيق تلك الأحكام علنًا مقارنة بما سبق، وذلك تفسيرهم لتزايد معدلات الجريمة!

إذن... حدود الله تعالىٰ هي حدود:

١- عادلة.

٢- رادعة.

وبالطبع ليست كل حدود الإسلام هي قطع رأس أو يدين أو رجم، بل هناك باب كبير للتعزير فيما لم يأتِ فيه حكم مُحدد، وهو متروك لتقدير القاضي، فقد يكون التعزير سجنًا أو جلدًا أو استبعادًا ونفيًا أو قتلًا.

وأما ما يفعله بعض الغربيين اليوم للتمييع بدعوىٰ الإنسانية والتحضر من قوانين العقوبات؛ فلم يرجع عليهم إلا بزيادة الجريمة

أضعافًا مضاعفة! حيث لا عدل وقع، ولا عقاب ردع غيرهم عن تكرار نفس جرائمهم، بل قد يتحول صغار المجرمين إلىٰ خبراء باحتكاكهم في السجون بالكبار، ناهيك عن التلاعب بالعقوبات من أجل بعض **ذوي السلطة والنفوذ** (فتجد عقابًا بالغًا مشددا علىٰ جريمة صغيرة، وعقابًا تافهًا هزيلا علىٰ جريمة كبيرة)، وسأذكر من ذلك مثالًا من عام ١٩٥١م حيث أنفقت **هيئة الأمم** المتحدة ملايين الدولارات لتنظيم مؤتمرات دولية بخصوص **«علم الإجرام والعقوبات»**، لكن كل ذلك ذهب هباءً - كما قلنا - بابتعادهم عن شرع الله، وسأترككم هنا مع الاعتراف التالي بذلك الفشل الذريع من المسيو **موريس باتان** Morris Batan أحد قضاة النقض في المحكمة الفرنسية (والتي من المفترض أنها قِبلة التشريع وحرية الإنسان في العالم الغربي الحديث)، حيث قال في افتتاح مؤتمر (الوقاية من الإجرام) المنعقد في (باريس - ١٩٥٩م):

«أنا لست إلا قاضيًا في جهاز العدالة، ولم يخطر علىٰ بالي في أي وقت من الأوقات الاهتمام بأسس الوقاية من الإجرام، لأن وظيفتي لم تكن هناك، بل علىٰ العكس؛ فقد كانت ولا تزال في العقاب لا في الحماية، كرست حياتي تبعًا لمهنتي القضائية الطويلة في محاربة المنحرفين حربًا سجالًا لا هوادة فيها، سلاحي الوحيد الذي وضعه القانون تحت تصرفي هو سلاح العقاب التقليدي... أوزِّع الأحكام القاسية والشديدة أحيانًا علىٰ جيوش المجرمين والمتمردين ضد المجتمع... ساعيًا ما أمكن إلىٰ التوفيق بين نوعية العقاب وبين نوع

الجريمة... وكنت أسأل نفسي دومًا كما كان الكثيرون من زملائي يتساءلون أيضًا عما إذا كان هذا السلاح قد أصبح في يدنا الآن لا وزن له ولا تأثير؟ بل وقد شعرت ولا أزال أشعر بكثير من الألم والمرارة والذين كان يشعر بهما أبطال الأساطير، والذين كانوا كلما قطعوا رأساً من رؤوس المسخ كانت تنبت محله رؤوس ورؤوس، وقد تعاقبت السنوات وأنا ألاحظ بدهشة أن عدد المجرمين لا يزال مستقرًا إن لم يكن يتزايد! وأنه كلما كنا نرسل الكبار منهم إلىٰ السجن أو إلىٰ المنفىٰ أو إلىٰ المقصلة: كان غيرهم يخلفهم في نفس الطريق بأعدادٍ أكثر منهم»[1].

وأما العوامل التي تساعد علىٰ تأثير هذه المسألة علىٰ بعض الملتزمين:

- المثالية الزائدة في مساواة كل المجرمين وكل الجرائم في العقوبات.
- الرِّقَّة والشفقة الزائدة في موضوع العقاب، والحيلولة دون الإيذاء البدني.
- الجهل الشرعي بوجوب إقامة الحدود.
- الجهل الأمني لفائدة مناسبة العقاب للجريمة ولو وصل للقتل.
- الجهل التاريخي بفائدة إقامة الحدود علنًا أمام الناس.

* * *

(١) ذكرها د. منصور رحماني في رسالةٍ له من جامعة سكيكدة بالجزائر بعنوان: (الإعجاز التشريعي في مكافحة الجريمة).

الختام...

ليست هذه كل المسائل التي قد تعرِض لإيمان بعض الملتزمين للأسف، كما أني لم أذكر كل الحُجج الإسلامية أو لمفكري الغرب ضد مشكلة الشر، لكني بهذا الكتاب أخطو خطوة لفتح الباب أمام مَن يريد الإفادة والاستزادة، خاصة في الوقوف علىٰ حقيقة كمال حِكمة الله تعالىٰ في تقديره للأمور بعدله ورحمته، وبما قد يخفىٰ عنا في مشكلة الشر وما يقع لنا مما نكره، وهو ما يتعامل معه المسلم إذا عجز عن فهمه علىٰ أنه من المُتشابهات التي يجب أن يعود بها إلىٰ المُحكمات من إيمانه ويقينه بالله تعالىٰ خالقه[1]، فأرجو الله تعالىٰ أن ينفع بها حائرًا، أو يهدي بها ضالًّا، أو يعين بها باحثًا، وأن يكتب لها القبول.

اللهم آمين.

***

---

(١) تماماً كما يعود المسلم بما لا يفهم تفسيره من مُتشابهات القرآن إلىٰ ما يفهمه من مُحكماته ليقينه بأنه كله من عند الله كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (آل عمران:٧).